كارل غوستاف يونغ

دور اللاشعور ومعنى علم النفس للإنسان الحديث

ترجمة: نهاد خياطة




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الطبعة الأولى

1412هـ - 1992م



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف ١٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص. ب ١١٣/٦٣١١ تلكس LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

كارل غوستاف يونغ



ترجمة: نهاد خياطة



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

1 - دور الخافية (اللاشعور)

تقرع كلمة « الخافية » أو « اللاشعور » Unconscious في أذن الإنسان العادي غير المختص نغمة تدل على شيء ميتافيزيقي، أو على شيء يكتنفه الغموض وتحيط به السريّة . وترجع هذه الصفة العالقة بمفهوم الخافية، في الدرجة الأولى، إلى دلالة هذا الاصطلاح على كينونة ميتافيزيقية عندما وجد طريقه إلى لغة التخاطب العادية . فقد كان إدوارد فون هارتمان، على سبيل المثال، يدعو الخافية بـ « الأرض العالمية » Universal ground ثم جاءت الخافية « الخفائية » Occultism فأدرجت الكلمة في جملة مصطلحاتها، من حيث أن الذين يميلون إلى الأمور الغيبية مولعون باستخدام المصطلحات العلمية لكي يلبسوا أفكارهم قناعاً « علمياً » . أما علماء النفس التجريبيّون، الذين ظلوا مدة طويلة يعتبرون أنفسهم ـــ وهم ليسوا على غير حق في هذا ـــ الممثلين الحقيقيين للسيكولوجيا العلمية، فقد اتخذوا موقفاً سلبياً من مفهوم الخافية أو اللاشعور، على أساس أن كل شيء نفسي عندهم فهو شأن من شؤون الواعية أو الشعور، وأن الواعية وحدها هي الجديرة باسم « النفس » (سايكي Psyche) . كانوا يسلمون بأن المحتويات النفسية الواعية تُبدي عن درجات متفاوتة من الوضوح، بعضها « أسطع » أو « أظلم » من بعض؛ لكنهم لم يقرّوا بوجود محتويات غير شعورية أو باطنة من حيث أن اصطلاح « اللاشعور » ينطوي على تناقض .

تنبع هذه النظرة إلى حد كبير جداً من ظرف العمل المخبري الذي كان يقتصر على الأشخاص « الأسوياء » دون غيرهم، كما تنبع من طبيعة التجارب نفسها . فقد كانت هذه التجارب مَعْنِيَّةً، إلى أبعد ما يمكن، بأكثر السياقات النفسية ابتدائيةً، بينما كان البحث في الوظائف النفسية الأعقد، وهي وظائف لا تخضع بطبيعتها للسياقات التجريبية المبنيّة على قياسات دقيقة ــ كان هذا البحث غائباً بالكلية أو كاد . لكن العامل الذي تجاوز هذين السببين معاً من حيث الأهمية هو فصل علم النفس التجريبي عن علم الأمراض النفسية Psychopathology . فقد راح علماء النفس الفرنسيون، منذ زمن « ريبو »، يولون الظاهرات النفسية غير السوية abnormal اهتماماً كبيراً، حتى أن أحد كبار ممثليهم، وهو « بينيه » Binet، أعلن أن النفس المريضة إذ تبالغ في إظهار الانحرافات (عن الحالة السوية) فإنما تيسّرها على الفهم بعد أن كانت غير مفهومة لولا هذه المبالغة . وهناك عالم فرنسي آخر، هو بيير جانيه Janet، انكبّ على درس السياقات السيكوباثولوجية (المرضية ــ النفسية) حتى خرج منه بنجاح عظيم . إذ ليس كالسياقات النفسية غير السوية ما يقيم الدليل على وجود الخافية على أظهر ما يكون الدليل . لهذا كان الأطباء، وعلى رأسهم المختصون في حقل الأمراض النفسية، هم الذين أيّدوا فرضية الخافية ودافعوا عنها دفاعاً شديداً . لكن بينما كان علم النفس في فرنسا يغتذي من لُقى علم الأمراض النفسية وقاده هذا إلى قبول مفهوم السياقات غير الشعورية، كان الأمر في ألمانيا يتخذ وجهة معاكسة، إذ كان علم الأمراض النفسية هو الذي يغتذي من علم النفس،، إذ أمدّه هذا بعدد من الأساليب الاختبارية القيّمة؛ لكنه هنا لم يرث من علم الأمراض النفسية اهتمامه بالظاهرات المرضية . إن هذا يفسر لنا، إلى حد كبير، لماذا اتخذ البحث السيكوباثولوجي

خطّاً تطورياً في ألمانيا مختلفاً عنه في فرنسا . فقد أصبح ــ إلا ما كان من اهتمام يستثيره في الدوائر الأكاديمية ــ مهمة لمن يمارس الطب الذي يضطر بحكم عمله المهني إلى فهم الظاهرات النفسية المعقدة التي تظهر أعراضها على مرضاه . بهذه الطريقة ظهرت إلى حيز الوجود جملة من الآراء النظرية والتقانيات التطبيقية عُرفت باسم « التحليل النفسي » Psychoanalysis . وقد خضع مفهوم الخافية في حركة التحليل النفسي إلى تطور أكبر مما خضع له في المدرسة الفرنسية التي كانت تولي مختلف الأشكال التي تتخذها السياقات غير الشعورية عناية أكبر مما توليه للجانب السببي والمحتوى النوعي . لخمس عشرة سنة خلت، وبمعزل عن مدرسة فرويد، وعلى أساس من أبحاثي التجريبية الخاصة، توصلت إلى الاقتناع بوجود سياقات غير شعورية خافية وبأهمية هذه السياقات، وقد أشرت في نفس الوقت إلى الأساليب التي يمكن أن نبرهن بها على وجود الخافية . ثم استطعت، بالتعاون مع عدد من تلامذتي، أن أبرهن أيضاً على أهمية السياقات الخافية في غير الأصحّاء عقلياً .

نتيجة لهذا التطور الطبي الصرف، اتخذ مفهوم الخافية سِمةً مستمدَّةً من العلوم التطبيقية، في بادئ الأمر؛ وقد ظل مفهوماً طبّياً صرْفاً في مدرسة فرويد . تذهب هذه المدرسة إلى أن الإنسان، بما هو كائن متمدن، لا يستطيع أن يلبي عدداً كبيراً من بواعثه ورغباته الغريزية، لأنها تتعارض مع القوانين والقيم الأخلاقية . لذلك يضطر إلى كبح جماح هذه الرغبات إن كان يريد التكيّف مع المجتمع . إن افتراض وجود مثل هذه الرغبات لهو افتراض معقول جداً، ويمكننا أن نتحقق منه في كل وقت وعند كل إنسان باستخدام قدر ضئيل من الإخلاص . غير أن هذه الرؤية تصل بنا إلى اعتماد إبانة عامة تفيد بأن الرغبات التي تتنافى مع المجتمع، الرغبات غير المقبولة، رغبات موجودة

أصــلاً . لكن الخبرة تُظهرنا على أن الوقائع تختلف اختلافاً بيّناً عندما نريد تطبيق هذه القاعدة على الحالات الفردية . عندئذ تثبت لنا الخبرة أن الجدار الرقيق الذي يفصل بين الرغبة ووعي الرغبة ــ وهو ما يحدث في أكثر الأحيان ــ قد انهار نتيجة لكبح جماح الرغبة غير المقبولة حتى لقد تصبح الرغبة خافية وغير شعورية . لقد أصبحت الآن رغبة مَنْسيَّة وحلَّ محلَّها تبريرٌ عقلاني نوعاً ما، إن كنا في الحقيقة نبحث عن باعث أصلاً . هذا السياق، الذي تصبح فيه رغبة غير مقبولة رغبة خافية وغير شعورية يسمى **الكبت** **Repression**، تمييزاً له من **الكبح** **Suppression** الذي يفترض بقاء الرغبة في نطاق الوعي والمحتوى الذي يتعارض مع المجتمع ــ سواء أكان رغبة أم ذكرى مؤلمة ــ يظل موجوداً وإن كبتْناهُ أو نسيناهُ، ويظل حضوره غير المدرَك يؤثر في السياقات الواعيـة . ويعـبر هذا التـأثير عن نفســه في هيئـة اضطرابات غريبة تصيب الوظائف الشعورية السويّة؛ نسمي هذه الاضطرابات اضطرابات عصبية أو اضطرابات من منشأ نفسي **Psychogenic** . الشيء الذي يسترعي الانتباه في هذه الاضطرابات أنها لا تقتصر على السيـاقات السيكولوجيـة بل تمتد إلى السيـاقات الفـيزيولوجية أيضـاً . وفي هذه الحالة، كما شدد على ذلك جانيه **Janet**، لا تضـطـرب العنـاصر الابتدائيـة المكونة للوظيفـة، بل الاستخدام الإرادي للوظيفـة عندما تتوفر مجموعة من مختـلف الشـروط . مثـلا، عنصر ابتدائي من وظيفـة التغذية يتـألف من فعـل البلع . فإذا كان الطاعم يغصّ بطعامه كلما تناول شيئاً من طعام جامد أو سائل، فإن الاضطراب عندئذ تشريحي أو عضوي . أما إن كان يغصّ كلما أكل من أطعمة معينة أو كلما تناول وقعة معينة (غداء أو عشاء إلخ ...)، أو في حضرة أشخاص معيّنين، أو كان في مزاج معين، فعندئذ يكون الاضطراب عصبياً أو من منشأ نفسي .

لذلك يقتصر تأثير الاضطراب الذي من منشأ نفسي على عملية الطعام عند تضافر شروط سيكولوجية معيّنة، ولا يحتاج إلى شروط فيزيائية ..

هذه الاضطرابات التي تصيب الوظائف الفيزيولوجية كثيراً ما تحدث في الهستيريا على وجه الخصوص . وهناك طائفة كبيرة أخرى من الأمراض يدعوها الأطباء الفرنسيون « سايكستينيا » Psychasthenia حلّ محلّها اضطرابات سيكولوجية بحتة . وقد تتخذ هذه الاضطرابات أشكالاً كثيرة التنوع، كالأفكار المستلِبة وحالات القلق والكآبة والخروج عن الطور والتخيلات الطليقة والنوازع المرضية وهلم جراً . في جذر جميع هذه الاضطرابات نجد محتويات نفسية مكبوتة، أي محتويات انسربت إلى الخافية وأصبح صاحبها غير عارف لها، على أساس هذه اللقى التجريبية الصرفة، اتخذ مفهوم الخافية تدريجياً شكله المعروف باعتباره جماع الرغبات المتعارضة والمكبوتة، بما في ذلك الذكريات المؤلمة والمكبوتة .

ولقد بات الآن من الأمور التي يمكن البرهنة عليها في يسر أن الغالبية العظمى من هذه المحتويات التي لا تتوافق مع المجتمع ذات صلة وثيقة بظاهرة الجنس . فالجنس غريزة أساسية، كما يعرف الكل، نحيطها بالسرّية ونتناولها بمنتهى اللباقة . والجنس، عندما يتخذ هيئة الحب، يكون سبباً في أكثر الانفعالات هياجاً، وأكثر الشهوات توحشاً، وأعمق حالات اليأس، وأبعد الأحزان خفاءً، وأشد الخبرات إيلاماً . والجنس وظيفة هامة فيزيائية ونفسية ذات تفرعات كثيرة، ويتوقف عليها كامل المستقبل البشري . وعلى هذا فأهميتها لا تقل عن أهمية الوظيفة الغذائية، ابتداءً من تناول كسرة من الخبز إلى حضور وليمة يقيمها مجلس المدينة، أن تراها العيون في كل تنوعاتها، وعند الاقتضاء نصدّها عن العمل إذا نزلت بنا نزلة معوية أو حدث نقص عام في

الطعام ــ بينما نسمح للوظيفة الغذائية، نجد الجنس يطاله تحريم أخلاقي صارم ويخضع إلى قواعد وقيود قانونية . فالغريزة الجنسية، خلافاً لغريزة الطعام، ليس للإنســان أن يتصرف بها تصرفاً حراً . لذلك كان من الأمور المفهومة أن يتجمع حول هذه المسألة هذا العدد الكبير من الاهتمامات الملحّة والعواطف القوية، ذلك أن الأصل أن توجد العواطف في حيث يكون التكيف في أنقص أحواله . زد على ذلك أن الجنس، كما قلت، غريزة أساسية في كل كائن بشري، وهذا سبب كاف للنظرية الفرويدية الشهيرة التي تردّ كل شيء إلى الجنس، وترســم صورة للخافية تجعلها تبدو نوعاً من قمامة يُلقى فيها جميع الرغبات الطفولية المكبوتة وغير المقبولة أيضاً . هذه النظرة، على ما تثيره من اشمئزاز، يجب أن نوليها ما تستحقه من اهتمام إن كنا نريد أن نعرف جميع الأشياء التي هرّبها فرويد إلى مفهوم الجنس . لقد وسّع فرويد من نطاق الجنس إلى ما وراء الحدود المسموح بها، حتى لأرى أن كلمـة « إيروس » Eros أصـلح كلمة للتعبير عما يريده فعلاً، بالمعنى الفلسفي القديم المراد من « بان ــ إيروس » الذي يسري في الطبيعة كلها بما هو قوة مبدعة ومُنْجبة . والجنس أبأس تعبير عن هذا المعنى . لكن مفهوم الجنس قد اصطلح عليه بما هو كذلك، ويبدو أن له مثل هذه الحدود المحدّدة، حتى ليتردد المرء في استعمال كلمة « الحب » عندما يتكلم عن مجرد الجنس .

لقد تمسكت الحركة الفرويدية بنظرية الجنس تمسكاً عنيداً . والحق أنه ما من مفكر أو باحث حيادي لا يقر فوراً بالأهمية الفائقة للخبرات والمنازعات الجنسية أو الإيروسية . لكنه لا يستطيع أبداً أن يثبت أن الجنس هو الغريزة الأساسية الوحيدة والمبدأ الفاعل الوحيد في النفس الإنسانية، بل يسلّم بأن النفس جهاز معقد إلى أبعد حدود التعقيد . ورغم أننا نستطيع أن ننظر إلى

النفس من منطق بيولوجي ونسعى إلى تفسيرها بلغة العوامل البيولوجية، إلا أنها تطرح علينا عدداً كبيراً جداً من الألغاز يقتضي لحلّها متطلبات لا يسع علماً واحداً بمفرده، كعلم البيولوجيا، أن يلبّيها . مهما كانت الغرائز والسوائق أو الديناميات البيولوجية التي قد يطرحها الفرويديون أو يسلّمون بها الآن وفي المستقبل، فإن من الثابت استحالة اعتماد غريزة بعينها اعتماداً حصرياً كالجنس واعتبارها المبدأ الأساسي للتفسير . البيولوجيا، وهو علم بصورة عامة قد تجاوز هذه المرحلة، إذ لم نعد نردّ كل شيء إلى قوة ظاهرة بمفردها، كما فعل العلماء الأوائل مع الفلوجستون* والكهرباء . لقد تعلمنا استعمال تجريد متواضع أسميناه الطاقة كمبدأ يفسر جميع التغيرات الكمّية .

وإني لمقتنع بأن الموقف العلمي الصحيح في علم النفس يجب أن يُفضي أيضاً إلى النتيجة القائلة بأن السياقات الدينامية في النفس لا يمكن أن ترجع إلى هذه الغريزة الحسّية أو تلك، وإلا وجدنا أنفسنا قد عدنا إلى الوراء عند مرحلة نظرية الفلوجستون، واضطررنا إلى اعتماد الغرائز أجزاء مكوّنة للنفس، ثم جرّدنا مبدأنا التفسيري من العلاقة المتبادلة . ولذلك بيّنتُ أننا نحسن صنعاً لو طرحنا مقداراً افتراضياً، « طاقة »، كمبدأ تفسيري سيكولوجي، وأسميناه « ليبيدو »، بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، بدون أن نضمر تحيّزاً بخصوص ماهيّتها . ولعلنا نستطيع، مستعينين بمثل هذه القيمة الكمّية، أن نفسر السياقات السيكودينامية تفسيراً لا يمكن الاعتراض عليه بدون أن نلْوي الوقائع ذلك الذي يستتبعه اعتماد أساس حسّي للتفسير . فعندما تذهب

---

* Phlogiston، جاء في « المغني الأكبر » أن الفلوجستون مادة كان يُعتقد أنها توجد في الأجسام القابلة للاحتراق، وتفارقها في أثناء الاحتراق .

مدرسة فرويد إلى القول بأن المشاعر الدينية، أو أي مشاعر تنتسب إلى الدائرة الروحية، « ما هي إلا » رغبات جنسية غير مقبولة كُبِتَتْ ثم « تسامت » ــ إن هذا القول أشبه بما لو فسّر عالم فيزياء الكهرباءَ بالقول إن الكهرباء « إن هي إلا » شلال اشتراه شخص ثم أوصله إلى عنفات بواسطة أنابيب . بعبارة أخرى، إن الكهرباء ما هي إلا شلال « مشوّه ثقافياً » ــ ولعل هذا التعريف أو التفسير حجة قد ترفعها جمعية المحافظة على الطبيعة العذراء، لكنه لن يبلغ مبلغ التفكير العلمي . لا يصلح مثل هذا التفكير في علم النفس إلا إذا استطعنا أن نثبت أن الأساس الدينامي الذي يقوم عليه وجودنا هو الجنس لا غير، وهو ما يساوي القول في الفيزياء أن الماء الساقط وحده يستطيع إنتاج الكهرباء . في هذه الحالة يمكننا التمسك بالقول ــ ونكون عندئذ على حق ــ إن الكهرباء ما هي إلا شلال ممدّد في أسلاك .

لذلك لو رفضنا النظرية القائلة أن الخافية جنسية ليس إلا واستبدلنا بها نظرة تقول بأن الخافية عبارة عن طاقة، لتعيّن علينا القول أن الخافية تحتوي على كل شيء نفسي لم يبلغ عتبة الواعية، أو أن شحنته من الطاقة لم تسمح له بالبقاء في الواعية، أو أنه لن يبلغ الواعية إلا في المستقبل . وعندئذ نستطيع أن نتصور كيف تتكوّن الخافية . لقد سبق لنا وأخذنا علماً بالمكبوتات بما هي محتويات الخافية، وإلى هذه المكبوتات يجبْ أن نَضيف « كل شيء نسيناه » . عندما نقول أننا نسينا شيئاً، فإن هذا لا يعني أنه قد تلاشى؛ كل ما في الأمر أنه قد أصبح فوق متناول الشعور . لقد غاصت شحنته من الطاقة إلى عمق لم يعد يستطيع معها الظهور إلى الواعية . لكنه وإن ضاع عن الواعية يظل غير ضائع عن الخافية . ولعل هناك من يعترض علينا بالقول أن هذا ليس أكثر من وجه من وجوه الكلام . بودّي توضيح المراد بضرب مثالٍ افتراضي . لنفرض

أننا أمام شخصين اثنين، أحدهما لم يقرأ كتاباً قط، والثاني قرأ ألف كتاب . ثم محونا من عقليهما كليهما جميع ذكريات عشر السنوات التي كان الأول في أثنائها مجرد كائن يعيش وكان الثاني يقرأ كتبه الألف، مع ملاحظة فهمه لها . إن خبرة القراءة، وإن كانت منسية، تترك آثارها خلفها، ومن هذه الآثار يمكننا التعرف على الخبرة السابقة . هذا التأثير غير المباشر الذي يدوم طويلاً يرجع إلى انطباعات ثابتة، تظل محفوظة، حتى حين لا تكون قادرة على بلوغ الواعية .

وهناك، بالإضافة إلى الأشياء المنسيّة، المدرَكات غير الشعورية التي تشكل جزءاً من محتويات الخافية . فقد تكون هذه مدركات حسّية تطرأ دون عتبة السمع الشعوري، أو في حقل الرؤية المحيطي؛ أو قد تكون شعوراً بالمدرَكات، وأريد بذلك مدركات من داخل النفس endopsychic أو سياقات خارجية .

كل هذه المادة تكوّن الخافية الشخصية . ونسميها شخصية لأنها كلها تتألف من مكتسبات مستمدة من الحياة الشخصية . لذلك عندما يقع شيء في الخافية سرعان ما تتلقفه شبكة التداعيات التي شكلتها هذه المادة غير الشعورية . عندئذٍ قد تنشأ روابط تداعيوية ذات شدة عالية تعبر من فوق الواعية أو ترتفع إلى الواعية على هيئة إيحاءات وحدوس و « أفكار سعيدة »، وهلمّ جرّاً .

غير أن مفهوم الخافية الشخصية لا يتيح لنا أن نفهم طبيعة الخافية فهماً تاماً . إذ لو كانت الخافية شخصية حصراً، لكان من الممكن نظرياً أن نتعقب جميع طلائق fantasies امرئ مجنون وإرجاعها إلى اختباراته وانطباعاته الفردية . لا شك أن قسماً كبيراً من مادة الطلائق يمكن إرجاعه إلى تاريخه الشخصي، إلا أن هناك طلائق معينة من العبث أن نبحث عن جذورها في

حياة الفرد الماضية . أي نوع من الطلائق هي هذي ؟ إنها، بكلمة واحدة، طلائق ميثولوجية؛ عناصر لا تتفق مع أيٍّ من أحداث الحياة الشخصية أو اختباراتها، بل مع الأساطير فقط .

من أين تجيء هذه الطلائق الميثولوجية، إن كانت لا تنبع من الخافية الشخصية ؟ لا شك أنها تأتي من الدماغ لا من آثار ذاكرة شخصية، بل من بنية الدماغ الموروثة نفسها . لهذه الطلائق صفة ذات مستوى عال من الأصالة والإبداع . إنها كالمخلوقات الجديدة، ومن الواضح أنها تمتح من فاعلية الدماغ المبدعة لا من مجرد فاعليته التذكيرية . فنحن نرث، إلى جانب جسدنا، عقلاً متميزاً عالي المستوى يصطحب معه كل تاريخه، وعندما يغدو عقلاً خلاّقاً، فإنما يستمد قدرته على الخلق من هذا التاريخ، أي من تاريخ البشرية . ونريد بـ « التاريخ » عادةً التاريخ الذي « نصنعه » ونسمّيه بـ « التاريخ الموضوعي » objective history . والتخيل الطليق المبدع حقاً الذي ينتجه الدماغ لا علاقة له بهذا النوع من التاريخ، بل علاقته حصراً بذلك التاريخ الطبيعي المعرق في القدم الذي انتقل إلينا في هيئة حيّة منذ أقدم الأزمنة، أي تاريخ بنية الدماغ . هذه البنية تحكي لنا قصتها، وهي قصة النوع البشري — أعني أسطورة الموت والنشور التي لا تنتهي، وما لا حصر له من الأشخاص الذين ينسجون هذا السرّ في الداخل والخارج .

هذه الخافية، المدفونة في بنية الدماغ والتي لا تكشف لنا عن حضورها الحي إلا بواسطة الطرائق المبدعة، هي خافية تتجاوز الخافية الشخصية . فهي تحيا في الإنسان المبدع، وتكشف عن نفسها في رؤى الفنان، وفي وحي المفكر، وفي خبرة الصوفي الجوّانية . إن هذه الخافية التي تتجاوز الشخصية، من حيث أنها موزعة في جميع أنحاء البنية الدماغية، لهي أشبه بروح مبثوثة في

الكل، حاضر في الكل، عالم بالكل . فهي تعرف الإنسان مثلما كان دائماً، لا كما هو في هذه اللحظة، بل بما هو أسطورة . لهذا السبب أيضاً كانت الصلة بالخافية فوق الشخصية، أو الخافية الجامعة، تعني امتداداً للإنسان إلى ما وراء نفسه؛ فهي تعني موتاً لوجوده الشخصي وانبعاثاً له في بُعْدٍ جديد، كما تُعورف على ذلك حرفيّاً في اسراريات قديمة معيّنة . وإنه لأمر حقّ أن هذا البعد لا يمكن بلوغه إلا بالتضحية بالإنسان كما هو، بالإنسان كما كان ــ وكما سوف يكون أبداً . وليس كالفنان من يستطيع أن يُنبئنا عن هذه التضحية بالإنسان الشخصي، إن كانت رسالة الأناجيل غير كافية لنا .

يجب ألا يذهب بنا الظن إلى وجود شيء من مثل « الأفكار الموروثة » . مثل هذا الشيء لا مجال للبحث فيه . غير أنه توجد إمكانيات أفكار مفطور عليها الإنسان، شروط بَدَريّة a priori لإنتاج تخيلات طليقة تشبه مقولات كنط Kant بعض الشبه . رغم أن هذه الشروط الفطرية لا تنتج محتويات من تلقاء نفسها، إلا أنها تعطي محتويات سبق لنا اكتسابُها شكلاً محدّداً . ولما كانت هذه الشروط جزءاً من بنية الدماغ الموروثة، كانت هي السبب في وحدة الرموز والموضوعات المنطقية المنتشرة في جميع أرجاء الأرض . إن الخافية الجامعة تشكل القاع المظلمة التي تنهض عليها الوظيفة التكييفية adaptive functino التي تقوم بها الواعية بصورة بارزة جداً . وإننا لنكاد نقع تحت إغراء القول إن كل شيء له قيمة في النفس تتلقفه الوظيفة التكييفية، وإن كل شيء لا فائدة منه يذهب لكي يشكل قاعاً غير مكتملة تنطلق منها ــ يا لرعب الإنسان البدائي ! ــ الظلال المخيفة والأشباح الليلية، طالبة إليه أن يقرّب الأضاحي ويؤدي الطقوس التي تبدو لنا عقيمة ولا معنى لها في نظر عقولنا الموجَّهة بيولوجياً . إننا نضحك من الخرافات البدائية، معتقدين أننا تجاوزناها،

لكننا ننسى كلّياً أننا نخضع لهذه القاع بنفس الطريقة الغريبة التي يخضع لها البدائي، وهي الطريقة التي اعتدنا أن نسخر منها باعتبارها متحفاً للغباوات . كل ما في الأمر أن الإنسان البدائي عنده نظرة مختلفة عن الموضوع، تنهض على السحر والأرواح . وإني لأجد هذه النظرية باعثة على الاهتمام الشديد ومعقولة جداً، بل أكثر معقولية من النظرات الأكاديمية التي يتخذها العلم الحديث . فبينما يحاول الإنسان الحديث العالي الثقافة أن يتخيّر أفضل حِمْية تلائم النزْلة العصبية التي نزلة بأمعائه وأن يعرف الأخطاء الغذائية التي قد ترجع إليها هذه النزلة، يبحث الإنسان البدائي مصيباً عن أسباب سيكولوجية، ابتغاء الوصول إلى طريقة علاج ناجعة نفسانياً . السياقات التي تعمل في الخافية تؤثر فينا كما تؤثر في البدائيين، ونحن تستولي علينا عفاريت المرض بما لا يقل عن استيلائها عليهم، ونفوسنا عرضة لخطر أن يضربها تأثير عدواني من نوع ما كنفوسهم، ونحن مثلهم فريسة للأرواح الشريرة للموتى، أو ضحية لعمل سحر تعمله لنا شخصية غريبة . كل ما في الأمر أننا نسمي هذه الأشياء أسماء مختلفة، وهذه هي الميزة الوحيدة التي نمتاز بها عن الإنسان البدائي . وهذه الميزة، كما نرى، شيء صغير، ولكنها مع ذلك تصنع كل الفرق . لقد كان الأمر بالنسبة للإنسان أشبه شيء بخلاص من كابوس كلما اكتشف اسماً جديداً .

هذه القاع الحافلة بالأسرار، التي أسْكنت منذ أقدم الأزمنة في الظلال الليلية من الغابة الأولى نفس الأشخاص ومع ذلك أشخاص متغيرين أبداً، يبدو مثل انعكاس معوج للحياة في أثناء النهار، لكنها تكرر نفسها في الأحلام وفي مخاوف الليل . في الظل يحتشد بعضهم مع بعض العائدين من الموت على هيئة أشباح، أو أرواح الموتى، أو صور من الذاكرة عائمة تطلع من سجن الماضي من حيث لا يعود شيء حيّ، أو مشاعر تركتها خلفها خبرة مؤثّرة ثم

أصبحت الآن متشخصة في هيئة طيْفيّة . لا يبدو كل هذا غير مذاق مرّ خلّفه دورق النهار المفرّغ، الملاذُ الذي لا يلقى الترحيب، راسبُ الخبرة الذي لا نفع فيه . لكن لو نظرنا في الأمر عن كثب، لاتّضح لنا أن هذه القاع المعادية ظاهرياً ترسل مبعوثين أقوياء يؤثرون في مسلك البدائيين تأثيراً بليغاً . أحياناً تتخذ هذه الوسائط هيئة السحر، وأحياناً هيئة الدين، وفي أحيان أخرى تختلط الهيئتان بطريقة لا انفصام لها، كلتاهما أهم العوامل في العقلية البدائية بعد الصراع من أجل البقاء . فيهما يتبدى العنصر الروحي تبدّياً مستقلاً على النفس البدائية ــ ذات الانعكاسات البدائية صرفاً ــ في هيئة حسّية مُسْقَطة؛ ونحن الأوروبيين يصدمنا الذهول أحياناً من التأثير الهائل الذي تستطيع خبرة الروح أن تحدثه في الإنسان البدائي . فعنده أن المباشرة الحسية للشيء تتعلق بظاهرات روحية أيضاً . الفكرة « تظهر له »، لا أنه يفكر فيها؛ تظهر له في هيئة إدراك حسّي مُسْقَط، أشبه شيء بهلْوسة، أو على الأقل في هيئة حلم شديد الحيوية والوضوح . لذلك تستطيع الفكرة عند البدائي أن تفرض نفسها على الواقع الحسّي إلى حدّ لو كان على أوروبي أن يسلك نفس المسلك لحكمنا بجنونه .

هذه الخصائص التي تتصف بها السيكولوجية البدائية، ولا يسعني هنا إلا أن أمسّ الموضوع مسّاً رفيقاً، ذات أهمية عظمى لفهم الخافية الجامعة . قليل من التفكير يثبت لنا ذلك . إننا ونحن الكائنات البشرية المتحضّرة، في أوروبا الغربية، نملك تاريخا ربما يرجع إلى 2,500 سنة . أما ما قبل ذلك فحقبة ما قبل تاريخية مدتها أطول بكثير، بلغ الإنسان في غضونها مستوى ثقافياً، لنقل أنه مستوى الهنود الحمر من قبائل السيوكس . ثم أعقب ذلك مئات آلاف السنين من ثقافة العصر الحجري الحديث، أما ما قبل ذلك فدهور موغلة في

القدم، تطور الإنسان في أثنائها من الحيوان حتى وصل إلى ما عليه اليوم . قبل خمسين جيلاً من الآن لم يكن الكثير منا في أوروبا يفضُلُ البدائيين كثيراً . لذلك لا بد إن كانت طبقة الثقافة، هذه القشرة التي تبعث على السرور، رقيقة جداً إذا قورنت بالطبقات النامية نمواً شديداً من النفس البدائية . هذه الطبقات هي التي تشكل الخافية الجامعة إلى جانب آثار الحيوانية التي ضاعت في هاوية الزمان السديمية .

لقد شطرت المسيحية البربري الجرماني إلى نصف علوي ونصف سفلي، ومكّنتهُ، عن طريق كبت الجانب المظلم من ترويض الجانب المشرق وأهّلته للحضارة . لكن النصف السفلي المظلم ينتظر الفداء ونوبة ثانية من الحضارة . وإلى أن يحين ذلك، لسوف يظل مرتبطاً بآثار عصر ما قبل التاريخ، بالخافية الجامعة التي تخضع إلى تنشيط غريب يتزايد باطّراد . وكلما فقدت النظرة المسيحية إلى العالم سلطانها، زاد « الوحش الأشقر »، وهو يطوف مهدّداً في أنحاء سراديب السجن، استعداداً لكي ينفجر بالآثار المدمرة في كل لحظة . عندما يحدث هذ في الفرد فإنما يحدث فيه ثورة سيكولوجية، لكن يمكنها أيضاً أن تتخذ شكلاً اجتماعياً .

في رأيي، هذه المشكلة لا توجد عند اليهود . فاليهودي سبق له وحصّل ثقافة العالم القديم وتوّجها باستيلائه على ثقافة الأمم التي عاش بين ظهرانيها . لليهودي ثقافتان، متناقضتان كما قد تبدوان . فهو قد تروّض إلى درجة أعلى مما وصلنا إليه، لكنه تنقصه تلك الصفة في الإنسان التي تضرب جذوره في الأرض، وتجعله يستمد قوة جديدة منها . هذه الصفة الأرضية نجدها في تركيز خطر عند الشعوب الجرمانية . طبعاً إن الأوروبي الآري لم يلاحظ علامات على هذه الصفة منذ زمن بعيد جداً، لكنه ربما بدأ يلاحظها في الحرب الراهنة،

كذلك ربما لا يلحظ اليهودي أن عنده من هذه الصفة أقل من اللازم، إذ لا أرض له يقف عليها . إن سر الأرض ليس نكتة ولا إيهاماً . ما علينا إلا أن نرى مقاييس الجمجمة وعظم الحوض عند جميع الأميركيين الذين ينحدرون من أصل أوروبي وكيف تتخذ هيئة الجمجمة وعظم الحوض اللذين نعرفهما عند الهنود الحمر في الجيل الثاني من المهاجرين . ذلكم هو سر الأرض الأميركية .

تحتفظ تربة كل بلد بشيء من هذا السر . ولدينا عن هذا السر انعكاس غير شعوري في النفس . فكما أن هناك علاقة بين العقل والجسد، كذلك هناك علاقة بين الجسد والأرض . أرجو أن يغفر لي القارئ هذا الأسلوب المجازي في الكلام، وأن يحاول فهم ما أريد، إذ ليس من السهل وصفه على الرغم من كونه محدّداً . هناك عدد كبير من الناس يعيشون خارج أجسادهم، يَطْفُون كالأشباح التي لا جسم لها فوق الأرض، عنصرهم الأرض الذي هو جسمهم . وآخرون يعيشون كلياً في أجسامهم . الأصل أن يعيش اليهودي في علاقة حبّية مع الأرض، لكن بدون شعور بقوة الأرضي . ويبدو أن استقباله لذلك قد ضعف بمرور الأيام . ولعل هذا يفسر حاجة اليهودي النوعية إلى رد كل شيء إلى بداياته المادية؛ يحتاج إلى هذه البدايات لكي يوازن الاستعلاء الخطر في ثقافتيه الاثنتين . لأن قليلاً من البدائية لا يضيره . ولعلني أستطيع أن أفهم أسباب ردّ فرويد وأدلر كل شيء إلى الرغبات الجنسية البدائية وإلى إرادة القوة، لأن في هذا ما يفيد اليهودي ويريحه، فهو شكل من التبسيط . لهذا السبب ربما كان فرويد على حق في إغلاق عينيه على اعتراضاتي . لكن هذه التعاليم اليهودية نوعياً لا تبعث أبداً على ارتياح العقلية الجرمانية، إذ مازال يقبع في داخلنا بربري حقيقي يجب ألا نسْتَهِون به، ولا يمكن أن يعد ظهوره مبعثاً على راحة ولا طريقة سارّة لتزجية الوقت ! تُرى، هل يستطيع هؤلاء الناس أن

يتعلموا درس هذه الحرب ؟ ! الحقيقة هي أن خافيتنا لا يمكن بلوغها بواسطة تفسيرات مفرطة الحذق أو مغرقة في الغرابة . والطبيب النفسي ذو القاع اليهودية لا يوقظ في النفس الجرمانية تلك الخثالات الحزينة الغريبة الأطوار الموروثة منذ أيام داود، بل يوقظ فيها بربري الأمس، وهو كائن سرعان ما تصبح المسائل عنده « خطيرة » على أقبح ما يكون . هذه الخاصّية التي تبعث على الإزعاج في البربري كانت بادية أيضاً لنيتشيه ــ لا شك من خبرة شخصية ــ مما حداه أن يعجب بالعقلية اليهودية، وراح يدعو إلى الرقص والطيران وعدم أخذها على محمل الجد . لكنه لم يتنبّه إلى أن البربري الذي فينا ليس هو الذي يأخذ الأشياء على محمل الجد ــ وإنما أصبحت الأشياء جدّية بالنسبة إليه . لقد كان يركبه شيطان . ومن ذا الذي أخذ الأشياء على محمل الجد أكثر من نيتشيه .

في الحقيقة، يبدو لي أنه يجب علينا أن نتناول مشكلة الخافية على نحو جدّي تماماً . فالمسيحية بما تنطوي عليه من قسْر هائل على الخير وقوة أخلاقية كبيرة ليست مجرد حجة في صالحها؛ إنما هي برهان أيضاً على قوة النقيض غير المسيحي، وهو العنصر البربري المكبوح suppressed والمكبوت repressed . إن وجود شيء في داخلنا يجري في عكس إرادتنا، يصبح خطراً علينا، لكنني لا أعتبره مجرد خاصّية خطرة، بل مصدر قوة عظيم القيمة وملائم أيضاً . لايزال ثروة لم تُمسّ، وكنزاً لم يتطرق إليه الفساد، وعلامة على شباب، وعربوناً على انبعاث في حياة جديدة . ومع ذلك إن من الخطأ الفادح تقويم الخافية من جونبها الإيجابية حصراً واعتبارها مصدراً للوحي ليس إلا .الخافية، أولاً وقبل كل شيء، عالم الماضي الذي تنشّطه أحاديّة الموقف الواعي . والحياة كلما اتخذت وجهة أحاديّة في مسيرتها، أنتج جهاز التعديل الذاتي في الخافية

تركاً لجميع العوامل التي تلعب دوراً أقل من اللازم في وجود الفرد الواعي لذلك طرحتُ نظرية « تعويض الخافية » مكمّلاً بها « نظرية الكبْت » .

إن دور الخافية أن تعوّض على محتويات الواعية في اللحظة . لا أريد بذلك أنها تعارض الواعية، لأن هناك حالات كثيرة يتلاقى فيها اتجاه الخافية مع اتجاه الواعية، وذلك يكون عندما يقترب الموقف الواعي من أفضل حالاته . فكلما دنى الموقف الواعي قرْباً من أفضل حالاته، تضاءلت فعالية الخافية المستقلة، وغارت قيمتها في العمق حتى تنزل إلى درجة الصفر لحظة الحالة المثلى . عندئذٍ نستطيع القول أنه مادام كل شيء يجري على مايرام، ومادام الشخص يركب الطريق الأمثل الفردي والاجتماعي بالنسبة إليه، فلا مجال للحديث عن الخافية . إن مجرد حديثنا عن الخافية في هذا العصر أصلاً دليل على أن كل شيء ليس على مايرام . والكلام عن الخافية لايمكن إلقاؤه كلياً على باب علم النفس التحليلي؛ فبداياته يمكننا أن نتأثرها حتى أيام الثورة الفرنسية، وأولى علاماته قد نجدها لدى مسمر Mesmer . صحيح أنهم في تلك الأيام لم يكونوا يتكلمون عن « الخافية » بل عن « مغناطيس حيواني »، إلا أن هذا الكلام لم يكن غير إعادة اكتشاف للمفهوم البدائي المتعلق بـ « قوة الروح » أو « مادة الروح »، التي استيقظت خارجة من الخافية بواسطة إعادة تنشيط لأشكال عتيقة من الفكر . في الوقت الذي كان فيه المغناطيس الحيواني ينتشر في جميع أرجاء العالم الغربي كقلب منصة وبأي table_turning، ويصل في النهاية إلى تفشي الاعتقاد بالمقتنيات fetishes (الاعتقاد بروح في الأشياء والمقتنيات)، راح « روبرت ماير » يربّي فكرة الطاقة الحركية البدائية، التي راحت بدورها تغتذي على الخافية حتى فرضت نفسها عليه كالوحي ــ كما يصف ذلك هو نفسه ــ بحيث تصل إلى مستوى المفهوم العلمي . وفي

غضون ذلك يفجر وباء قلب المنصة جميع إطارته ويُثمر عنه روحانية، وهي إيمان حديث بالأرواح والبعث المعروف في الشكل الشاماني من الديانة التي مارسها أجدادنا الأوائل . هذا التطوير للمحتويات المنشّطة المنبعثة من الخافية مازال مستمراً حتى يومنا هذا، وفي العقود القليلة الماضية أدّى إلى شيوع مرحلة تالية أعلى من التمايز ـــ الأنظمة الإكليتية أو الغنوصية المعروفة بالثيوسوفيا (الحكمة الإلهية) والأنثروبوسوفيا (الحكمة البشرية) . وفي نفس الوقت، أُرْسيتْ قواعد علم الأمراض النفسية الفرنسي، وخصوصاً المدرسة الفرنسية في التنويم المغناطيسي . وقد أصبحت هاتان المأثرتان بدورهما المصدريْن الرئيسيين لعلم النفس التحليلي، الذي يعمل الآن على البحث علمياً في ظاهرات الخافية، وهي نفس الظاهرات التي جعلتها فرق الثيوسوفيا والغنوصية في متناول الناس البسطاء على هيئة اسراريات أحاطتها بالأبّهة .

يتضح من هذا التطور أن علم النفس التحليلي لا يقف في معزل عن التاريخ، بل يجد نفسه في وضع محدَّد منه . أن يحدث هذا القلق العام، أو إعادة تنشيط الخافية، في حوالي العام 1800، لهو، في نظري، مرتبط بالثورة الفرنسية . فقد كانت هذه الثورة ثورة عقول أكثر منها ثورة سياسية . لقد كانت انفجاراً هائلاً لكل المادة القابلة للاشتعال التي تراكمت منذ عصر التنوير . إن إحاطة الثورة بالمسيحية رسمياً لابد وأن خلّف أثراً عظيماً في الوثني غير الواعي الذي يقبع في داخلنا، لأنه لم يعرف الراحة منذ ذلك الحين . فقد استطاع أن يعيش ويتنفس في أعظم ألْمانِ عصره، وأعني به غوته . وفي هولدرلن استطاع على الأقل أن يبكي بصوت عال على أمجاد الإغريق . بعد ذلك مضت عملية محو المسيحية من نظرة الإنسان إلى العالم تقطع خُطاً سريعة على الرغم من ردّات ارتجاعية طارئة هنا وهناك . ومع ذلك مضى

استيراد الآلهة الغريبة يجري يداً بيد مع محو المسيحية . إلى جانب الشامانية والاقتنائية fetishism اللتين ذكرناهما آنفاً، كانت البوذية أول المستوردات وقد تكلم عنها شوبنهاور، وواكبتْها ديانات اسرارية، بما في ذلك أعلى أشكال الشامانية، وأعني بذلك « العالم المسيحي » . تذكرنا هذه الصورة بجلاء شديد بالقرون المسيحية الأولى، عندما أخذت روما ترى في الآلهة القديمة باعثاً على الضحك، وأحست الحاجة إلى استيراد آلهة جديدة على نطاق واسع . لقد فعلوا مثلما نفعل اليوم؛ استوردوا كل شيء كان موجوداً، من أحطّ الخرافات وأحقرها إلى أشرف ما أثمر عنه الروح البشري . إن زماننا هذا مذكِّر لنا تذكيراً مشؤوماً بذلك العصر، أيضاً عندما لم يكن كل شيء في محله الصحيح، وأيضاً عندما انطلقت الخافية من عقالها، وأعادت إلى الوجود أشياء كانت دفينة منذ عصور سحيقة . وإذا كان هناك من فرق بين الحالتين، فإن الفوضى العقلية في ذلك العصر ربما كانت أقل حدّةً مما هي عليه اليوم .

كما لا بدّ وأن لاحظ القارئ، لقد أغفلت الكلام عن الجانب الطبي من الخافية، مثلاً كيف تنتج الخافية أعراضاً عصبية . لكن قد سبق لي أن لامست هذه المسألة في صفحات سابقة وأستطيع الآن أن أدعها وشأنها . مهما يكن من أمر، فأنا لا أخرج عن الموضوع، لأن علم الشفاء النفسي لا يُعنى بالمنازعات العائلية والعلاقات الغرامية التعيسة وما أشبه ذلك وحسب، وإنما أيضاً بمسألة التكيف السيكولوجي عموماً، وبالموقف الذي ينبغي لنا اتخاذه من الناس والأشياء، ومن أنفسنا . فالطبيب الذي يعالج الجسد يجب عليه أن يعرف الجسد، والطبيب الذي يعالج النفس يجب عليه أن يعرف النفس . فإذا عرف النفس في هيئة الجنس أو شهوة السلطة الشخصية فقط، فهو لا يعرفها إلا جزئياً . هذا الجزء يجب عليه أن يعرفه، لكن يجب عليه أيضاً أن

يعرف الأجزاء الأخرى فهي مثله في الأهمية، وخصوصاً المسألة التي لامَسْتُها هنا، أعني العلاقة بين الواعية والخافية . العين المدرّبة بيولوجياً غير كافية لرؤية هذه المشكلة، لأنها في الممارسة شيء أكثر من مسألة « يوجينا » eugenics (= علم تحسين النسل)، وإن مراقبة الحياة البشرية في ضوء الحفظ الذاتي self__Preserration والتوالد نظرة مفرطة في الأحادية . لاشك أن الخافية تعرض لنا نفسها في مظاهر جدّ مختلفة؛ لكننا حتى الآن كنا نركّز انتباهنا أكثر من اللازم على خصائص برّانية معيّنة، مثلاً على اللغة العقيقة التي تتكلم بها الخافيـة، وفهمنـاها فهماً حرفياً . إن لغة الخافية لغة غنية بالصور على وجه الخصوص، كما تثبت لنا الأحلام ذلك . لكن هذه اللغة لغة بدائية، انعكاس أمين للعالم المتلوّن المتغيّر أبداً . الخافية ذات شبه بالطبيعة : صورة تعويضية عن العالم . وفي رأيي أنه لا يمكن التمسك بالقول أن الخافية ذات طبيعة جنسية حصراً أو أنها حقيقة ميتافيزيقية، أو أن نرفع من شأنها بالقول أنها « أرض عالمية » Universal ground . إنما يجب أن نفهمها باعتبارها ظاهرة نفسية، كالواعية تماماً . نحن لا نعرف ما هي النفس بأكثر مما نعرف ما هي الحياة . النفس والحياة سرّان يسري أحدهما في الآخر، يعطياننا كل سبب للشك فيما إن كنت « أنا العالم » أو إن كان « العالم أنا » . على كل حال، الخافية شيء حقيقي، لأنها « تعمل » . بودّي أن أتصور الخافية عالماً نراه في مرآة : واعيتنا تعرض لنا صورة من العالم الخارجي، لكن من العالم الداخلي أيضاً، باعتبار أن هذا العالم صورة تعويضية في المرآة عن العالم الخارجي . ونستطيع القول أيضاً أن العالم الخارجي صورة تعويضية في المرآة عن العالم الداخلي . مهما يكن من أمر، فإننا نقف بين عالمين أو بين جملتين سيكولوجيتَيْن من الإدراك مختلفتين اختلافاً كلياً؛ بين إدراك المحرّضات حسّية خارجية والإدراك للخافية . الصورة

التي نكوّنها عن العالم الخارجي تجعلنا نفهم كل شيء أثراً من قوى فيزيائية وفيزيولوجيـة؛ وصورة العالم الداخلي تظهر لنا كل شيء وكأنه نتيجة لعوامل روحية . تبعاً لذلك، ليست قوة الجاذبية هي التي تلْحُمُ النجوم بعضها ببعض بل يد الخالق المبدعة . كما أن الحب لم يعد أثراً من محرّض جنسي، بل من قدر نفسي مكتوب سلفاً، وهكذا دواليك .

ولعل الطريق الصحيح هو تقريب العالمين بعضهما من بعض . وقد أعتقد أنه وجد هذا الطريق في الفن، فيما أسماه بـ « رمز » الفن . لذلك على الفنان أن يعرف الطريق الوسط . لكن خبرتي قد أفضت بي إلى الارتياب في ذلك . وفي رأيي أن اتحاد الحقيقة العقلية وغير العقلية لا نجده في الفن بمقدار ما نجده في الرمز بحد ذاته Per se؛ ذلك أن جوهر الرمز أن يحتوي على العقلي وغير العقلي كليهما . فهو دائماً يعبر عن أحدهما من خلال الآخر؛ لأنه يشتمل عليهما كليهما من دون أن يكون أيّاً منهما .

كيف ينشأ الرمز ؟ يأتي بنا هذا السؤال إلى أهم وظيفة من وظائف الخافية وهي الوظيفة الخالقة للرمز symbol_creating function . هناك شيء رائع جداً حول هذه الوظيفة، لأن لها وجوداً نسبياً ليس إلا . الوظيفة التعويضية، من ناحية ثانية، هي الوظيفة الطبيعية التي تقوم بها الخافية من تلقاء ذاتها، وهي وظيفة ماثلة أبداً . وهي تدين بوجودها إلى حقيقة بسيطة مفادها أن جميع الدوافع والأفكار والرغبات والميول التي تجري في عكس الاتجاه العقلي الذي تفرضه الحياة اليومية يُنكَرُ عليها حقُّ التعبير عن نفسها، فيُلقى بها في القاع، ثم تستقر أخيراً في الخافية . هناك نجد جميع الأشياء التي كبتْناها وكبحْناها، الأشياء التي تجاهلناها وقلّلنا من قيمتها عمْداً، فتراكمت تدريجياً، ومع الوقت اكتسبت قوة بالغة حتى أخذت تؤثر في الواعية . قد يكون هذ التأثير معارضة

مباشرة لتوجهاتنا الواعية إن كانت الخافية مكوّنة فقط من مادة مكبوتة ومكبوحة . لكن القضية ليست هذه، كما رأينا . فالخافية تحتوي أيضاً على الينابيع المظلمة للغريزة والحدس، على جميع تلك القوى التي يمكن أن توقظها مجرد الاعتدال وحق التملك والوجود البورجوازي الذي يسير بانتظام، على جميع تلك القوى المبدعة التي تقود الإنسان قدماً نحو مراقي نموّ جديدة، وأشكال جديدة، وأهداف جديدة . لذلك لم أدْعُ الخافية بأنها مجرد تأثير تكميلي بل تعويضي، لأنها تضيف إلى الواعية كل شيء استبعدته هذه عن طريق تجفيف ينابيع الحدس وعن طريق اللحاق الثابت وراء هدف واحد .

كما بيّنت من قبل، إن هذه الوظيفة تعمل بصورة تلقائية، لكنها غالباً ما تكون أضعف من أن تنقل الاتجاه الأحادي الذي تتخذه الواعية إلى وجهة جديدة معاكسة لضغوط المجتمع، وذلك بسبب ضمور الغريزة السيئة السمعة عند الإنسان المتحضّر . لذلك تنشأ دائماً حاجة إلى استدعاء القوى الشافية التي تنطوي عليها الخافية لكي تؤدّي وظيفتها . من قبل كانت الأديان هي التي تؤدي هذه الوظيفة بصفة رئيسية . فالأديان، إذ اعتبرت تجليات الخافية علامات إلهية أو شيطانية، إلهامات أو تحذيرات، إنما زوّدت الخافية بفكرة أو نظرة كانت بمثابة درجة مَيْل ملائمة . بهذه الطريقة وجّهة الأديان انتباهاً خاصاً إلى جميع الظاهرات ذات المنشأ الباطني، سواء أكانت أحلاماً أم رؤى، مشاعر أم تخيلات طليقة، أم إسقاطات لهذه الأشياء كلها على شخصيات غريبة أو غير عادية، أو على سياقات بارزة عضوية أو غير عضوية . وقد أتاح تركيز الانتباه هذا لمحتويات الخافية وقواها أن تفيض على الحياة الواعية، فتؤثر فيها وتغيرها . من هذا المنطلق، تكون الأفكار الدينية عَوْناً صُنْعياً يفيد الخافية إذ يمنحها وظيفة تعويضية ــ وهي وظيفة تبقى غير فاعلة إذا لم يُؤْبَهْ لها ــ

ذات قيمة عالية للواعية . فالإيمان، أو الطِّيَرة، أو كل فكرة محمّلة بمشاعر قوية، يعطي المحتوى الباطن قيمة لا يملكها عادة، لكنه يستطيع أن يملكها مع الوقت ولو في شكل لا يبعث على الغبطة أبداً . لذلك عندما تتراكم المحتويات الباطنة نتيجة لتجاهلها باستمرار، تغدو قمينةً بأن تحدث تأثيراً مرضياً . في البدائيين معصوبون مثلما في الأوروبيين المتمدنين تماماً . فالأفريقيون المصابون بالهستيريا ليسوا نادرين في أفريقيا . والتجليات المستكرهة التي تبديها الخافية يرجع إليها حد كبير سبب خوف البدائيين من الشياطين وما ينجم عنه من أداء طقوس الاستعطاف .

طبعاً، لا تحتوي الوظيفة التعويضية التي تقوم بها الخافية على التقويم الواعي، رغم أنها تتوقف كلياً على طريقة الواعية في التفكير . إنما تستطيع الخافية، على أبعد تقدير، أن تقدم جراثيم العقائد الواعية أو تشكيل الرمز . لذلك يمكننا القول أن الوظيفة الخالقة للرمز موجودة في الخافية وغير موجودة، على حسب الأحوال . وهي تشترك في هذه الصفة المتناقضة مع الرموز عموماً . إن هذا يذكرنا بالربّي Rabbi الشاب الذي كان تلميذاً لكنط Kant . وفي أحد الأيام جاءه الرّبيُّ العجوز لكي يعيده إلى إيمان أجداده، لكن جميع الحجج ذهبت سُدى . عندئذٍ أخرج الربّيُّ العجوز الـ « شوفار » المشؤوم، وهو البوق الذي ينفخ فيه عند لعن الزنادقة أو الهراطقة (كما حدث لسبينوزا)، وسأل الشابَّ إن كان يعلم ما هو . أجاب الفتى ببرود : « طبعاً أعلم ... قرن كبش » . عندئذٍ نكص الربّيُّ الشيخ على عقبيه وسقط على الأرض مذعوراً .

ما هو الـ « شوفار » ؟ « أيضاً » .. قرن كبش ليس إلا . أحياناً، لا يكون الرمز أكثر من ذلك، لكن فقط عندما يكون ميتاً . يُقتل الرمز عندما نفلح في إعادة الـ « شوفار » إلى مجرد قرن كبش . لكن أيضاً بواسطة الترميز، يصبح

قرن الكبش « شوفاراً » .

الوظيفـة التعبـيرية تعبر عن نفسها بواسطة ترتيبات محددة تتخذها المادة النفسية، في الأحلام مثلاً، لا نجد فيها شيئاً « رمزياً » بأكثر مما نجده في قرن الكبش . ولكي نكشف النقاب عن صفتها الرمزية، نحتاج إلى موقف واعٍ محدد، أي إرادة فهم محتوى الحلم رمزياً، قبل كل شيء كمجرد فرضية، ثم ترك الخبرة تقرر إن كان ضرورياً أو مرغوباً فيه فهم الحلم بهذه الطريقة . سأضرب مثلاً موجزاً قد يعين على تذليل هذه المسألة الصعبة : امرأة مريضة، كهْلة، شأنها شأن كثيرات غيرها، أقلقتها مشكلة الحرب . نقلت إلي مرة هذا الحلم الذي كانت رأته قبل مدة وجيزة من زيارتها لي .

« كانت تنشـد تراتيـل تُلقي ثقلاً خاصـاً على إيمانها بالمسيح . من هذه التراتيل واحدة تقول :

دم المسيح وتقواه
ثياب عيدي ومجوهراتي؛
هكذا سأقف أمام الرب
عندما تمنحني السماءُ الثوب .
سوف ينجو يومَ الدين
من يضع ثقته دائماً في المسيح .

عندما كانت تنشد هذه الترنيمة، شاهدت ثوراً يندفع مجنوناً أمام النافذة، وسـرعـان مـا وثب وكسر إحدى قوائمه . رأت أن الثور في كرب عظيم، واعتقـدت، مشـيحـةً بعينيهـا بعيداً عنـه، أن أحداً ينبغي أن يذبحه » . ثم استيقظت .

لقد ذكّرها الكرب العظيم الذي كان يعاني منه الثور بتعذيب الحيوانات

الذي كانت شاهدة عليه رغماً عنها . لقد أَوْجَسَتْ شراً من هذه الأشياء، وكانت قلقة منها بسبب مواحدتها لنفسها مع الحيوانات المعذبة . كان فيها شيء يمكن أن يعبر عنه في صورة حيوان يتعذب . ولقد كان من الواضح أن ما قد استثار هذه الصورة توكيدٌ خاص على الإيمان بالمسيح الذي تبدّى في الترانيم التي كانت تنشدها، ذلك أن الذي حدث هو أنها بينما كانت تنشد ترانيمها ثرت ثائرة الثور وكسر قائمته . هذا الجمع الغريب للأفكار أدّى على الفور إلى تداع ذي صلة بالقلق الديني العميق الذي كنت شعرت به أيام الحرب، تلك الحرب التي زعزعت إيمانها في خير الألوهيـة وفي كفاءة النظرة المسيحية إلى العالم . لقد كان من المفروض أن يخفف من شدة هذه الصدمة التوكيدُ على الإيمان المسيحي الوارد في الترتيلة، لكنه، بدلاً من ذلك، أهاج ذلك العنصر الحيواني القابع في الخافية، وهو العنصر الذي شخصه الثور . إن هذا بالضبط هو العنصر الذي يمثله الرمز المسيحي باعتباره قد قُهر وذُبح قرْباناً . في السرّية المسيحيـة هو الحمل الذبيح، بل « الكبش الصغير » . في الميثراوية، الديانة الشقيقة للمسيحية، وكانت أنجح منافسيها أيضاً، كان الرمز المركزي للعبادة لا قربان كبش بل ثور . وكان التمثال المقام خلف المذبح يُظهر غلبة المخلص الإلهي ميثراس على الثور . لذلك كان لدينا صلة تاريخية وثيقة جداً بين المسيحية وقربان الثور . لقد كبحت المسيحيـة جماح هذا العنصر الحيواني، لكنـه ما يلبث أن يشق طريقه إلى المقدمة-ثانية ما أن يتزعزع الإيمان المطلق بصحة المسيحية . الغريزة الحيوانية تسعى إلى الإفلات من عقالها، لكن إذ تفعل ذلك فإنما تكسـر للثور إحدى قوائمه ـــ بعبارة أخرى، الغريزة تشوّه نفسها . من السوائق الحيوانية صرفاً تأتي أيضاً جميع العوامل التي تحدّ من سطوة الغريزة . من نفس الجذر الذي يُنبت الغريزة العمياء المتوحشة غير المروّضة تنبت القوانين

الطبيعيـة والأشكـال الثقافية التي تروّض وتكسر حدّة قدرتها الأولى . لكن عندما ينشطر الحيوان الذي في داخلنا عرِ الواعية بعامل الكبْت، يُسْرانَ ما ينفجر بملْء قوته، من دون ما ناظم ولا ضابط . وإذا حصل انفجار من هذا النوع فلا بد مُفْضٍ إلى الكارثة ــ الحيوان يدمّر نفسه . ما كان في الأصل شيئاً خطراً يصبح الآن شيئاً يبعث على الرثاء، شيئاً يحتاج فعلاً إلى أن نبذل له العطف . القوى الهائلة التي أطلقتها الحرب تدمّر نفسها لأنه ما من يدٍ بشرية تحفظها وتقودها . لقد ثبت أن نظرتنا إلى العالم أضيق من أن تروّض هذه القوى وتصبّها في مجرى ثقافي .

لو أنني حاولت أن أشرح لمريضتي الكهْلة أن الثور كان رمزاً جنسياً، لما خرجتْ منـه بشيء، بل لكانت فقدت وجهة نظرها الدينية ولم يطرأ عليها تحسّن قط . في مثل هذه الأحوال لا تكون المسـألة مسألة هذا التفسير أو ذاك . فلو أردنا أن نتخذ منطلقاً رمزياً، حتى ولو كان مجرد فرضية، لرأينا الحلم محاولة من جانب الخافية لكي يجعل المبدأ المسيحي منسجماً مع ضدّه الذي لا يقبل المصالحة ظاهرياً ــ الغريزة الحيوانية ــ بواسطة الفهم والتراحم . ليس من قبيل المصادفة ألاّ تكون للمسيحية الرسمية صلة بالحيوان . وأكثر ما يشعر بهذا الإغفال، الذي يبرز خصوصـاً عند المقارنة بالبوذية، ذو الحساسية من الناس حتى لقد حمل شاعراً حديثاً على التغنّي بمسيح يضحّي بحياته من أجل حيوانات عجماوات . إن حب الجار الذي تدعو إليه المسيحية يمكنه أن يمتد إلى الحيوان أيضاً، الحيوان الذي يقبع في داخلنا، كما يمكنه أن يمتد إلى كل ما قد كَبَتَتْهُ نظرة إلى العالم انثروبومورفية صارمة كبْتاً في منتهى القسوة . عندما نكْبت الحيوان الذي يقبع في خافيتنا، وهي المصدر الذي جاء منه هذا الحيوان، فكل ما يحصل هو أن يصبح أكثر شراسة ووحشية، ولا شك أن هذا يفسر لنا لماذا

لم تتلطخ بدماء الأبرياء يدا ديانة كما تلطخت يدا الديانة المسيحية، ولماذا لم يشهد العالم قط حرباً أدمى من حرب الأمم المسيحية . عندما يفلت الحيوان المكبوت من عقاله يكون في منتهى الشراسة عندما يطلع إلى السطح، وهو في سياق تدمير نفسه يؤدي إلى انتحار فيما بين الأمم . ولو كان كل إنسان على علاقة طيبة مع الحيوان الذي يقبع في داخله، إذن لأضفى على الحياة قيمة عالية أيضاً، ولأصبحت الحياة عنده المبدأ الأخلاقي الأعلى والمطلق، وكان رده غريزياً على كل مؤسسة أو منظّمة بيدها القدرة على تدمير الحياة على نطاق واسع .

يريد هذا الحلم أن يُطلع صاحبته بكل بساطة على قيمة المسيحية ويضعها في تعارض مع قوة طبيعية غير مروّضة، إذا تُركتْ وغضبَها آذت نفسها وكانت مدعاة للآسف . فلو رجعنا بالتحليل إلى تقصّي أثر العاطفة وخلصنا إلى القول أنها نتجت عن كبت غريزة حيوانية، فقد يأتّى عن ذلك عقم وتخريب لا طائل وراءه . أما إذا أكدّنا، مں ناحية ثانية، على وجوب فهم الحلم رمزياً وأنه يحاول أن يتيح لصاحبة الحلم فرصة التصالح مع نفسها، فنكون قد خطونا الخطوة الأولى على طريق تفسير يضع القيم المتناقضة في وضعية انسجام، ويفتح لنـا طريقـاً جديداً للنمو الداخلي . عندئذٍ تمدّنا الأحلام التي تعقب الحلم الأول، مع احتفاظنا بهذه الفرضية، بالوسائل اللازمة لفهم أوسع لمضامين اتحاد العنصر الحيواني مع أعلى الإنجازات الأخلاقيـة والعقـليـة التي حققهـا الروح البشري . لقد أكّدت لي الخبرة أن هذا ما يحدث فعلاً، ذلك أن الخافية تقوم دائماً بوظيفة تعويضية عن الموقف الواعي في لحظة ما . لذلك أن مسألة أن نعرف ما هو موقفنا الواعي من الخافية ليست مسألة يجب إلا نكترث بها . لأنه كلما كنّا سلبيين أو نقّادين أو عدوانيين أو ذمّامين، اتخذت الخافية هذه

المظاهر وفاتتنا قيمتها .

وعلى هذا لا يكون للواعية وظيفة خالقة للرمز إلا عندما نريد أن نعترف لها بعنصر رمزي . إن منتجات الخافية طبيعية محصنة . ولقد قال القدماء : « من جعل الطبيعة دليله لم يضلّ » . لكن الطبيعة بحد ذاتها ليست دليلاً، لأنها لم توجد على حسب مزاج الإنسان . السفن لا تقودها ظاهرة المغناطيس . علينا أن نجعل البوصلة دليلنا ثم نقوم بتصحيح نوعي، لأن الإبرة لا تشير إلى الشمال تماماً . هذا هو حال وظيفة الدلالة في الخافية . يمكن الاستفادة منها بما هي مصدر للرموز، لكن مع التصحيح الواعي اللازم الذي ينبغي تطبيقه على كل ظاهرة طبيعية حتى نجعلها تخدم أغراضنا .

كثير من الناس يجد هذه النظرة بعيدة عن العلم إلى أبعد الحدود، لأنهم لا يرون فيها إرجاعاً إلى أسباب أساسية، حتى يمكنهم من الإعلان يقيناً أن كيت وكيت من الأشياء « ما هو إلا » هذا وذاك . ذلك أن جميع الذين يعملون على تفسير الأشياء بهذه الطريقة، يرون في الجنس بما هو عامل سببي أمراً ملائماً جداً . والحق يمكننا أن نعرض تفسيراً جنسياً للحالة التي وصفتها بدون مشقة . لكن، ما الفائدة التي قد تجنيها المريضة من هذا التفسير ؟ ما الفائدة لامرأة على عتبة الشيخوخة إذا جاء الجواب عن مشكلتها على هذا النحو ؟ أم تُرى ينبغي لنا أن نحتفظ بالشفاء النفسي للمرضى الذين هم دون الأربعين ؟.

طبعاً، يمكننا أن نسأل بدورنا : ماذا تستفيد المريضة من جواب يأخذ المسائل الدينية مأخذاً جدّياً ؟ لكن، هل هناك مشكلة دينية، وما هي ؟ وما علاقة منهج علمي بالدين ؟

يبدو لي أن المريض هو المرجع المناسب للتعامل مع مسائل من هذا النوع . هل يستفيد منها مهما كانت الأجوبة عنها ؟ لماذا يوجع رأسه بمسائل العلم ؟

فإن كان متديّناً، فإن صلته بالله تعني له أكثر بما لا نهاية له من أي تفسير مقنع علمياً، تماماً مثلما لا يهتم المريض بالطريقة التي يشفى بها إن كان لم يزل يعاني من مرضــه . إن مريضنا، بل كل مريض، لا يعالج بالطريقة الصحيحة إلا عندما يعالج بوصفه إنساناً فرْداً . وهذا يعني الدخول بمشكلته الخاصة وعدم أعطائه تفسيراً قائماً على مبادئ « علمية » تمرق من فوق رأسه رغم أنها قد تكون صحيحة بيولوجياً .

في رأيي أن أول واجب يقع على عاتق عالم النفس أن يظل قريباً من الوقائع الحية في النفس، وأن يراقب هذه الوقائع في حذر، فيفتح نفسه بذلك على الخبرات العميقة التي لا يعرف عنها شيئاً في الوقت الراهن . لذلك، عندما يكون في هذه النفس الفردية أو تلك نزاع جنسي، ويكون عند نفس أخرى مشكـلة دينيـة، يعـترف العالم الحق بالفرق الواضح بينهما قبل كل شيء . لسوف يصرف همّه للمشكلة الدينية بمقدار ما يصرف همّه للمشكلة الجنسية بصرف النظر عن عقيدة البيولوجي إن كان فيها متسع للآلهة أم لا . الباحث غير المتحيّز بحق لا يدع عقيدته الشخصية تؤثر أو تشوّه على أي نحو من الأنحاء المادة المطروحة أمامه، ولا يشذ عن هذا المادةُ الباثولوجية . لقد أصبح في هذه الأيام من السذاجة التي لا تُغْتفر اعتبارُ نزاعٍ عُصابي جنسياً حصراً أو ردُّه إلى ارادة السـيطـرة ليس إلا . هذا الإجراء استبـدادي تمـامـاً في مثـل استبدادية التوكيد بأنه لا وجود لشـيء كالخافية ولا للمنازعات العصـابية . عندما نرى في كل ما حولنا مقدار ما قد تبلغه الأفكار من قوة، يتعين علينا أن نسلّم بأنها لابد أن تكون كذلك في نفس الفرد، سواء أكان على علم بها أم لا . ما من أحد يشك في أن الجنس عمل سيكولوجي فعال، ولا يمكن الشك أيضـاً في أن الأفكار عوامل فعّالة سيكولوجياً . من ناحية ثانية، هناك فرق

قطبي بين عالم الأفكار وعالم الغريزة حتى أن القاعدة أن يكون أحدهما شعورياً والآخر غير شعوري هو الذي يسود الخافية . لذلك عندما يقع المرء في حياته الواعية كلياً تحت ميطرة الغريزة، تعمد خافيته إلى إلقاء توكيد أحادي الجانب على قيمة الأفكار يساوي توكيد قيمة الغريزة . وبما أن تأثير الخافية يبلغ الواعية مداورةً في نهاية المطاف ويعيّن لها موقفها في الخفاء، تُنشئُ الخافية سبباً للمصالحة : تصبح الغريزة فكرة ثابتة في السر، تفقد حقيقتها وتحيلها الخافية إلى مبدأ عالمي أحادي . والعكس كثيراً ما يحدث أيضاً، عندما يتخذ امرؤ عن وعي موقفه في عالم الأفكار ويضطر تدريجياً إلى اختبار غريزته وكيف تجعل في الخفاء أفكاره أدواتٍ للرغبات الباطنة .

وبما أن العالم المعاصر وصحافته يعرضان مشهد عيادة نفسية هائلة، تتاح الفرصة الواسعة لكل مراقبٍ يقظٍ لرؤية هذه المعادلات تجري صياغتها أمام عينيه . والمبدأ الأساسي الأهمية في دراسة هذه الظاهرات هو المبدأ الذي سبق لعلم النفس التحليلي أن قرّره : إن خافية المرء يُسقطها صاحبُها على شخص آخر، حتى ليتّهم الأول الثاني بكل ما تفوتُه رؤيتُه في نفسه . هذا المبدأ بلغ من عموميته وصلاحيته مبلغاً يجعل كل امرئ يُحسن صُنْعاً لو يجلس وينظر نظرة فاصحة جداً ويقرر فيها إن كان يجب عليه أن يلقي الحجر على رأس نفسه قبل أن يكيل التهم إلى غيره .

وهذا الاستطراد الذي يبدو لا علاقة له بموضوعنا يأتي بنا إلى أبرز ملامح الخافية : إنه، كما كان في حقيقة الأمر، ماثل أمام أعيننا في جميع أجزائه، ويمكن أن تدركه الملاحظة في كل وقت .

وسبب هذه الصفة البادية التناقض هو أن الخافية، بمقدار ما ينشطها قدر قليل من الطاقة، يجري إسقاطها على أشياء معينة مناسبة إلى حدّ ما . ولعل

القـارئ يتســاءل كيف يتسنّى للمرء أن يعـلم هذا . لقد أخذ الاعتراف بالإسقاطات يتم تدريجياً عندما اتضح أن سياق التكيّف السيكولوجي موسوم بعـلامات اضطراب وعيوب اتضح أن سببهـا كامن في الموضوع . فقد بين الفحـص القـريب أن « السبب » محتـوى بـاطن من الذات subject، غـير معترف به منها، نقل نفسه إلى الموضوع object، وهناك عظمة الذات إحدى خصائص هذا الأخير حتى بدا سبباً كافياً للاضطراب .

أول ما تعرّفنا على حقيقة الإسقاط أنه متأتٍّ من الاضطرابات الناشئة عن التكيف السيكولوجي . ثم كان التعرف على الإسقاط فيما بعد مما ارتقى به التكيف، أي من الصفـات الإيجابيـة التي يتصف بها الموضوع . هنا كانت الصـفـات العـاليـة القيمـة التي تتصف بها شخصيـة الذات subject وهي الصفـات التي فاتتها رؤيتُها (فاتت الشخصية رؤيتُها) هي التي ظهرت في الموضوع وجعلت منه شيئاً يتمتع بجاذبية خاصة .

لكن مدى هذه الإسقاطات الآتية من الخافية أصبح معروفاً من خلال تحليل المشاعر والعواطف الغامضة التي لا تفسير لها والتي تُضفي نوعاً من صفة سحرية غير محسوسـة على أمكنة معينة، وأحوال معينة من الطبيعة، وأعمال معينة من الفن، كذلك على أفكار معينة وأناس معيّنين . إن هذا السحر آتٍ أيضاً من الإسقاط، لكنه إسقاط من الخافية الجامعة . فإذا كانت الجمادات هي التي تتمتع بهذه الصفة « السحرية »، فإن مجرد طروئها الاحصائي كافٍ لإثبات أن أهميتها ترتد إلى إسقاط محتوى ميثولوجي من الخافية الجامعة . في معظـم الأحوال، تكـون هذه المحتويات موضـوعات سبق وأن عرفنـاها من الأساطير وقصص الحور . بودّي أن أذكر مثالاً على ذلك : البيت الغامض يسكنه ساحر أو ساحرة، ترتكب فيه جريمة فظيعة، ويوجد فيه شبح، مدفون

فيه كنز، وهلم جراً . يمكن أن نتعرف على إسقاط هذه الصورة البدْئية، عندما يعثر أحدنا ذات يوم على هذا البيت الغامض ـــ بكلمات أخرى، عندما يُحدث بيت حقيقي، بل بيت عادي تماماً، تأثيراً سحرياً عليه . عموماً، يبدو جوّ المكان كله رمزياً، وهو لذلك إسقاط جملة باطنة متماسكة .

نجد هذه الظاهرة متطورة تطوراً جميلاً لدى الإنسان البدائي . فالبلاد التي يقطنها هي في نفس الوقت طبوغرافية خافيته . في تلك الشجرة المهيبة يقيم إله الرعد؛ هذا الينبوع مسكون بالمرأة العجوز؛ الملك الأسطوري مدفون في تلك الغابة؛ لا أحد يستطيع أن يوقد قرب الصخرة ناراً لأنه مقام شيطان؛ في كومة الحجارة هناك تسكن أرواح السلف؛ وعندما تمرّ به امرأة يجب عليها أن تفوه بعبارات تعويذية لئلا تحبل، لأن أحد الأرواح يُسْران ما يدخل جسدها . جميع أنواع الأشياء والعلامات تَسِـمُ هذه الأمكنة، وتحيط البقعة الموسومة بالخشوع . في كل مكان تقفز خافيته أمامه، نابضة بالحياة وحقيقية . ما أشدَّ اختلافَ صلتنا بالأرض التي نحيا عليها ! مشاعر غريبة عنا كليّاً تصاحب البدائي في كل خطوة . من يعرف ماذا تعني له صيحة الطير أو رؤية تلك الشجرة العتيقة ! عالم كامل من المشاعر مغلق علينا وقد استعضنا عنه بجمالية شاحبة . ومع ذلك فإن عالم المشاعر البدائية ليس غائباً عنا كلياً، لأنه مازال حياً في الخافية . كلما ابتعدنا عنه بفضل تنوّرنا وتفوقنا العقلاني، ضعفت رؤيتنا له . لكنه يزداد قدرة بكل شيء يقع فيه، إذ تقحمه إلى الخارج عقلانيتنا الأحادية . هذه الرقعة الضائعة من الطبيعة تسعى إلى الثأر لنفسها وتعود في شكل مزيّف ومشوّه، كوباء التانغو، مثلاً، والمستقبلية والدادائية وجميع أنواع الصرعات الأخرى التي يحفل بها عصرنا .

حتى ارتياب البدائي في القبيلة المجاورة قد عاد إلينا ثانية في هذه الحرب

وَرِماً إلى نسبة هائلة، وكنا اعتقدنا أننا كبرنا عنه منذ زمن بعيد بفضل منظماتنا العالمية . لم تعد المسألة مسألة تحريق القرية المجاورة، أو دحرجة بضعة رؤوس : مدن بكاملها تُباد عن بكرة أبيها، وملايين من الناس تُقَتّل وتُذّبح . الأمم العدوّة تُسلب كل حق من احترام، وأخطاؤنا الخاصة بنا تظهر في الآخرين مجسّمة بصورة هائلة . أين هي العقول الفائقة، القادرة على التفكير، اليوم ؟ إن كانت موجودة أصلاً، فلا أحد يعيرها التفاتاً . بدلاً من ذلك استقتالٌ عام، وهلاك عالمي يقف الفرد اتجاه هيمنته الطاغية عاجزاً عن الدفاع عن نفسه . ومع ذلك فإن هذه الظاهرة الجماعية هي غلطة الفرد أيضاً، لأن الأمم مكونة من الأفراد . لذلك كان على الفرد أن يبحث عن الوسيلة التي يمكنه بها الردّ على الشر ؟ موقفنا العقلاني يؤدي بنا إلى الإيمان بأننا نستطيع أن نفعل العجائب عن طريق المنظمات والتشريعات العالمية وغير ذلك من الوسائل . لكن في الحقيقة ما من شيء يمكنه أن يُحدث تجديداً في روح الأمم مثلما يُحدثه تغيير في روح الفرد . كل شيء يبدأ بالفرد .

هناك لاهوتيّون وإنسانيون طيبو النيّة يريدون أن يكسروا مبدأ القوة في الآخرين . أَوْلى بهم أن يبدؤوا بكسره في أنفسهم . عندئذٍ يصبح الشيء مصدقاً . يجب أن نُصغي إلى صوت الطبيعة التي تخاطبنا من الخافية . وعندئذٍ ينصرف كل منا إلى الاهتمام بنفسه حتى لينفض يديه من وضع العالم على الطريق الصحيح .

قد يشعر غير المختص بشيء من الدهشة أَنْ أُدرج هذه المشكلات العامة في مناقشتي لمفهوم سيكولوجي . إن هذه المشكلات ليست استطراداً عن موضوعي الرئيسي، كما قد يبدو، بل هي جزء أساسي منه . إن مسألة العلاقات بين الواعية والخافية ليست من المسائل الخاصة، بل هي مرتبطة بأوثق الروابط

بتاريخنا والزمن الحاضر ونظرتنا إلى العالم . أشياء كثيرة جداً هي في الخافية، لا لشيء، إلا لأن نظرتنا إلى العالم لم تدع لها مجالاً في حياتنا الواعية، ولم نستطع أن نغزوها بواسطة التعليم والتدريب . وكلما جاءت الواعية على هيئة تخيلات طليقة طارئة سارعْنا إلى كبحها . إن الحد الفاصل بين الخافية والواعية ترسمه إلى حد كبير نظرتنا إلى العالم . إن هذا يفسر لنا أسباب وجوب الكلام عن مشكلات عامة إن كنا نريد أن نتعامل بكفاءة مع مفهوم الخافية . ونحن لو أردنا فهم طبيعتها، علينا ألا نُعنى بالمشكلات المعاصرة وحسب، وإنما بتاريخ العقل البشري أيضاً .

هذا الانصراف إلى الاهتمام بالخافية مشكلة ذات أهمية تطبيقية بمقدار ما هي ذات أهمية نظرية . فكما أن نظرتنا إلى العالم كانت حتى الآن عاملاً حاسماً في تشكيل الخافية ومحتوياتها، كذلك إن إعادة صبّ نظراتنا في قوالب جديدة وفقاً للقوى الفاعلة، أعني قوى الخافية، مفروض علينا كقوى تطبيقية . إنه يستحيل علينا شفاء العصاب بأدوية فردية بصورة دائمة . فالإنسان لا يمكن أن يوجد فرداً منعزلاً خارج الجماعة البشرية . فالمبدأ الذي يشيّد عليه حياته يجب أن يكون مقبولاً عموماً، وإلا افتقر إلى تلك الأخلاقية الطبيعية التي هي أمر لا غنى عنه له بما هو عضو في الجماعة . لكن مثل هذا المبدأ، إن لم يترك في ظلمات الخافية، يصبح نظرة إلى العالم يشعر بضرورتها جميع الذين اعتادوا أن يدققوا تدقيقاً واعياً في أفكارهم وأفعالهم . ولعل هذا يفسر لماذا تطرّقت إلى مسائل، كل واحدة منها تحتاج، لعرضها عرضاً تاماً، إلى أكثر من رأس واحد، وأكثر من حياة واحدة .

2 . العقل والأرض

عبارة « العقل والأرض » تقرع في الأذن رنّة خفيفة من الشعر . من غير إرادة منا نفكر في العقل (النفس والروح) باعتباره شيئاً خاضعاً لتأثير السماء، على نفس النحو الذي يميز فيه الصينيّون بين نفس شن (أو روح شن) ونفس كْواي (أو روح كْواي)، الأولى صلتها بالسماء والثانية بالأرض . لكن بما أننا، نحن الغربيين، لا نعرف شيئاً عن ماهيةِ العقل، وبالتالي لا نستطيع أن نخاطر بالقول أن فيه شيئاً من طبيعة سماوية وشيئاً من طبيعة أرضية، تعيّن علينا أن نقصر الكلام على طريقتين مختلفتين من النظر، أو على مظهرين مختلفين من ظاهرة معقدة ندعوها العقل . بدلاً من أن نطرح مسلّمة « نفس شن »، يمكننا أن نعتبر العقل مبدأ خلاقاً غير خاضع لسبب من الأسباب . وبدلاً من مسلّمة « نفس كْواي »، يمكننا أن نفهم العقل باعتباره نتاجاً لعلاقة سببية . ولعل وجهة النظر الأخيرة أنسب لموضوعنا، لأننا نفهم العقل عندئذٍ باعتباره **نظام تكييف تعيّنه شروط البيئة الأرضية** . لا حاجة بي إلى التوكيد بأن هذه النظرة السببية نظرية أُحادية اضطراراً، لأن جانباً واحداً من العقل يفهمه العقل فهماً مناسباً . أما الجانب الآخر من المشكلة فيجب أن يُترك خارج الحساب لأنه لا علاقة له بموضوعنا .

في بداية البحث، يحسن بنا أن نحدد بدقة ما هو المقصود من كلمة « عقل » . هناك نظرات معينة تريد أن تقصر « العقلي » و« النفسي » على

الواعية فقط . لكن مثل هذه النظرات لم تعد تقنعنا اليوم؛ ذلك أن في عهدة السيكوباثولوجيا الحديثة ثروة من الملاحظات المتعلقة بالفعاليات النفسية تشبه الوظائف الواعية شبهاً كلياً، ومع ذلك هي من وظائف الخافية غير الشعورية ــ فالإنسان يستطيع أن يدرك ويفكر ويشعر ويتذكر ويقرر ويفعل ــ كل ذلك بطريقة غير شعورية . وكل ما يحدث في الواعية يمكنه أن يحدث في الخافية في شروط معينة . أما كيف يمكن أن يحدث هذا، فلعلنا نستطيع أن نراه بصورة أفضل إذا صوّرنا الوظائف والمحتويات النفسية بمشهد طبيعي ليلي يلعب فوقه عمود من نور كشّاف . كل ما يظهر في هذا الضوء من الإدراك فهو شعوري واع، وكل ما يقبع في الظلام فيما وراء ذلك فهو غير شعوري، رغم أنه حقيقي وفعّال . وإذا انتقل عمود النور من موقعه الأول، غاصت المحتويات التي كانت واعية، وجاءت محتويات جديدة إلى الرقعة المنيرة من الواعية . أما المحتويات التي تلاشت في الظلمة فتظل فاعلة وتشعرنا بنفسها مداوَرةً على هيئة أعْراض في الأعم الأغلب . وقد وصف فرويد هذه الاضطرابات الأعْراضية في « سيكوباثولوجيا الحياة اليومية » . أما البرهنة على الاستعدادات والموانع الباطنة فلا تكون إلا تجريبياً بواسطة اختبار التداعي . فإذا أخذنا في اعتبارنا ابحاث السيكوباثولوجيا، بدا العقل رقعة ممتدة من الظاهرات النفسية، بعضها واع شعوري، وبعضها خافٍ غير شعوري . والجزء غير الواعي من العقل لا يُدرك مباشرة ــ وإلا لم يكن خافياً ــ وإنما يُستنتج من الآثار التي تُحدثها السياقات الباطنة على الواعية .

وهنا يجب عليّ أن أتوغّل أكثر في طبيعة الخافية وبنيتها إن كان عليّ أن أتعامل بكفاءة مع تكييف الأرض للعقل . إنها مسألة تتعلق بصميم بدايات العقل وأسسه، أشياء مدفونة في الظلام منذ أزمنة سحيقة، وليست هي مجرد

الوقائع العادية للإدراك الحسي والتكيف الواعي مع البيئة . إن هذه ترتد إلى سيكولوجيا الواعية، وقد سبق لي أن قلت أنني لا أسوّي الواعية بالنفس . فالنفس حقل خبرة أشمل وأظلم من الرقعة الضيقة الساطعة النور من الواعية، وفي النفس تندرج الخافية أيضاً .

في بحث آخر[1]، حاولت أن أعطي نظرة عامة عن بنية الخافية . وقد بيّنت أن محتوياتها، وهي النماذج البدئية archetypes، هي الأسس الخبيئة من العقل غير الواعي، أو هي الجذور التي غوّرتها النفس لا في الأرض بالمعنى الضيق بل في العالم عموماً . النماذج البدئية جُمَل أو أجهزة من الاستعداد لفعل، وهي في نفس الوقت صور وعواطف موروثة مع بنية الدماغ ــ بل هي المظهر النفسي لهذا الأخير . والنماذج البدئية تمثل، من ناحية، قوة محافظة غريزية شديدة، وهي، من ناحية ثانية، أفْعَلُ وسيلة متصوَّرة في التكييف الغريزي . وهي بهذا تمثل جوهرياً الجزء الأرضي من النفس إن كان لنا أن نستخدم مثل هذا التعبير ــ هي ذلك الجزء من النفس الذي تتصل النفس من خلاله بالطبيعة، أو الذي تبدو فيه صلة النفس بالأرض والعالم على أكثر ما تكون حسّية . وإننا لنرى التأثير النفسي للأرض وقوانينها على أوضح ما يكون في هذه الصور البدئية .

هذه المشكلة ليست بالغة التعقيد وحسب، وإنما هي بالغة الدقّة أيضاً . ويتعيّن علينا في تعاملنا معها أن نتعامل مع صعوبات غير عادية، وأولى هذه الصعوبات هي أن النموذج البدْئي ووظيفته يجب أن نفهمهما باعتبارهما جزءاً

---

1 - « بنية النفس » .

من سيكولوجية إنسان ما قبل التاريخ وما تتصف به من بعد عن العقلانية لا باعتبارهما جُملة مُدْرَكةً عقلانياً . إن الأمر يشبه كما لو تعيّن علينا أن نصف ونفسر بناية طابقها العلوي شُيّد في القرن التاسع عشر، والطابق الأرضي يرجع إلى القرن السادس عشر، ولو فحصنا المبنى فحصاً دقيقاً يتضح لنا أنه قد أعيد بناءه من برج شُيّد في القرن الحادي عشر . وفي القبو نجد أساسات رومانية، وتحت القبو كهف مسدود فيه أدوات من العصر الحجري الجديد في الطبقة العليا، وبقايا حيوانية من نفس العصر في الطبقات السفلى . نحن نعيش في الطابق العلوي ولا نعلم شيئاً عن الطابق السفلي سوى أن « موضته » قديمة قليلاً . أما عما يكمن تحت سطح الأرض، فلا نعرف عنه شيئاً

إنه تشبيه أعرج، شأن كل تشبيه . ذلك أنه ليس في النفس شيء ميت .

كل شيء حيّ موجود في طابقنا العلوي، واعيتنا، يتأثر دائماً بأساساته الحية والفاعلة؛ كالبناية تمسكها وتسندها أساساتها . وكما أن البناية تنهض فوق الأرض بدون عائق يعوقها، كذلك تقف واعيتنا في الفراغ كما لو أنها تقف فوق الأرض، وأمامها مجلى للنظر واسع . لكن، كلما نزلنا في عمق البيت ضاق أمامنا الأفق وألفيْنا أنفسنا في ظلام دامس، حتى نصل أخيراً إلى الصخرة الجرداء، ومع الصخرة الجرداء ذلك الزمان الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ عندما كان صيّادو الأيائل يقاتلون قوى الطبيعة الهوجاء في سبيل وجود عريان وشقي . كان أناس ذلك العصر مازالوا في كامل امتلاك غرائزهم الحيوانية، التي لولاها لكانت الحياة مستحيلة . وسيطرة الغريزة سيطرةً مطلقة لا تتعارض مع واعية شديدة النمو . لكن واعية الإنسان البدائي متقطعة مثل واعية الطفل، وعالمه محدود جداً مثل عالم الطفل . ومازلنا نعيد في الطفولة إنشاء آثار ما قبل

تاريخ العرق والنوع البشريين عموماً، وفقاً لقانون فيلوجيني* . فيلوجينياً وكذلك أنطلوجينياً**، لقد تجاوزنا تخوم الأرض المظلمة في نموّنا؛ من هنا كانت النماذج البدئية هي أكثر العوامل تأثيراً فينا لشدة قربها منا، ولذلك تبدو لنا أشدّها قوّةً . أقول « تبدو »، لأن ما يبدو لنا أهم شيء نفسياً ليس بالضرورة أن يكون كذلك، أو على الأقل ليس بحاجة إلى أن يظل كذلك .

لكن، ما هي النماذج البدئية الأقرب لنا والأشد تأثيراً فينا ؟ يقودنا هذا السؤال رأساً إلى مشكلة الوظيفة التي يؤديها النموذج البدْئي، وهنا نصل إلى قلب الصعوبة . من أي منطلق يتوجب علينا الإجابة عن هذا السؤال ؟ أمن منطلق الطفل أم من منطلق الإنسان البدائي أم من منطلق واعيتنا الراشدة الحديثة ؟ ومتى تنشأ ضرورة اللجوء إلى هذه الفرضية أصلاً ؟

بودي أن أذهب إلى أن كل رجْع نفسي لا يتناسب مع سببه البادي يجب أن نبحث في إمكانيةِ كونه مشروطاً بنموذج بدئي في نفس الوقت .

ما أعنيه بذلك يوضّحه المثال التالي : لنفرض أن طفلاً يخاف من أمه يتعين علينا أولاً أن نتأكد من أن هذا الخوف ليس له سبب عقلي، كأن يكون « ضميراً خبيثاً » من جانب الطفل مثلاً، أو عنفاً من جانب الأم، أو شيئاً آخر قد يكونِ حدث للطفل . فإذا لم يكن شيئاً من هذا القبيل، يتعين علينا عندئذٍ أن ننظر إلى الوضع على أنه يتعلق بنموذجٍ بدْئي . مثل هذه المخاوف جرت العادة على طروئها ليلاً، وقد دأبت على الظهور في الأحلام . لقد بات الطفل الآن يحلم بأمه ساحرةً تطارد الأطفال . والمادة الواعية التي تقف خلف

---

* phylogenetic خاص بتتابع نشوء النوع من حيوان أو نبات .

** ontogenetic خاص بتاريخ تطور الكائن الحي .

هذه الأحلام هي في بعض الحالات حكاية « هنْسل وغريتل » . وعندئذٍ يقال أن مثل هذه الحكاية ما كان يجب أن تُروى للطفل، لأن الاعتقاد أن الحكاية هي سبب الخوف . إن هذا التفسير عقلنة غير صحيحة، لكنه مع ذلك ينطوي على لبّ الحقيقة من حيث أن موضوع الساحرة هو أنسب تعبير عن مخاوف الطفولة، وقد كان كذلك دائماً . إن هذا يفسر لنا لماذا وجدت مثل هذه الحكايات أصلاً . فالرعب الذي ينتاب الأطفال ليلاً هو حادث نموذجي يتكرر دائماً ويعبر عن نفسه دائماً في هيئة موضوعات نموذجية نجدها في « حكايات الحُوْر » .

لكن هذه « الحكايات » ما هي إلا أشكال طفولية من الخرافات والأساطير مستمدة من « ديانة الليل » البدائية . إن ما أدْعوه « ديانة الليل » هو الشكل السحري من الدين، يتداخل هدفهُ ومعناه مع القوى المظلمة والشياطين والسحرة والأرواح والأشباح . وكما أن « حكايات الحور » هي تكرار فيلوجيني (على مستوى النوع البشري) لديانة الليل القديمة، كذلك أن الخوف الطفولي هو تكرار للسيكولوجيا البدائية المتبقية في النوع .

أن يُبدي مثل هذا الأثر المتبقّي من السيكولوجيا البدائية حيويّة معيّنة، إن هذا ليس بالأمر غير الطبيعي، لأن المخاوف الليلية ليست ظاهرة غير طبيعية بالضرورة، حتى عند البالغين الذين يعيشون تحت شروط متمدنة . والخوف الليلي لا يمكن اعتباره أمراً غير طبيعي إلا إن كان على درجة عالية من الشدة . عندئذٍ ينهض السؤال عن الظروف التي يشتد فيها خوف الليل . هل يمكن تفسير الشدة حصراً بالنموذج البدْئي الذي تعبر عنه الساحرة في « الحكاية » ؟ أم يتعين علينا أن نسوق لها سبباً تفسيرياً آخر ؟

لا يكون النموذج البدْئي مسؤولاً عن خوف الليل إلا إذا كان هذا الخوف

طبيعياً وعلى درجة معينة من الضآلة . وكل شدة بادية نشعر أنها غير طبيعية لابد أن تكون لها أسبابها الخاصة . وكما نعلم، أن فرويد يفسر هذا الخوف بإرجاعه إلى صدام يجري في نفس الطفل بين ميله إلى الرَّهَق* incest وتحريم هذا اللون من الزنا . إن فرويد يفسر هذا الخوف من منطلق الطفل . أنا لا أشك أن يكون للأطفال ميول « رَهَقِيّة » بالمعنى الواسع الذي يستعمله فرويد، لكنني أشك كثيراً في إمكانية إرجاع هذه الميول، بدون مزيد من اللّغط، إلى سيكولوجية الطفل بذاته . لدينا أسباب وجيهة جداً للقول أن نفس الطفل مازالت واقعة تحت تأثير نفس أبويه ولا سيما أمه، حتى ليجب اعتبارها زائدة وظيفية مرتبطة بنفس أبويه . إن استقلال الطفل بنفس خاصة به أمر لا يحدث إلا في وقت لاحق، بعد أن تكون قد ترسّخت عنده استمرارية الوعي رسوخاً يُرْكن إليه . أن يبدأ الطفل الكلام عن نفسه بصيغة الشخص الثالث (صيغة الغائب)، لهو في نظري دليل واضح على لا شخصية سيكولوجية .

لذلك أذهب إلى تفسير الميول الرَّهَقيّة الممكنة عند الطفل من منطلق سيكولوجية الأبوين أكثر من تفسيرها من سيكولوجية الطفل . لذلك كان تكرار سبب المخاوف الطفولية الزائدة ناشئاً عن قابلية خاصة للعقدة من جانب الأبوين، أي عن كبْتهما وأهمالهما لمشكلات حيوية معينة . كل شيء يقع في نطاق الخافية فإنما يتخذ لنفسه شكلاً قديماً نوعاً ما . فإذا كَبَتَتِ الأم عقدة مؤلمة ومخيفة، فإنما تشعر بها روحاً شريرة تطاردها ــ « هيكلاً عظمياً في الخزانة »، كما يقول الإنكليز . واتخاذ العقدة مثل هذا الشكل دليل على أنها اكتسبت قوة نموذج بدئي . تجثم فوق صدرها كالكابوس وتقض مضجعها

---

* الرَّهَق هو الزنا بمن لا يجوز الزواج بهم أو بهن ــ المترجم .

الأحلام المزعجة . وسواء أقصّت على ابنها « حكايات ــ كوابيس » أم لم تُقْصُصْ، تنقل إليه العدْوى من سيكولوجيتها الخاصة وتوقظ في عقله صور خوف نموذجية ــ بدئية . إذ ربما لديها تخيلات طليقة شهوانية تنصب على رجل غير زوجها . وبما أن الطفل هو العلاقة المرْئية على رابطتهما الزوجية، تتوجّه مقاومتها لهذه الرابطة ضد الطفل من وراء واعيتها، الطفل الذي يجب أن تتبرأ منه . على المستوى القديم، يتوافق هذا مع « قتل الطفل » . بهذه الطريقة تُمْسي الأم ساحرة شريرة تأكل الأطفال .

في الابن كما في الأم تكمن هاجعةً إمكانيات الإنتاج القديم للصور، وإن نفس السبب الذي قام لأول مرة بإنتاج النموذج البدْئي وترسيخه على مرّ التاريخ البشري يعود إلى تنشيط هذه الإمكانيات المنتجة للصور المرة تِلْوَ المرة .

هذا وإنني ما تخيرت عن غير قصد هذا المثال على تبدّي نموذج بدْئي في الطفل . فقد بدأنا تساؤلاتنا بالسؤال عن أكثر النماذج البدئية التصاقاً بالإنسان، الصورة البدْئية للأم التي هي الخبرة الأقرب والأقوى من جميع النواحي، وتحدث هذه الخبرة في أشد حقبة من حياة الإنسان قابلية للتأثر وبما أن الواعية في أثناء ذلك لا تكون نامية غير نمو ضعيف، لا نستطيع أن نتكلم عن خبرة « فردية » أصلاً . على العكس، إن الأم خبرة نموذجية ــ بدئية، يختبرها الولد غير الواعي نوعاً لا بصفتها شخصية مؤنثة مفردة محددة، بل بما هي « الأم » إطلاقاً، أي بما هي نموذج محمّل بقدر كبير من المعاني الممكنة . وفيما تمضي الحياة قُدُماً، تخبو الصورة البدئية للأم، ويحل محلها صورة واعية فردية نسبياً، وهي الصورة التي يُفترض أنها الصورة الوحيدة التي نمتلكها عن الأم . لكن الأم تبقى في الخافية صورة بدئية قوية، تلوّن، بل حتى تعيّن، طوال الحياة، علاقتنا بالمرأة والمجتمع والعالم، عالم الشعور والواقع، ومع ذلك

بطريقة بلغت من خفائها مبلغاً حتى الأصل ألاّ نجد معه إدراكاً واعياً للسياق . إننا نظن أن هذا كله من قبيل المجاز . لكنه يصبح حقيقة ملموسة عندما يتزوج رجل من امرأة، لا لشيء إلا لأنها من بعض الوجوه تشبه أمّه، أو لأنها لا تشبهها بصورة محدد جداً . الأم « جرمانياً » (ألمانيا) هي للألمان بمنزلة ما هي « فرنسا الحلوة » للفرنسيين صورة ذات أهمية عظمى خلف المشهد السياسي، لا يغض النظر عنها إلا من عميت بصيرته . الرحم المحيطة بكل شيء، وهي رحم الكنيسة ــ الأم، قد تكون كل شيء إلا مجازاً . وهذا يصح على الأرض ــ الأم، والطبيعة ــ الأم، وعلى « المادة » عموماً .

إن نموذج الأم هو أكثر النماذج البدئية التصاقاً بالطفل . لكن مع نموّ الواعية يدخل الأب ميدان الرؤية وينّشط نموذجاً بدْئياً تتعارض طبيعته مع أوجه كثيرة مع نموذج بدء الأم . وكما أن نموذج بدء الأم ينطبق على « ين » لدى الصينيين، كذلك ينطبق نموذج بدء الأب على « يانغ » . إن نموذج الأب يعين علاقتنا بالإنسان والقانون والدولة والعقل والروح وقدرة الطبيعة . إن « أرض الأب » Fatherland تنطوي على حدود، مَوْقِعٍ محدّدٍ في الفراغ، على حين أن الأرض نفسها أرض أم، ساكنة ومثمرة . نهر الراين أب، مثلما هو كذلك نهر النيل والريح والعاصفة والرعد والصاعقة . الأب هو « الأقْطر » « auctor » (السلطان) ويمثل السلطة، ولهذا السبب أيضاً يمثل القانون والدولة . هو الذي يتحرك في العالم، كالريح؛ المرشد والخالق للأفكار المرْئيّة والصور الهوائية . إنه نَفَس الريح المبدع ــ الروح، نيوما، أتْمن .

هكذا الأب أيضاً نموذج بدْئي شديد القوة يسكن في نفس الطفل . في بادئ الأمر، يكون « الأب » بإطلاق، وصورة الله تحيط بكل شيء، ومبدأ للقدرة . وفي مجرى الحياة تنكفئ هذه الصورة الاستبدادية إلى عمق القاع :

يعود الأب شخصية محددة غالباً مفرطة في بشريتها . لكن صورة الأب، من ناحية أخرى، تُنَمّي أهميتها الكامنة إلى أقصى حد . وكما أن الإنسان قد تأخر في اكتشاف الطبيعة، كذلك لم يكتشف إلا تدريجياً القانون والواجب والمسؤولية والدولة والروح . وفيما تصبح الواعية الوليدة أقدر على الفهم، تتضاءل الشخصية الأبوية . يحتل مجتمع الرجال مكان الأب، وتحتل العائلة مكان الأم .

وفي نظري أنه من الخطأ القول أن جميع هذه الأشياء التي تحل محل الأبوين ما هي إلا عِوَض عن الخسارة التي لا يمكن تفاديها، خسارة الصورة الأبوية البدْئية . إن ما يظهر في مكان ليس مجرد عوض، بل حقيقة تناسجت مع الأبوين وتركت بصمتها على عقل الطفل عن طريق الصورة الأبوية . والأم التي تمنح الدفء والحماية والغذاء هي أيضاً الموقد والملجأ والكوخ والخضرة المحيطة . هي حقل الادّخار، وابنها هو الحَبّ الشّبْهُ الإلهي، أخ الإنسان وصديقه . وهي البقرة الحَلوب والقطيع . أما الأب فيسعى خارج البيت، يتحادث مع رجال آخرين، يقنص، يرحل، يحارب، يترك العنان لطباعه السيئة أن تنفجر كالرعود القاصفة . وتحت تأثير أفكار غير مرْئية سرعان ما يغير الوضع كلّه كما تفعل العاصفة . هو الحرب والسلاح، وسبب جميع التغيرات . هو الثور المهتاج للعنف، أو المستعد للكسل، لا يبالي بشيء . هو صورة لجميع القوى العنصرية النافعة والضارّة .

جميع هذه الأشياء هي المباشرات الأولى في حياة الطفل، ترتطم به، مباشرةً أو مداورةً، من خلال أبويْه . وفيما تنكفئُ الصورة الأبوية ــ الأمومية وتَتَأنْسَنُ تبدأ جميع تلك الأشياء التي بدت أول مرة فقط مثل قاع خلفية أو ممثل آثار هامشية ــ تبدأ تطلع بوضوح أكبر . التراب الذي يلعب به، والنار التي يتدفأ

عليها، والمطر والهواء اللذان يلفحانه بالبرد ــ كل هذه كانت حقائق دائماً، لكنه ما كان يراها ولا يفهمها إلا صفات لأبويه بسبب من وعيه الشفقي . ثم تطلع المظاهر المادية والحركية للأرض، كما يطلع الخارج من ضباب، وتُسفر عن نفسها باعتبارها قوى بما لها من حق خاص بها، فلا تعود إلى ارتداء أقنعة الأبوين . وهي في هذا ليست عوضاً عن شيء سواها، بل حقيقة تتّفق مع أعلى مستويات الوعي .

ومع ذلك فهناك شيء ضائع مع هذا النموّ، هو الشعور بالوحدة مع الأبوين، وهو شعور لا يمكن أن يحل محلّه شيء آخر . إن هذا الشعور ليس مجرد عاطفة، بل حقيقة سيكولوجية هامة أسماها ليفي بروهل، في سياق بحث مختلف كلياً عن هذا البحث، أسماها « المشاركة الصوفية » . إن الحقيقة التي يدل عليها هذا الاصطلاح الذي لا يُفهم رأساً تلعب دوراً عظيماً في سيكولوجية البدائيين كما في علم النفس التحليلي . وقد نصوغ هذه الفكرة في إيجاز فنقول أنها حالة من التواحد في الخافية . وقد أزيد الفكرة شرحاً بالقول : لو أن نفس العقدة تجمعت لدى شخصين في وقت واحد، لأحدثت أثراً عاطفياً بارزاً، إسقاطاً يسبب إما تجاذباً أو تنافراً فيما بينهما . وعندما يكون لديّ ولدى شخص آخر صلة خفيّة وغير شعورية بنفس الحقيقة الهامة، أصبح متواحداً معه جزئياً . وبسبب من هذا التواحد، أتوجّه إليه كما لعلّي أتوجه إلى العقدة المعنيّة لو كنت واعياً لها .

تسود هذه الحالة من المشاركة الصوفية بين الآباء والأبناء . مثال شهير معي ذلك، الأم التي تواحد نفسها مع ابنتها، ومن خلالها تتزاوج من صهرها؛ أو الأب الذي يحسب أنه يرعى صالح ابنه عندما يجبره ساذجاً على تلبية رغباته، مثلاً في الزواج أو اختيار المهنة . والابن الذي يواحد نفسه مع أبيه هو أيضاً

مثال شهير جداً . لكن بين الأم والابنة رابطة وثيقة يمكن في حالات معينة اثباتها فعلاً بطريقة التداعي . رغم أن المشاركة الصوفية حقيقة خفيّة لا يشعر بها الشخص المَعْنيّ، إلا أنه يشعر بتغيير عندما يفتقدها . هناك دائماً فرق بين سيكولوجية إنسان مازال أبوه على قيد الحياة وآخر أبوهُ ميّت . وما دامت المشاركة الصوفية مع الأبوين قائمة، فقد يظل أسلوب طفولي نسبياً من الحياة قائماً . وعن طريق المشاركة الصوفية، تُضَخُّ فينا الحياةُ من الخارج في هيئة دوافع خفية لا نشعر أننا مسؤولون عنها، لأنها دوافع غير واعية . وبسبب هذه الخافية الطفولية، يخفّ علينا عبء الحياة، أو على الأقل يبدو لنا أنه كذلك . والإنسان ليس فرداً واحداً، بل هو موجود في ثنائيات أو ثلاثيات . وفي التخيل يكون الابن في حجر أمه، وفي كَنَف أبيه . والأب يولد ثانية في ابنه ـــ على الأقل حلقةً في سلسلة الحياة الأبدية . الابنة تجد شباب أبيها في زوجها الشاب وبذلك لا تفقد صباها . لا حاجة بي إلى إيراد أمثلة من السيكولوجيا البدائية، حَسْبُنا أن نشير إليها .

كل هذا يتلاشى مع اتّساع الواعية وتكاثفها . ويؤدي سياق امتداد الصور الأبوية ـــ الأمومية على وجه العالم، بل على وجه العالم الطالع من ضباب الطفولة ـــ يؤدي هذا السياق مهمة فصل الوحدة الخفيّة غير الشعورية بين الابن[1] وأَبَوَيْهِ . وعند الأقوام البدائية نجد هذا الفصل يُؤدّى شعورياً في طقوس الانتقال من سن الطفولة إلى سن الرجولة . بهذا الطقس، يُصار إلى القاء النموذج البدْئي الذي يمثله الأب والأم إلى القاع الخلفية . لقد تبدّد بعد تكثف، وتفرّق بعد تجمع . لقد حل محله الآن نوع جديد من المشاركة الصوفية، هي وحدته مع القبيلة أو المجتمع، مع الكنيسة أو الأمة . هذه المشاركة عمومية وغير شخصية، وهي، فوق كل شيء، لا تعطي الخافية غير

حيّز ضئيـل جداً . وكل من يُفْرط في عدم الوعي والثقة الزائدة والسذاجة، سرعان ما يهزه القانون والمجتمع لكي يعي نفسه والعالم . لكن النضج الجنسي يصحب معه أيضاً إمكانية مشاركة صوفية جديدة، وبذلك يحل محل ذلك الجزء من الشخصية الذي أضعناه في المواحد مع الأبوين . هوذا نموذج بدْئي جديد يتجمع : في الرجـل النموذج البـدئي للمـرأة، وفي المرأة النموذج البدئي للرجل . لقد كان هذا النموذجان متسترّيْن أيضاً خلف قناع صورتي الأبوين، لكنهما الآن يدلفان إلى المقدمة سافرين، حتى وإن كانا متأثرين جداً بصورتي الأبوين، وغالباً ما يكون الأمر على هذا النحو . لقد أسميْت النموذج البدئي المؤنث في الرجل بـ « الأنيمة »، والنموذج البدئي المذكر في المرأة بـ « الأنيم »، لأسباب خاصة سوف أبينها فيما بعد .

كلمـا كان الرجل متـأثراً، أو المرأة متـأثرةً، تأثراً غير شعوري بصـورة الأبوين، يكون اختيار شخص المحبوب كتعويض إيجابي أو سلبي عن الأبوين أمراً مؤكداً . على أننا يجب ألا نعتبر التأثير البعيد المدى الذي تحدثه الصورة الأبوية أمراً غير طبيعي، بل هو أمر طبيعي جداً، ولذلك هو ظاهرة شائعة جداً . في الحقيقـة، من الهـام جداً أن يكون الأمر كذلك، إذ لو لم يكن كذلك لم يولد الآباء (والأمهات) في الأبناء، ولأصبحت الصورة الأبوية مفقـودة تمـامـاً، وبفقدها تتوقف كل استمرارية في حيـاة الفرد . وعندئذٍ لا يستطيع أن يربط طفولته بحياته الراشدة، فيظل تبعاً لذلك طفلاً من حيث لا يشعر ـــ وهذا الوضع يعتبر أفضـل أسـاس ممكن للعصاب . وعندئذٍ أيضاً يعاني من جميع الأمراض التي يعاني منها محدثو النعمة الذين لا تاريخ لهم، لا فرق إن كانوا أفراداً أو جماعات .

من الطبيـعي أن يـتزوج الأولاد من أبويهـم بمعنى مـا . لأن هذا هـام

سيكولوجياً بمقدار ما هو ضرورة بيولوجيـة أن تُحقن شجرةُ الأجداد بدم جديد إن كان لها أن تنتج سلالة جديدة . فهو يضمن الاستمرارية، وإطالة معقولة للماضي في الحاضر . والضرر لا يتأتّى إلا من الإفراط أو التفريط في هذا الاتجاه .

مادام شَبَهُ الأبوين عاملاً حاسماً، إيجابياً أو سلبياً، في اختيار المحبوب، يظل التحرر من الصورة الأبوية، وبالتالي الطفولة، تحرراً غير تام . على الرغم من أن الطفولة يجب أن تظل موجودة في الشباب من أجل الحفاظ على الاستمرارية التاريخية، إلا أن هذا يجب إلا يكون على حساب المزيد من النموّ . عندما تخبو آخر ومضة من وهم الطفولة ــ وهذا يكون عندما ندلف إلى منتصف العمر ــ يجب أن نعترف أن هذا لا ينطبق إلا على حياة شبه مثالية، لأن كثيرين يظلون أطفالاً حتى قبورهم ــ عندئذٍ يطلع النموذج البدْئي الذي يمثل الرجل الناضج والمرأة الناضجة من الصورة الأبوية : صورة الرجل كما عرفته المرأة منذ بدء الزمان، وصورة المرأة التي يختزنها الرجل في داخله أزلاً .

في الحقيقـة، هناك رجال كثيرون يستطيعون أن يصفوا صورة المرأة التي يحملونها في عقولهم وصفاً يصل إلى حد التفصيلات الجزئية . (قابلت بضع نسوة استطعن أن يعطين صورة تامة عن النموذج البدئي للرجل) . فكما أن الصورة البدئية للأم صورة مركبة من جميع الأمهات السابقات، كذلك أن صـورة الأنيمـة لا تمثلها امرأة بعينها . ويصح هذا إلى درجة تتكشف فيها الصورة عن ملامح متطابقة عند الرجال الذين يختلفون فردياً اختلافاً كبيراً، حتى ليكاد أحدهم أن يعيد إنشاء نموذج محدد للمرأة منها . أبرز السمات التي يتصف بها نموذج الأنيمة انعدام عنصر الأمومة منه . هي الرفيق والصديق في جانبها الملائم، وهي الفاجرة في جانبها غير الملائم . غالباً ما نجد هذه النماذج

موصوفة في منتهى الدقة بكل أوصافها البشرية والشيطانية في القصص الخيالية، كقصة « هي » و« حكمة ابنة » لرايدر هَغَارد، و« الأطلانطيد » لبنوا، وبصورة مجزّأة في الجزء الثاني من « فاوست »، في شخص هيلين . لكن نموذج الأنيمة تعرضه في أبرز ملامحه وأضخمها الأسطورة الغنوصية عن سيمون ماغوس، الذي يظهر صورة كاريكاتورية عنه في أعمال الرسل (8 : 24 — 9) . وفي « حكمة ابنة » لرايد هغارد، حيث نستطيع أن نتأكد من أن ما كان هناك كان استمرارية واعية .

إن غياب العنصر الأمومي يدل على التحرر التام من صورة الأم من ناحية، ومن ناحية ثانية على فكرة العلاقة البشرية الصرْفة التي تفتقر إلى الحافز الطبيعي على التناسل . إن الغالبية العظمى من الناس على المستوى الراهن من الثقافة لا تتقدم إلى ما وراء المعنى الأمومي للمرأة، وهذا هو السبب الذي يجعل الأنيمة لا تنمو إلا قليلاً إلى ما وراء المستوى الطفولي والبدائي للعاهرة . وقد ترتّب على ذلك أن يكون البغاء أحد النواتج المصاحبة الرئيسية التي تنتج عن الزواج المتحضّر . غير أننا نجد في أسطورة سيمون، وفي الجزء الثاني من **فاوست** رموزاً للأنيمة تامة النضج . وهذا النمّو الناضج مرادف للنموّ بعيداً عن الطبيعة . ومشكلة النمو الناضج هذه تمسك بها مُثُل عليا رهبانية مسيحية وبوذية، لكن على حساب الجسد دائماً . فقد أخذت إلاهات وأنصاف إلاهات مكان المرأة البشرية الشخصية التي يفترض أن تكون الحامل لإسقاطات الأنيمة .

هنا أجدني أَمَسّ اقلياً خلافياً جداً، وليس بي رغبة أن أتوغّل فيه إلى أبعد من هذه النقطة . خير لنا أن نعود إلى مشكلة أبسط، أعني المشكلة المتعلقة بكيفية التعرف على وجود مثل هذا النموذج البدئي المؤنث .

مادام النموذج البدئي غير مُسْقَط على موضوع خارج الذات، وبالتالي غير

محبوب أو غير مكروه في موضـوع، فمعنى ذلك أنه مازال متحداً كليـاً مع الفرد، الذي يكون مضطراً في هذه الحالة إلى إخراجه من نفسه . عندئذٍ يعمد الرجل إلى إخراج « أنيمتـه » الخاصـة . ونحن في لغتنا اليومية نتداول كلمة تصف هذا الموقف بجدارة، والكلمة هي « الأنيمية » **animosity** (العداوة، الخصام) . وقد يكون أحسن تفسير لهذه الكلمة « استحواذ الأنيمة » الذي يدل على حالة من الهياج الذي لا ضابط له . وكلمة « الأنيمة » لا تستعمل إلا للدلالة على العواطف غير السارة، لكن الأنيمة ربما تستثير فعلاً عواطف سارةً أيضاً .

إن القدرة على ضبط النفس مَثَلٌ أعلى مذكر، لا يتم تحقيقه إلا بضبط العواطف . والعواطف فعاليات مؤنثة نوعياً . وبما أن الرجل في محاولته بلوغ مثله الأعلى للرجولة يكبت جميع الملامح المؤنثة ــ التي هي في الحقيقة جزء منه كما أن الملامح المذكرة جزء من سيكولوجية المرأة ــ يكبت أيضاً عواطف معينة باعتبارها ضعفاً ذا طابع أُنثوي . وهو إذ يفعل هذا فإنما يراكم عواطف أنثوية في خافيته، حتى إذا انفجر غاضباً فضح وجود كائن مؤنث فيه . وكما نعلم من الخبرة : الرَجلُ الرجلُ (أي المبالغ في الاعتداد برجولته) أكثر الناس وقوعاً تحت رحمة المشاعر المؤنثة . إن هذا قد يفسر لنا التعاظم الشديد في حوادث الانتحار بين الرجال، كما يفسر لنا لماذا تنمّي النسوة مؤنثات جداً قوة وخشونة خارقتـين للعـادة . فلو درسنا باعتناء عواطف غير منضبطة لرجل، وحاولنا إعادة إنشاء الشخصية المحتملة الكامنة تحتها، إذن لوصلنا إلى شخص مؤنـث أسميه « الأنيمة » . وعلى نفس الأساس فهم القدماء روحاً مؤنثاً، أو « نفساً »، أو « أنيمة » .

عند النساء تنقلب القضية . فإذا انفجر « الأنيم » في المرأة، لا يتخذ مظهر

العواطف غير المنضبطة كما هو الحال عند الرجل، بل تروح المرأة تحاجج وتُعاقل . وكما أن عواطف الأنيمة في الرجل استبدادية ومتقلبة، كذلك الحجج المؤنثة غير منطقية وغير عقلية . ولعلنا نستطيع أن نتكلم عن تفكير الأنيم أنه تفكير صحيح دائماً، وأنه يجب أن تكون له الكلمة الأخيرة دائماً، وينتهي دائماً بعبارة « إن هذا هو السبب بالضبط ! » . لئن كانت الأنيمة في الرجل عاطفة غير عقلية، فإن الأنيم في المرأة تفكير غير عقلي .

إلى حد ما وصلت إليه خبرتي، يستطيع الرجل أن يفهم المقصود من الأنيمة بدرجة قريبة من السهولة دائماً . لأنه غالباً ما يكون لديه صورة لها محددة تماماً، حتى ليستطيع أن يميز في مجموعة مختلفة من النساء المرأة الأقرب من نموذج الأنيمة . ووجدت أن الأصل ألاّ تفهم المرأة ما هو الأنيم إلا بصعوبة شديدة، وأنا ما قابلت امرأة قط استطاعت أن تقول لي شيئاً محدداً عن شخصيته . من هذا أخلص إلى أن الأنيم ليس له شخصية محددة على الإطلاق؛ بعبارة أخرى، الأنيم ليس وحدة بل كثرة . يجب أن ترتبط هذه الحقيقة على نحو من الأنحاء بالسيكولوجية النوعية الخاصة بالرجال والنساء . فعلى المستوى البيولوجي، ينصب اهتمام المرأة على أن تحظى برجل، بينما يتجه اهتمام الرجل نحو غزو امرأة، وبسبب من طبيعته قلما يتوقف عند غزوة واحدة . هكذا تلعب شخصية مذكرة واحدة دوراً حاسماً في حياة المرأة، بينما تكون علاقة الرجل بالمرأة أقل تحديداً بكثير، إذ يستطيع الرجل أن يعتبر زوجته كواحدة في جملة نساء كثيرات . وهذا ما يجعله يُلقي توكيداً على الصفة التشريعية والاجتماعية للزواج، على حين ترى المرأة في الزواج علاقة شخصية ليس غير . لهذا السبب، كان الأصل أن تكون واعية المرأة مقيدة إلى رجل واحد، وأن يكون في واعية الرجل ميل إلى الذهاب إلى ما وراء العلاقة

الشخصية ــ وهو ميل يتعارض أحياناً مع كل قيد شخصي . لذلك نتوقع أن تتولى الخافيـة القيـام بالتعويض بواسطـة الأضداد . ويحقق هذا التعويض في الرجل شخص الأنيمة المحدد تحديداً شديداً، كما يحقق هذا التعويض في المرأة الأنيم ذو الأشكال الكثيرة وغير المحدد .

إن الوصف الذي قدّمتُـه هنـا عن الأنيم والأنيمـة لهو وصف موجز اضطراراً . ولعلّي أكون مغالياً في الإيجاز لو أنني وصفت الأنيمة وصفاً يجعلها مجرد صورة بذْئية للمرأة مؤلفة من **عواطف** غير عقلية، ووصفت الأنيم وصفاً يجعله مجرد صورة بذْئية للرجل مؤلفة من آراء غير عقلية . كلا الشخصين (الأنيم والأنيمة) يطرح مشكلات بعيدة المدى، لأنهما شكلان ابتدائيان من تلك الظاهرة النفسية التي سميت منذ الأزمنة البدائية بـ « الروح » . وهما أيضاً سبب تلك الحاجة البشرية العميقة للكلام عن الأرواح والشياطين أصلاً .

هنا بودّي أن أحترس من سوء فهم أخشى أن يقع فيه القارئ . إن مفهوم « الروح » الذي أستعمله الآن قد يكون أشبه بالفكرة البدائية عن الروح، مثلاً « روح ــ با » و« روح ــ كا » عند المصريين، منه بالفكرة المسيحية عنها، هذه الفكرة التي ما هي إلا محاولة لاستنبـاط بنـاء فلسفي من ماهيـة فردية ميتافيزيقية . إن مفهومي للروح لا علاقة له مطلقاً بهذا المفهوم، لأنه مفهوم ظاهراتي صِرْفاً . فأنا لا أريد الانغماس في صوفية سيكولوجية، بل كل ما أريد فعله محاولة أن أفهم فهماً علمياً الظاهرات النفسية الابتدائية التي تكمن تحت الإيمان بالأرواح .

بما أن جملة الحقائق التي تمثلها الأنيمة والأنيم تنطبق أفضـل انطباق على وصف « الروح » الذي وصفتها به جميع الشعوب في كل الأزمنة، فلا عجب أن يأتيا معهما بجوٍّ صوفي ليس قليل الشيوع كلما حاولنا أن ندرس محتوياتهما

عن كتب . كلما أُسْقِطَت الأنيمة أحاطت نفسها رأساً بشعور تاريخي خاص عبّر عنه غوتيه بالكلمات : « في أزمنة غَبَرتْ كنت زوجتي أو أختي » . وكان على رايدر هغارد وبنوا أن يرجعا إلى اليونان ومصر لكي يعبرا عن هذا الشعور التاريخي المِلْحاح .

يا للغرابة، يبدو الأنيم وكأنْ لا وجود له بهذا المعنى الصوفي للتاريخ . كِذْت أقول أنه معنيّ أكثر بالحاضر والمستقبل . ولديه نزعات تشريعية، مفضلاً أن يتكلم بطريقة مفخمّة عن الأشياء كما يجب أن تكون، أو يعطي حكماً قاطعاً على أكثر المسائل غموضاً وخلافيّة، وبصيغة إيجابية يجعل المرأة خالصة من كل تفكير آخر (ولعله باعث على مزيد من الألم) .

مرة أخرى، لا يسعني تفسير هذا الفرق إلا على أساس أنه تعويض بالأضداد . الرجل، في فعاليته الواعية، يعد العدّة للمستقبل ويعمل على خلقه، بينما من السمات الأنثوية نوعياً أن « يهرش » المرء رأسه بحثاً عن مسائل من مثل من هي عمّةُ عمّةِ فلان . لكن هذا الهوس المؤنث بالأنساب هو الذي يبرز بكل جلاء عند رايدر هغّارد، مزخرفاً بعاطفة انكلوسكسونية، وعند بنوا يُقَدِّمُ نفسُ الشيء مع مزيج مُتَبّل من مرض مزمن فاضح . وتحوم بقوة حول أنيمة الرجل تلميحات عن التقمص في هيئة مشاعر غير عقلية، بينما تقبل المرأة أحياناً بصورة واعية بمثل هذه المشاعر إذا لم تُفْرط في وقوعها تحت سيطرة عقلانية الرجل .

يتصف هذا الشعور التاريخي دائماً بعظم الشأن والجبرية، ولذلك يؤدي رأساً إلى مشكلات الخلود والألوهية . حتى « بنوا » العقلاني الشكّاك يصف الذين ماتوا من الحب لا ينال البلى من أجسادهم بل تظل محافظة على رونقها بطريقة من التحنيط فعالة وغريبة، ناهيك عن صوفية رايدر هغارد التي بلغت

ذروتها في « عائشة : عودة هي »، العمل الذي يعتبر وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول .

أما الأنيم الذي لا يتمتع بهذه الصفات العاطفية فيبدو أنه يفتقر كلّياً إلى الجانب الذي أتيت على وصفه، لكنه مع ذلك تاريخي العقل، في جوهره الأعمق، كالأنيمة تماماً . لكننا، لسوء الحظ، نفتقر إلى أمثلة أدبية كثيرة على الأنيم . إذ يبدو أن كاتبات النساء عاجزات عن نوع من التبْصِرة الساذجة، أو هن على الأقل يؤثرن المحافظة على نتائج تبصرتهنّ في طابق آخر، ربما لأنه لا يرتبط به شعور . لا أعرف غير وثيقة حيادية واحدة من هذا النوع، وهي رواية من تأليف ماري هاي، « الكرْم الشرّير » . في هذه القصة البعيدة جداً عن الادعاء يطلع العنصر التاريخي في الأنيم تحت قناع ذكيّ من المؤكد أن المؤلفة لم يكن في نيتها أن تُظهره كذلك .

يتكون الأنيم من مسلمات بَدَريّة apriori تنهض على أحكام غير مدروسة . وجود مثل هذه الأحكام لا يمكن استخلاصه إلا من الموقف الواعي الذي تتخذه المرأة من أشياء معينة . أعرف امرأة أحاطت ابنها باقصى درجات العناية، وأعارته أهمية لم يكن يستحقها قط، مما نجم عنه أن وقع في عصاب بعد أن بلغ سن الرشد . في بادئ الأمر لم يكن من الممكن التعرف على سبب موقفها الذي لم يكن له معنى . غير أن البحث القريب كشف عن وجود دغماطيقا باطنة تقول : « إن ابني هو المسيح الآتي » . هذا مثال عادي جداً على النموذج الواسع الانتشار لدى النساء عن البطل الذي يُسْقِطْنَهُ على الأب أو الزوج أو الابن في هيئة رأي ينظم عندئذٍ سلوك المرأة بطريقة خافية وغير شعورية . والمثال الشهير على ذلك « أنّي بيزانت » التي اكتشفت منقذاً هي أيضاً .

في رواية ماري هاي تدفع المرأة زوجها نحو الجنون بموقفها القائم على الخافية وعلى مُسَــلّمة غير منطوقة مفادها أنه طاغية فظيع يمسك بها أسيرة بنفس الطريقة التي قام بها .... أما الطرف الآخر من التشبيه فقد تركت أمر تفسيره إلى زوجها الذي اكتشف في النهاية الشخص المناسب له في خمسمائة طاغية تواحد معهـم، وأضـاع عقله نتيجة لذلك . لذلك ليس يعوز الأنيمَ العاقلُ التاريخي . لكنه يعبر عن نفسه بطريقة تختلف اختلافاً أساسياً عن الطريقة التي تتبعهـا الأنيمـة . وفي المسـائل الدينية المتصـلة بالأنيم تسود ملكات الحكم والتفكير، تماماً كما تسود ملكات الشعور في حالة الرجل .

أخيراً، بودي أن أبيّن أن الأنيمة والأنيم ليسا هما الشكلين المستقلّين أو « الروحين » الوحيدين في الخافيـة، رغم أنهمـا عملياً الأكثر مباشرة والأكثر أهمية . لكن، بما أنني أود أن أتطرّق أيضاً إلى جانب آخر من مشكلة العقل والأرض، فقد أترك هذا الميدان الصعب من الخبرة الداخليـة البـالغة الخفاء وألتفت إلى الجانب الآخر حيث لا نعود نتلمّس طريقنا بحثاً عن القاع المظلمة التي ينهض عليها العقل، بل نخوض في العالم الأوسع، عالم الأشياء اليومية

كما أن العقل عيّنتُهُ شروط أرضية في سياق التطور، كذلك نجد السياق نفسه يتكرر اليوم أمام أعيننا . لنتصور قسماً كبيراً من أمة أوروبية زرعْناه في أرض غريبة وإقليم آخر . فقد نتوقع واثقين أن تخضع هذه المجموعة البشرية إلى تغييرات نفسية معينة، وربما فيزيائية أيضاً، على مدى بضعة أجيال، حتى بدون أن تمتزج بدماء أجنبية . ولعلنا نستطيع أن نلاحظ في اليهود الذين ينتمون إلى بلدان أوروبيـة مختلفة فروقات بارزة لا تفسـير لها إلاّ من خلال خصـائص الشعوب التي يعيشـون بين ظهرانيْهـا . ليس من الصعب التميز بين يهودي اسباني ويهودي يقطن شمالي أفريقيا، أو بين يهودي ألماني ويهودي روسي . حتى

ليمكننا التميز بين نماذج مختلفة من اليهودي الروسي واليهودي البولوني من نموذج اليهودي الروسي الشمالي والقوزاقي . على الرغم من التشابه العرْقي، هناك فروقات كبيرة غامضة الأسباب . ولعله من أصعب الأمور تحديد هذه الفروقات تحديداً دقيقاً، لكن طالب علم الطبيعة البشرية يشعر بها على الفور .

أعظم تجربة جرت في الأزمنة الحديثة على زرع عرق بشري في أرض غير أرضه كانت استعمار شمالي القارة الأميركية من قبل سكان يغلب عليهم العرق الجرماني . وبما أن الشروط المناخية تختلف اختلافاً كبيراً، فقد نتوقع جميع أنواع الاختلافات عن نموذج العرق الأصلي . والامتزاج بالدم الهندي لا يلعب دوراً لأنه ضئيل جداً . وقد بين « بواس » Boas أن تغييرات تشريحية، خصوصاً في مقاييس الجمجمة، تبدأ في الجيل الثاني . مهما يكن من أمر، فإن نموذج الـ « يانْكي » قد تشكل، وهو شديد الشبه بالنموذج الهندي حتى لقد أبديت، في أول زيارة لي إلى الغرب الأوسط، فيما كنت أرقب العمال يتدفقون منصرفين من أحد المصانع، ملاحظة إلى مُرافقي قلت له فيها أنني ماكنت لأظن أن الدم الهندي موجود في مثل هذه النسبة العالية . أجابني ضاحكاً أنه يريد أن يراهن على أنه لا يوجد ولا نقطة واحدة من دم هندي في جميع هؤلاء المئات من الرجال . كان ذلك لسنوات كثيرة خلت عندما لم يكن لدي مفهوم عن « هَنْدَنة » الأميركيين الغامضة . وقد كان علي أن أعلم بهذا السر عندما اضطررت إلى معالجة كثير من المرضى الأميركيين تحليلياً . عندئذٍ اتضح لي أن ثمة فروقات كبيرة بالمقارنة مع الأوروبيين .

وقد استوقفني شيء آخر أيضاً، ذلكم هو التأثير العظيم الذي تركه الزنوج، وهو تأثير سيكولوجي طبعاً لا يرجع إلى اختلاط الدم . الطريقة العاطفية التي يعبر بها الأميركي عن نفسه، خصوصاً الطريقة التي يضحك بها، يمكن أن

ندرسها أفضل دراسة في الملاحق المصورة من الصحف الأميركية . فالضحكة التي يضحكها تيدي روزفلت، وهي ضحكة لا تُحاكى، نجدها في هيئتها البذئية في الزنجي الأميركي . والمشية الغريبة ذات المفاصل المرتخية، أو تأرجح الوركين الذي كثيراً ما نلاحظه في الأميركيين، هما أيضاً آتيان من قبل الزنوج . والموسيقى الأميركية، وكذا الرقص، مستوحيان من موسيقى الزنوج ورقصاتهم . والتعبير عن الشعور الديني المتمثل في الاجتماعات الصاخبة، والدحروجات المقدسة، وغير ذلك من الممارسات الشاذة، كل ذلك ناتج عن تأثير الزنوج . كذلك السذاجة الأميركية التي تأخذ بمجامع القلوب وفي شكلها المنفّر أيضاً، إنما تستدعي مقارنتها مع طفولية الزنجي . كذلك حيوية الأميركي المتوسط، التي لا تظهر في ألعاب البيسبول وحسب، وإنما في حبه الخارق للكلام على وجه الخصوص ــ أبلغ مثال على ذلك الثرثرة التي لا تنقطع في الصحف الأميركية ــ الذي لا يمكن أن يكون مستمداً من أجداده الجرمان، لأنه أشبه كثيراً بـ « طق الحنك » في قرية زنجية . كذلك الافتقار إلى الخصوصية الذي يكاد أن يكون كلياً، والاندماج في الجماعة التي تلتهم كل شيء، يذكرنا بالحياة البدائية في الأكواخ المفتوحة، حيث التواحد التام مع جميع أفراد القبيلة . وقد بدا أن البيوت الأميركية مشرعة الأبواب في كل الأوقات، تماماً مثلما لا يوجد أسيجة حول الحدائق في المدن والقرى الأميركية .

طبعاً، من أصعب الصعب تقرير مقدار ما قد يرجع من هذا كله إلى معايشة الزنوج، ومقدار ما قد يرجع منه إلى كون أميركا مازالت أمة رائدة على تربة عذراء . لكن مع اعتبار هذين العاملَيْن جملةً، لا يمكننا أن نخطئ التأثير الكبير للزنوج على الشخصية العامة للشعب .

طبعاً نستطيع أن نلاحظ هذه العدوى البدائية أيضاً في بلدان أخرى، وإن كان ذلك ليس إلى نفس الدرجة وفي نفس هذا الشكل . في أفريقيا، مثلاً، يشكل الرجل الأبيض أقلية متناقضة، وقد تعيّن عليه لهذا السبب أن يحمي نفسه من الزنوج عن طريق مراعاة قواعد اجتماعية صارمة، وإلا خضع للتأثير البدائي وفقد هويته . أما في أميركا فالزنجي، بما أنه يعيش في أقلية، ليس له تأثير يمكن وصفه بعدم الملاءمة ــ إلا إذا اتفق أن كان امرؤ مصاب بـ « فوبيا الجاز » (الخوف من الجاز) .

الشيء الذي يسترعي الانتباه أننا لا نلاحظ إلا القليل، أو لا نلاحظ شيئاً، من التأثير الهندي . لكن المشابهات الفيزيونومية التي تقدم ذكرها لا تشير إلى أفريقيا بل هي أميركية بصفة خاصة . هل يصدر عن الجسد رجع (= رد فعل) على أميركا، وعن النفس رجع على أفريقيا ؟ يجب أن أجيب عن هذا السؤال بالقول أن السلوك الخارجي وحده هو الذي يخضع إلى تأثير الزنوج، لكن ما يجري في داخل النفس يجب أن يخضع إلى مزيد بحث .

من الطبيعي أن يلعب الزنوج في أحلام مرضاي من الأميركيين دوراً غير صغير تعبيراً عن الجانب الأقل شأناً من الشخصية . كذلك قد يحلم الأوروبي بمتشردين أو غيرهم ممن يمثلون الطبقات الدنيا . لكن بما أن الأكثرية العظمى من الأحلام، خصوصاً أحلام المراحل الأولى من التحليل، أحلام سطحية، لم أعثر على رموز ذات صلة بالهنود إلا في مجرى تحليلات عميقة وشاملة جداً . والاتجاه التقدمي في الخافية، كما يُعَبَّر عنه في موضوع البطل، يتخيّر الهندي رمزاً له، تماماً كما تحمل قطع نقدية معينة من الاتحاد رأس هندي . إن هذا ضريبة تدفع إلى الهندي الذي كان بغيضاً في وقت ما، لكنه يشهد أيضاً بأن موضوع البطل يتخيّر الهندي شخصاً مثالياً . يقيناً لم يخطر ببال إدارة أميركية أن تفكر

في ضرب قطعة نقدية تحمل رأس زنجي . تفضل الحكومات الملكية رأس ملك رمزاً للبطل، على حين تعتمد الحكومات الديمقراطية رموزاً أخرى كمثل عليا . لقد أعطيت مثالاً مفصلاً عن صورة مماثلة للبطل الأميركي في كتاب « رموز التحول »، وبوسعي أن أضيف عشرات غيره .

البطل هو دائماً تجسيد لأعلى وأقوى ما يتطلع إليه الإنسان، أو هو ما يجب أن يكون عليه هذا التطلع مرفوعاً إلى مرتبة مثل أعلى، وأعلى ما قد يحققه عن طيب خاطر . وإنه لأمر ذو أهمية بالغة أن نعرف نوع التخيل الطليق الذي يكوّن موضوع البطل . في تخيل الأميركي للبطل تلعب شخصية الهندي دوراً رئيسياً . إن مفهوم الأميركي عن الرياضة يذهب إلى أبعد ما تذهب إليه المفاهيم الأوروبية المريحة . فالقسوة والوحشية اللتان تتبدّيان في التدريب الصارم الذي يأخذ الأميركي نفسه به لا يمكن مقارنتهما إلا بالقسوة والوحشية اللتين تتبدّيان في طقوس استلام الأسرار التي يمارسها الهنود . لذلك كان أداء الرياضيين الأميركيين يدعو إلى الإعجاب . في كل شيء يضع الأميركي عليه قلبه فعلاً ندرك لمحة للهندي .. فتركيزه الخارق للعادة على هدف مخصوص، وتشبثه بغايته، وتحمله الذي لا يتزعزع لأعظم المصاعب ـــ في كل هذا تجد الفضائل الخرافية التي يتصف بها الهندي كامل تعبيرها .

إن موضوع البطل لا يؤثر في الموقف العام من الحياة وحسب، وإنما يؤثر في مسائل الدين أيضاً . كل موقف يتخذ صفة الإطلاق فهو موقف ديني، وفي الناحية التي يميل فيها الإنسان إلى منحها صفة الإطلاق، هناك تكون ديانته . لقد وجدت في مرضاي الأميركيين أن شخص البطل عندهم يرتدي قسمات مستمدة من ديانة الهنود . أهم شخص في ديانة الهنود هو الشامان أو الساحر أو محضّر الأرواح . وقد كان الاكتشاف الأميركي الأول في هذا الميدان ـــ

وقد تبنّتهُ أوروبا ــ هو « الروحانيـة »، والثاني « العلم المسيحي » وأشكال أخرى من الشـفــاء العقلي .. والعـلم المسيحي طقس يمارس من أجل طرد الأرواح الشريرة . تطرد عفاريت المرض بتلاوة تعازيم مناسبة تتلى على الجسم الذي استعصى مرضه . أما المسيحية، التي هي نتاج مستوى رفيع من الثقافة، فتُستعمل سحراً شفائياً . لكن العلم المسيحي، رغم فقر محتواه الفاضح، يظل قوة حيــة؛ يتمتع بقـوة مستمـدة من التربة، ويمكنـه تبعـاً لذلك أن يجترح المعجزات التي يُبحث عنها بلا طائل في الكنائس الرسمية .

ليس على وجه الأرض بلد تؤثر فيـه « الطـاقة ــ الكـلمة » أو الصيغة السحـريـة أو الشـعــار أو الإعلان تأثيراً أكبر من تأثيرها في أميركا . نحن الأوروبيين نضحك من هذا، لكننا ننسى أن الإيمان بالقوة السحرية التي تتمتع بها الكلمة يمكنه أن يحرك أكثر من الجبال . المسيح نفسه كان **كلمة** . لقد ابتعدنا عن هذه السيكولوجية، لكنها في أميركا لم تزل حيّة . يبقى علينا أن نرى ماذا سوف تفعل أميركا بها ؟

هكـذا يعرض الأميركي صـورة غريبـة : أوروبا في ســلوك زنجي وروح هندي . يشارك جميع من يغتصبون أرضاً غير أرضهم قدرهم . يؤكد بعض الأوستراليين البدائيين أن الإنسان لا يستطيع أن يغزو أرضاً أجنبية، لأن أرواح أسلاف غريبة قاطنة فيها ما تلبث حتى تتقمص في المولودين الجدد . في هذا التوكيد حقيقة سيكولوجية عظيمة . فالأرض الأجنبية تتمثل الغازي . لكن غزاة شمالي أميركا الشماليـة، خلافاً للغزاة اللاتين الذين غزوا أميركا الوسطى والجنوبية، ظلوا يحتفظون بمستوياتهم الأوروبية في أقسى ما يكون من الطهرانية، رغم أنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا أرواح أعدائهم من الهنود من أن تصير أرواحاً لهم . كل أرض عذراء تسبب على الأقل لخافية الغازي أن تغوص إلى مستوى

سكانها الأصليين . هكذا يوجد في الأميركي فرق بين الواعية والخافية لا نجده في الأوروبي، وتوتر بين مستوى من الثقافة عالٍ إلى أقصى حد من العلوّ في الواعية وبين بدائية في الخافية . هذا التوتر يمنح الأميركي قدرة نفسية هائلة وروحاً لا تتزعزع في بحثها عن المغامرة وحماساً يحسد عليه لا نعرفه نحن في أوروبا . إن مجرد كوْننا مازلنا نمتلك أرواح أسلافنا، وكون كل شيء بالنسبة إلينا منغمساً في التاريخ، يجعلنا على اتصال مع خافيتنا . لكننا واقعون في قبضة هذا الاتصال، ومشْدُودُو الوثاق إلى الخطيئة التاريخية حتى لنحتاج إلى أفدح الكوارث لكي نفك إسارنا ونغير سلوكنا السياسي عما كان عليه لخمسمائة سنة خَلَت . إن صلتنا بالخافية تكبّلنا إلى الأرض وتجعل من الصعب علينا أن نتحرك، وهذا ليس في صالحنا عندما يتعلق الأمر بالتقدمية وجميع حركات العقل الأخرى المرغوب فيها . ومع ذلك لا أريد أن أقدح في علاقتنا مع الأرض الأم الطيبة . لكن المتجذّر في الأرض له معاناته . والانسلاخ عن الخافية وعن شروطها التاريخية يورث الانقطاع عن الجذور . ذلكم هو الخطر الذي يتربص بمن يغزو أرضاً غير أرضه، وبكل من يتولّى ولاء أحادي الجانب أي نوع من أنواع المذاهب والإيديولوجيات، أن يفقد الاتصال مع قاعدة وجوده الأرضية المظلمة الأمومية .

3 ــ معنى علم النفس للإنسان الحديث

كنت دائماً أواجه صعوبة شديدة في جعل معنى علم النفس مفهوماً لدى الجمهور الواسع. وترجع هذه الصعوبة إلى زمن كنت فيه طبيباً في مشفى للأمراض العقلية. وقعت يومئذٍ، شأن كل طبيب نفسي، على اكتشاف مدهش هو أننا لسنا نحن الذين نحمل آراء صحيحة عن الصحة والمرض العقلي، بل جمهور العامة الذي يعلم دائماً خيراً مما نعلم بكثير. فهم ينَبِّئوننا أن المريض لا يتسلق الجدران، ويعلم أين هو، ويتعرف على أقربائه، ولم ينسَ اسمه، وبالتالي ليس مريضاً؛ بل كل ما هنالك أنه يعاني من كآبة قليلاً، أو أنه مهتاج قليلاً، وأن تشخيص طبيب النفس أن الرجل يشكو من هذه العلة أو تلك غير صحيح بالمرَّة.

هذه الخبرة الكثيرة الشيوع تُدخِلُنا في ميدان علم النفس بالمعنى المخصوص للكلمة، حيث تكون الأشياء أدهى وأمرّ. كل أحد يظن أن علم النفس هو ما يعلمه عن نفسه، وما يعلمه عن نفسه يعلمه خيراً مما يعلمه عن كل شيء آخر. فعلم النفس هو دائماً علمه هو بنفسه التي لا يعلمها أحد غيره، وفي نفس الوقت أن علمه بنفس كل شخص آخر. فهو يحسب أن تكوينه النفسي الخاص به هو التكوين العام، وإن كل شخص هو جوهرياً مثل كل شخص آخر، أي مثل نفسه. فالأزواج يحسبون هذا في زوجاتهم، والأبناء في الآباء. هكذا يبدو الأمر كما لو أن كل أحد يستطيع الوصول مباشرة إلى ما يجري في

داخله، وأنه على معرفة صميمية ووافية به تسمح له بإصدار رأي فيه، كما لو أن نفســه الخاصــة به نوع من نفس رئيسية Master__Psyche تقاس عليها النفوس جملةً وتفصيلاً، وتخوّله أن يحسب وضعه الخاص هو القاعدة العامة . والناس تَعْرُوهُم دهشة بل حتى ليرتاعون عندما لا تصلح هذه القاعدة البادية الوضـوح ــ يكتشفون أن شخصــاً آخر يختلف عنهـم فعلاً . عموماً، لا يشعرون أن هذه الفروقات غريبة على كل حال، ناهيك عن جاذبيتها، بل هي في نظرهم إخفاقات ممقوتة يصعب احتمالها، أو أخطاء لا تطاق يجب شجبها . ويبدو الفرق الواضح باعثاً على الألم كما يبعث على الألم خرق نظام طبيعي، أو غلطة صـادمة يجب تصحيحها في أسرع ما يمكن، أو مخالفة تستوجب ما تستحقه من قصاص .

هناك فعلاً نظريات نفسية مقبولة على نطاق واسع تبدأ من مسـلّمة أن النفس البشرية هي نفسها في كل مكان، وأنه يمكن تفسيرها تبعاً لذلك على نفس النحو بصرْف النظر عن الظروف المحيطة . غير أن الرتابة المروّعة التي تفترضها هذه النظريات ينقُضُها أن الفروقات النفسية الفردية موجودة فعلاً وأنهـا قابلة لمـا يكـاد لا يُحصى من المبـاينـات . أضف إلى هذا أن أحدى النظريات تفسر عالم الظاهرات النفسية في صيغة الغريزة الجنسية، والأُخرى في غريزة السيطرة . وكان من نتيجة هذا التضاد بين النظريتين أن تمسكت كل منهما أشد التمسك بمبدئها وأبدتْ ميلاً واضحاً إلى إقامة نفسها مصدراً وحيداً للخـلاص ولا شـيء غيرها . لكن على الرغم من أن أتبـاع هاتين النظرتين يبـذلون أقصى ما في وسعهـم في تجاهل وجود أحداهما للأخرى، فإن هذه المواقف المتطرّفة لا تفعل شيئاً من أجل حلّ التناقض القائم بينهما . ومع ذلك فـإن الجواب على اللغـز بسـيط إلى حدّ السخـافة . والجواب هو أن كلتـا

النظريتين صحيحة بمقدار ما تصف كل منهما السيكولوجيا التي تشابه سيكولوجية أتباع كل منهما . بل لعلنا يمكننا القول مع غوتيه واثقين : « إنما يباري الروح من يفهمها » .

عَوْداً إلى موضوعنا . لننظر عن كثب في الانحياز الذي يستولي على ذوي العقول البسيطة، القائم على فكرة أن كل شخص سواهم هو مثلهم . فعلى الرغم من أن الفروقات النفسية مسلّم بها عموماً من حيث هي إمكانية نظرية، إلا أننا في التطبيق العملي ننسى دائماً أن الشخص الآخر يختلف عنا وأن له فكراً مغايراً، وشعوراً مغايراً، ورؤية مغايرة، وأنه يحتاج إلى أشياء مغايرة كل المغايرة . حتى النظريات العلمية ــ كما رأينا ــ تبدأ من مسلّمة أن الحذاء يقرص كل أحد في نفس المكان . بالإضافة إلى هذا الخصام المسلّي الذي يجري فيما بين علماء النفس، هناك مسلّمات أخرى تنادي بالمساواة، وهي مسلّمات ذات طابع اجتماعي وسياسي، وهي أشد خطراً، لأنها تنسى وجود النفس الفردية من الأساس .

بدلاً من أن أضيّق على نفسي، في غير ما هدف، بهذه الآراء التي تدل على عقل ضيّق ونظر قصير، رحت أتساءل لماذا كان وجودها أصلاً، وحاولت أن اكتشف أسبابها . وقادني البحث إلى درس سيكولوجية الأقوام البدائية . وقد دُهشت مدة طويلة عندما وجدت في الذين ينحازون كثيراً إلى مذهب التماثل النفسي عند جميع الناس سذاجة وطفولية . في المجتمع البدائي نجد هذا المذهب لا يقف عند الكائنات البشرية، بل يمتد حتى يشمل جميع أشياء الطبيعة من حيوان ونبات، وأنهار وجبال، وهلم جرّاً . في هذه الأشياء جميعاً شيء من سيكولوجية الإنسان، حتى الشجر والحجر يستطيع النُّطْق . وكما أن في البشر من لا تنطبق عليهم القاعدة العامة، ويكرّمون بوصفهم سحرة وساحرات،

شيوخاً وعرّافين، كذلك إن في الحيوان ذئاباً ــ أطبّاء، وطيوراً ــ أطباء، ومستذئبين وما شبه، تمنح ألقاب شرف كلما تصرّف أحدها بطريقة تخرج عن المألوف، وتفسد المذهب المسلم به ضمناً، القائم على أساس تماثل النفوس . واضح أن هذا الانحياز أثر ــ لكنه قوي جداً ــ من إطار بدائي للعقل ينهض أساساً على واعية غير متمايزة إلى درجة كافية . الواعية الفردية، أو الواعية الأنيّة، هي نتاج متأخر في مسيرة تطور الإنسان، وفي المجتمعات البدائية التي مازالت موجودة حتى الآن بلغ ضعف الواعية مبلغاً جعل كثيراً من القبائل لا تعطي نفسها اسماً يميزها من غيرها من القبائل . مثلاً، في شرق أفريقيا، صادفت قوماً يدعون أنفسهم « الناس الذين هناك » . هذه الواعية الجماعية البدائية مازالت تعيش في واعيتنا العائلية، وغالباً ما نجد أفراد أسرة ما لا يستطيعون أن يتكلموا عن أنفسهم إلا إذا دُعوا بهذا الاسم أو ذاك ــ الأمر الذي يبدو كافياً تماماً للشخص المعنيّ .

لكن الواعيةالجماعية التي يتبادل فيها الأفراد التغير والتغيّر ليست مع ذلك في مستوى أدنى مستويات الواعية، لأنها تَبِيْنُ، على الرغم من ذلك، عن آثار من التمايز . في أحطّ المستويات بدائية نجد نوعاً من الواعية المعمّمة أو الكونية، تصاحبها غيبوبة تامة للذات Subject . على هذا المستوى، لا وجود للحوادث . وأما الأشخاص الفاعلون فلا وجود لهم .

لذلك إن مسلّمتنا التي تقوم على أن ما يسرّني لا بد وأن يسرّ كل شخص سواي لهي بقية أو أثر من ذلك الليل البدْئي، ليل الخافية، عندما لم يكن ثمّة فرق ظاهر بين « أنا » و« أنت »، وعندما كان كل أحد يفكر ويشعر ويتصرف بنفس الطريقة . فلو حدث ما يُظهر أن شخصاً كان ذا عقل مغاير (سائر أفراد الجماعة)، لأدّى ذلك إلى اضطراب يعم الجماعة على الفور . لا

شيء يَهيجُ الذعر بين البدائيين كما يَهيجُهُ شيء يخرج عن المألوف؛ سرعان ما يوجسون منه شراً ويرون فيه خطراً يتهددهم . هذا الرجع البدائي مازال حيّاً فينا نحن أيضـاً : سرعان ما نتخذ موقفاً عدوانياً عندما لا يشـاطرنا شخص معتقداتنـا ! نشعر بإهانة عندما يجد شخص فكرتنـا عن الجمال باعثة على المقت . ومازلنا نضطهد كل من يفكر تفكيراً مختلفاً عنا، ومازلنا نحاول أن نفرض آراءنا على غيرنا، وأن نهدي الكفار المساكين (إلى الإيمان الصحيح) لكي ننقذهم من نار جهنم التي لا ريب تتربّص بهم، ومازلنا جميعاً نخاف خوفاً لا حدود له من الوقوف وحدنا مع معتقداتنا

المساواة النفسية بين جميع الناس مسلّمة غير منطوقة، مستمدة أصلاً من غياب الفرد عن الشعور بنفسه . في ذلك العالم الضارب في أعماق الزمان لم يكن ثمة واعية فردية، بل نفس جامعة فقط ظهر منها تدريجياً واعية فردية في المستويات العليا من التطور . والشرط اللازم لوجود واعية فردية اختلافها عن الواعيات الأخرى . ولعلنا نستطيع تشبيه سياق تطور الواعية بصاروخ ينطلق من الظلام وينحل زخّاً من الأنجم ذات الألوان .

علم النفس، بما هو علم تجريبي، ذو نشـأة حديثة جداً . لم يبلغ بعد الخمسـين عاماً من عمره، ولذلك فهو مازال في القماطات . وقد منعه من الولادة في وقت أبكر مسلّمة المساواة الآنفة الذكر . من هذا نستطيع أن نرى مقدار ما هو عليه من صغر أي نوع من الواعية المتمايزة . فقد شرعت تحبو لتوّها خارجة من سباتها الطويل، في تثاقل وخُرْق تأخذ علماً بوجوده . ولعل من الوهم أن نتصور أننا قد وصلنا إلى شيء شبيه بمستوى عال من الواعية . فواعيتنا الراهنة ما برحت مجرد طفل بدأ الآن يقول « أنا » .

لقد كان أعظـم خبرات حيـاتي اكتشـافي مبلغ عظم الفروق في نفوس

الناس . فلو لم تكن المساواة الجماعية حقيقة أوّلية، أي الأصل والرحِم لجميع النفوس الفردية، لكانت وهماً هائلاً . لكن على الرغم من واعيتنا الفردية، لا جدال في بقائها واستمرارها بما هي الخافية الجامعة ـــ البحر الذي تمتطي متْنه الأنيّـةُ كالسفينـة . لهذا السبب أيضـاً، لم يضع شيء قط من عالم النفس البدْئي . كما أن البحر يمدّ ألسنتَهُ بين القارات ويلتفّ حولها كالجزر، كذلك تضغط خافيتنـا الأصـلية من حوالي واعيتنا الفردية . في كارثة المرض العقلي يغمر مدُّ العـاصفـة البحرية الجزيرةَ ويبتـلعهـا عائداً بها إلى الأعماق . وفي الاضطرابات العُصـــابيـة، يوجد على الأقل انفجـار سدود، وتغدو الأراضي المنخفضـة المثمرة بالفيضـان يباباً . والمعصوبون جميعاً سكان شواطئ، وهم أكثر النـاس عرضـــة لأخطـار البحر . أما الذين يُدْعَوْن بالنـاس الطبيعيين فيعيشون في الداخل، على أرض مرتفعة يابسة، قريباً من البحيرات والجداول الهادئة . ما من طوفان مهمـا بلغ ارتفاعه يصـل إليهم، والبحر الذي يطوق اليابسة بعيد جداً عنهم حتى لينكرون وجوده . في الحقيقة، قد يتواجد شخص مع أنيّته حتى ليفقد الرابطة العامة مع البشرية، وينقطع عن جميع الناس . وبما أن كل شخص لا يريد أن يكون مثل كل شخص آخر، فإن هذه المواحدة عامة الحدوث . ذلك أن الأنانية البدائية، من ناحية ثانية، قاعدتها الدائمة أنها ليست أبداً هي « أنا » التي يجب أن تتغير، بل دائماً الفتى الآخر .

يحيط بالواعية الفردية بحر الخافية الغدار . ولهذه الواعية التي تخصّنا مظهر الاستقرار والثقة، لكنها في الحقيقة شيء هش وتقوم على أسس قلقة جداً . وفي الغالب لا نحتاج إلى أكثر من هياج شديد حتى ينقلب ميزان الواعية الشديد الحســاسيـة .. والكنايات التي نستخدمها في كلامنا تنبئنا بذلك . نقول : « خرج عن طوره غضباً »، « نسي نفسه تماماً »، « لم أستطع التعرف عليه »،

« عبر فيه شيطان »، إلخ ..، شيء يجعلك « تخرج من جلدك »، « يسوقك إلى الجنون »، حتى « لا تعود تعرف ما أنت فاعل » . جميع هذه العبارات المألوفة تبين مقدار السهولة التي تتمزق بها واعيتنا الآنيّة بتأثير الانفعالات . ولا تتبدّى هذه الاضطرابات في الحالات الحادة فقط؛ غالباً ما تكون مزمنة ويمكنها أن تحدث تغييراً دائماً في الواعية . نتيجة لهذا الهيجان النفسي تغوص أجزاء كاملة من وجودنا في الخافية وتتوارى عن السطح سنوات وعقوداً . والتغييرات الدائمة التي تطرأ على الشخصية ليست أمراً غير شائع . لذلك نقول، ونحن على حق، بعد شيء من مثل هذه الخبرة، أن شخصاً هو « إنسان متغير » . ولا تحدث هذه الأشياء لأناس من ذوي إرث رديء أو لأناس معصوبين، وإنما لأسوياء أيضاً . والاضطرابات التي تنجم عن الانفعالات نعرفها فنياً بأنها « ظاهرات انفصال » Phenomena of dissociation، تدل على انشطار نفسي . وفي كل نزاع نفسي يمكن أن نميز انشطاراً من هذا النوع، وقد يذهب بعيداً حتى ليهدد بنية الواعية المبعثرة بالتفسخ التام .

لكن، حتى سكان الداخل، سكان العالم السوي الذين ينسون البحر، لا يعيشون على أرض ثابتة . فالتربة سهلة التفتت حتى أن البحر يمكنه في كل لحظة أن يغمر الصدوع القارّية ويعزلها عن محيطها . أهم « أخطار الروح »* هذه، كما تُسمى كذلك فنياً، هي « ضياع الروح »** و« الاستحواذ »***

---

* The perils of the soul.

** Loss of soul.

*** Possession.

كلتا الظاهرتين ظاهرة تحلل أو تفكك dissociation . في الحالة الأولى يقول المريض أن روحاً خرجت منه وضلّت بعيداً عنه، وفي الثانية أن روحاً غريبة سكنتـه وحلّت فيـه، عموماً في هيئة لا تبعث على السرور . قد تبدو هذه الطريقة من صياغة الحالة غريبة، إلا أنها تصف وصفاً دقيقاً تلك الأعراض التي ندعوهـا اليـوم بظـاهرات التفكك أو الانفصـال، أو حـالات قريبـة من السكيزوفرانيا (= الفصام) . لكنها ليست أعراضاً مَرَضِية صِرْفة، لأننا نجدها كذلك في الأشخـاص الأسوياء . فقد تتخذ هيئة تقلبات في الشعور العام بالصحة، وتغيرات غير عقلية في المزاج، وانفعالات لا يمكن التنبؤ بها، وقرف مفاجئ من كل شيء، وعطالة نفسية، وهلمّ جرّاً . حتى الظاهرات القريبة من الفصـام، التي تتطـابق مع الاستحواذ البدائي، يمكن ملاحظتهـا في النـاس الأسوياء أيضاً . فهؤلاء أيضاً غير معصومين من شيطان الهوى؛ وهـم أيضاً مؤهلون لأن « يركبهـم » خبـال أو رذيلة أو اعتقاد أحادي . فهذه الأشياء جميعاً تحفر فجوة عميقة بينهم وبين الذين أحلّوهم من نفوسهم المكانة الأرفع، وتخلق في نفوسهم انشطاراً أليماً .

يشعر البدائي أن انشطار النفس شيء غير ملائم وأنه شيء مَرَضيّ، تماماً كما نشعر نحن . والفرق الوحيد هو أننـا نسميه نزاعاً أو نرفزة أو انهياراً عقلياً . الانسجـام غـير المنقطع بين النبـات والحيوان والإنسـان والله، مرموزاً إليـهِ بالفردوس، ليس بدون هدف وَضَعَتْـهُ قصـة « الكتاب المقدس » في صميم بداية كل تطور نفسـي، وأعلنت أن أول انبثـاق لفجر الواعيـة ـــ « سوف تكونان كالآلهة، عارفين الخير والشر » ـــ كان خطيئة مميتة . هذا، ولا بد أن يبدو تحطيم الوحدة الإلهية للواعية التي سادت الليل الأوّلي ـــ لا بد إلا أن تبدو خطيئـة للعقـل السـاذج . فقد كان هذا الفعل هو التمرد اللوسيفيري

(الشيطاني الذي يرافق سطوع نور العقل) من قبل الفرد على **الواحد** . لقد كان عملاً عدائياً من قبل التنافر على الانسجام، وانفصالاً عن اندماج الكل بالكـلّ . لذلك لعن الله الحيّة قائلاً : « وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسـلك ونسـلها . هـو يسحـق رأسـك وأنت تسحـقـين عقبـه » (تكوين 3 : 15) .

ومع ذلك، فقد كان بلوغ الوعي أغلى ثمرة أعطتها شجرة المعرفة، إذ كانت السلاح السحري الذي وهب الإنسان نصراً على الأرض، والذي نرجو أن يمنحه نصراً بعدُ أعظمَ على نفسه .

أن يعني الوعي الفردي انفصـالاً ومعارضةً، إن هذا شيء خَبِرَهُ الإنسان مرّاتٍ لا حصر لها على مدى تاريخه الطويل . وكما أن زمن الفصام للفرد هو زمن للمرض، كذلك هو في حياة الأمم . ليس يصعب علينا أن نعترف أن زمننـا هذا هو زمن فصـام ومرض . فالأحوال السياسية والاجتماعية، تفتت الدين والفلسفة، المدارس المتخاصمة في الفن الحديث والسيكولوجية الحديثة ــ كل ذلك له معنى واحد بهذا الخصوص . ثم هل يشعر أحد عنده أدنى حس بالمسؤولية بنوع من الرضا عن هذا التحول في مجرى الأحداث ؟ لو كنا مخلصين، لكن سلّمنا بأن ما من أحد يشعر بتمام الرّضا في عالم اليوم، الذي ما ينفك يبعث على السخط . إن كلمـة « أزمـة » (= كْريزا)، وكثـيراً ما نسمعها، لهي تعبير طبي ينبئنا دائماً بأن المرض قد بلغ ذروة خطرة .

عندما وعى الإنسان نفسه والعالم، انغرست في روحه بذرة مرض الفصام، لأن الوعي هو أعظم الخير وأعظم الشر في وقت واحد . من الصعب أن نقدّر مرض العصر الذي نعيش فيـه . لكن لو عدنا إلى تاريخ الإنسـان المَرَضيّ، لوجدنا أن البشرية قد تعرّضت لنوبات مَرَضية من اليسير رَصْدُها . لقد كان

من أسوأ الوافدات التي أصابت الإنسان ذلك التفتيت الذي انتشر في جميع أنحاء العالم الروماني في القرون الأولى التي تلت ميلاد المسيح . الفصام الذي حل بإنسان ذلك العصر عبّر عن نفسه في انقسام لا مثيل له طالَ الشروط السياسية والاجتماعية، وأحدث شقاقاً في الدين والفلسفة، وانهياراً للفنون والعلوم يبعث على الرثاء . ولو نظرنا إلى بَشَرِيّة يومئذٍ نظرَتنا إلى إنسان واحد، لألفينا أمامنا شخصاً عالي التمايز بعد أن سيطر على بيئته في ثقة شديدة بالنفس، انقسمت نفسه في سعيها وراء مشاغلها ومصالحها المتفرقة، فنسي أصوله ومأثوراته، حتى فقد كل ذكرى له عن نفسه السابقة، بحيث أضحت تبدو له آناً شيئاً وآناً شيئاً آخر . وبذلك يقع في خصام مع نفسه لا شفاء منه . ثم يفضي به الخصام إلى حالة من الضعف والهزال تحمل العالم الذي كان سيطر عليه من قبل على اختراق دفاعاته بحيث يجتاحه كالطوفان المدمّر ويأتي على البقية الباقية من كيانه .

بعد أن أنفقت السنين الطوال في الأبحاث النفسية، تشكّل تدريجياً في نفسي شيء، كما قد تشكل في أذهان غيري من الباحثين، هو البديهية الأساسية التي تفيد أن ظاهرة نفسية ما يجب ألا يُنظر إليها أبداً من جانب واحد فقط، وإنما من الجانب الآخر أيضاً . فقد أظهرت الخبرة أن لكل شيء جانبين على الأقل، وأحياناً جوانب كثيرة . وحكمة دزْرائيلي القائلة بأنه يجب ألا نُفرط في إيلاء الأهمية للأشياء الهامة، وأن الأشياء غير الهامّة ليست غير هامّة جداً كما قد تبدو لنا ـــ إن هذه الحكمة هي صياغة أخرى لنفس الحقيقة . وقد تكون صياغة ثالثة لهذه الحقيقة تلك الفرضية القائلة بأن كل ظاهرة نفسية فإنّما يعوّضها ضدُّها، وفقاً للمثل القائل « الأطرافُ تَتَماسُّ »، أو « ما من شقاء بلغ من الشدة مبلغاً عظيماً ليس يأتي منه خير » .

بذلك يكون مرض الفصام الذي نزل بعالمنا هو في نفس سياق معافاة، بل هو ذروة مدة الحمل التي تنذر بآلام المخاض . إن زمناً فصامياً كالذي ساد أيام الإمبراطورية الرومانية لهو في نفس الوقت زمن انبعاث . ليس من غير سبب نؤرخ عهدنا منذ عصر أوغسطس، لأن هذا العصر رأى ميلاد الشخص الرمزي للمسيح الذي كان المسيحيون الأوائل يتوسلون إليه بواسطة « **السمك** »، و« **الحاكم** » الذي يسود « **دهر الحوت** » الذي كان يومئذ في بدايته . مثل معلم الحكمة في الأسطورة البابلية، أوانّس Oannes (ولعلّه : يونس)*، طلع المسيح من عباب اليم، من الظلمات الأولى، بادئاً حقبة من تاريخ العالم ومُنهياً حقبةً أخرى . صحيح أنه قال : « ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً » . لكن الذي يحدث الانقسام يخلق الاتحاد في نهاية المطاف . لذلك كان تعليمه تعليم حب يوحّد الكل .

الفجوة الزمانية التي تفصلنا عن ذلك العصر تجعلنا في الموقع الملائم الذي يتيح لنا رؤية هذه الحوادث التاريخية بوضوح شديد . فلو كنا نعيش في تلك الأيام، لربّما كنا من جملة الكثيرين الذين لم يأبهوا لها . الإنجيل والأمداد البهيجة لم يكن يعرفها إلا القلة القليلة؛ كان كل شيء على السطح يتخذ هيئة السياسة والاقتصاد والرياضة . لقد حاول الدين والفلسفة تمثل الثروات الروحية التي كانت تتدفق على العالم الروحاني آتية إليه من الشرق الحديث العهد بالغزو الروماني . والذين لاحظوا حبة الخردل التي كان مقدراً لها أن تغدو شجرة عظيمة كانوا قلة قليلة .

في الفلسفة الصينية الكلاسيكية مبدأ ن متضادان، « يانغ » الساطع النور،

---

* من تدخّلي — المترجم .

و« ين » المظلم . وتقرر هذه الفلسفة أنه كلما بلغ أحد المبدأين أعلى قوّته، يكون المبدأ المضاد يضطرب كالجرثوم في داخله . هذا القول صياغة أخرى للقانون السيكولوجي الذي يقوم على مبدأ التعويض بالضد الداخلي . وكلما بلغت حضارة أعلى ذروة لها، بدأت حقبة من الانحلال، إن عاجلاً أم آجلاً . لكن السقوط الذي لا معنى له ولا رجاء منه بحسب الظاهر، ويبدو في حالة من الفوضى بلا غرض ولا هدف، يملأ المراقب بالمقت واليأس، لكنه ينطوي مع ذلك على جرثومة نور جديد تنبثق من قلب الظلمة . لكن، لنرجع لحظةً إلى محاولتنا الأولى التي أنشأنا فيها فرداً واحداً من حقبة الانحلال الكلاسيكية . لقد حاولت أن أبيّن كيف حصل تفككه سيكولوجياً، وكيف فقد في نوبة فاجعة من الضعف سيطرَتَه على البيئة، ثم وقع تحت رحمة القوى التدميرية . ولْنفترضْ أن هذا الإنسان جاءني يلتمس المشورة، عندئذ يكون تشخيصي لحالته كما يلي : « إنك تعاني من فرْط توتُّر ناتج عن فعالياتك الكثيرة وعن توجهك الانبســاطي غير المحدود . لقد أضعت رأسك في كثرة وتعقيد التزاماتك الإنسانية والشخصية والمهنية . أنت نوع من إيفار كروجر*، الممثل النموذجي للروح الأوروبي الحديث . يجب أن تدرك، سيدي العزيز، أنك تسعى سعياً حثيثاً نحو الكلاب » .

ولسوف يكون إدراكه هذا بالغ الأهمية له، لأن في المرضى ميلاً ضاراً إلى المضيّ في التشوش والاختلاط بنفس الطريقة القديمة، حتى ولو ثبت لهم عدم جدْواها منذ زمن طويل، مما يزيد في تفاقم وضعهم . لا جدوى من الانتظار .

---

* مالِيّ سويدي (1880 — 1932)، عرف بلقب « ملك المباراة »، قادته مضارباته إلى الانهيار المالي فالانتحار .

لذلك ينهض على الفور السؤال التالي : « ماذا يجب عمله ؟ » .

إن مريضنــا رجل ذكي؛ جرّب جميع الأدوية المسجلة، من ناجعة وغير نـاجعـة، وكل أنواع الحِمْيـة، وجميع نتف النصــائح التي قدّمهـا له الأناس الأذكياء . لذلك يجب أن نمضي معه كما نمضي مع « تيل يولذشبيغل »، الذي كان يضحك كلما مضى في الطريق صعوداً، ويبكي كلما هبط نزولاً، في تحدٍّ صارم للحس السّليم الشائع . لكن تحت ثياب الأحمق، كان يختبئ فيه رجل حكيم : عندما كان يصعد كان يبتهج بالنزول الآتي .

يجب أن نلفت مريضنا إلى المكان الذي تنمو جرثومة الوحدة في داخله، مكــان الولادة المبـدعـة، التي هي أعمق سبب لجميع أنواع الانشـقـاقات والتصدعات والتشيّعات على السطح . الحضارة لا تَفْسُد بل تولد من جديد . في القرون الأولى من الحقبة المسيحية، كان بوسع امرئ ذي تميز أن يصيح بيقين لا يتزعزع وسط المؤامرة السياسية والمراهنة الوحشية على عبادة القيصر الذي أسكرتْه خمرة سيرْك العالم الروماني : « جرثومة العهد القادم قد ولدت في الظلمة لتوّها، خلف كل هذا التخبط الذي لا هدف له؛ أنْتَشتْ بزرة الشجرة التي سـوف تظلل الأمم من « توله » Thule في أقصى الغرب حتى بولونيا، ومن جبال الشمال حتى صقلية، وتوحّدها في إيمان واحد وثقافة واحدة ولغة واحدة » .

ذلك هو القانون السيكولوجي ! يقيناً إن مريضي لن يصدق ولا كلمة واحدة من هذه الأقوال . في أقل الأحوال ربما أعرب عن رغبته في تجربة هذه الأشياء بنفسه . وهنا تبدأ المصاعب، ذلك أن التعويض لا يظهر إلا في حيث تكون توقعاتنا الأقل، وفي حيث تبدو الأقل وضوحاً، إذا نظرنا إلى الأمر نظرة موضوعية. لنفترض الآن أن مريضنا ليس ذلك التجريد الشاحب من حضارة

انقرضت منذ زمن بعيد، بل إنسان من لحم ودم يعيش في يومنا هذا، شاء له سوء حظه أن يكون ممثلاً نموذجياً لثقافتنا الأوروبية الحديثة . عندئذ نجد أن نظريتنا التعويضية لا تعني له شيئاً . ونجد أنه يعاني أكثر من كل شيء آخر من مرض معرفته لكل شيء بصورة أفضل؛ ما من شيء لا يستطيع أن يصنفه ويضعه في دُرْجه الصحيح . أما نفسه فهي من اختراعه، تتبع إرادته، وتطيع عقله . وإذا اتفق وأن ظهرت عليها أعراض مَرَضية، من مثل حالات قلق، وأفكار متسلطة، فهي عندئذ أمراض قابلة للتشخيص سريرياً، لها أسماء علمية واضحة كل الوضوح . لا يعلم شيئاً عن النفس بما هي خبرة أصلية لا يمكن أن ترتد إلى شيء آخر سواها، ولا يعلم شيئا عما أتكلم عنه، لكنه يعتقد أنه قد فهمه تماماً . أكثر من ذلك، يدبّج المقالات ويؤلف الكتب يبدي فيها حسرته من شرور الـ « سيكولوجيزم » * .

هذا النوع من العقلية، التي تتحصن خلف ستار صفيق من الكتب والصحف والآراء الاجتماعية والانحيازات المهنية — هذا النوع من العقلية لا يمكن الجدال معه . لا شيء يمكنه أن يخترق دفاعاته، حتى ولا تلك الجرثومة الصغيرة من الجديد الذي قد يجعله في وحدة منسجمة مع العالم ومع نفسه . لقد بلغ من ضآلته وهزليته مبلغاً يتخلى معه عن الروح على الفور في سبيل أتفه الأشياء . إلى أين، إذن، ينبغي لنا أن نقتاد مريضنا لكي نعطيه على الأقل بصيصاً يدله على شيء مختلف، شيء يعدل وزنُه وزنَ العالم اليومي الذي يعرفه أكثر مما ينبغي ؟ يجب أن ندلّه، بالسير أولاً على طريق ملتوية، على زاوية في نفسه، مظلمة، تافهة إلى درجة مضحكة، عديمة الأهمية، ثم السير في طريق

* مذهب يفسر التاريخ من زاوية علم النفس .

مهجور منذ زمن بعيد يفضي إلى أطول وهم معروف ... تلك الزاوية من النفس هي **الحلم**، الذي ما هو ــ في نظره ــ غير شبح ليلّي غريب، سريع التلاشي، والطريق هو فهم الأحلام .

لسوف يصرخ المريض ساخطاً مع فاوست :

إن دجل الساحرة يثير قرف نفسي !
هل هذا وعدك إذن، بأن أشفى
بتأثير هذه النصيحة الملتوية في هذا الثقب المجنون،
في الحقيقة بتأثير عجوز شمطاء ملهمة ؟

....

ألا تستطيع أن تنقع لك صديداً ؟

عن ذلك سوف أجيب : « أَلَمْ تجرِّبْ بعدُ دواء آخر ؟ ألم تَرَ بنفسك أن جميع جهودك لم تَقُدْك إلا إلى الدوران في حلْقة، رجوعاً إلى فوضى حياتك الراهنة ؟ لذلك من أين سوف تحصل على وجهة النظر الأخرى، إن لم يمكنك العثور عليها في أي مكان في عالمك ؟

هنــا يجمجــم مغيستوفيـل موافقـاً، « ذلك هو المكـان الذي تلج منـه الساحرة » . بذلك يمنح سر الطبيعة التواءه الشيطاني، وينحرف بالحقيقة التي تفيد بأن الحلم رؤية داخلية، » غامضة وإنْ في وضح النهار » . الحلم باب مُزَيَّقٌ قليلاً في أعمق فجوات الروح وأكثرها سرّية؛ كوّة في الليل الكوني الذي كان نفْساً مهما بلغ امتداد الوعي، ذلك لأن الواعية منعزلة؛ تفصل وتميّز، لا تعرف إلا الجزئيات، ولا ترى إلا ما يمكن اتصاله بالأنية؛ جوهرها تحديد، حتى ولو وصــلت إلى أبعد السُّدُم فيما بين النجوم . كل الواعية تفرّق؛ لكن في الأحلام نرتدي شَبَهَ ذلك الإنسان الأكثر عالمية، والأكثر حقيقية، والأكثر

خلوداً، الإنسان القابع في ظلام الليل البذْئي . هناك لايزال هو لكل والكل فيه، لا يمكن تمييزه من الطبيعة، متجرد من أنَيوِيّة egohood .

من هذه الأعماق الموحدة للكل، يطلع الحلم، لاشيء أكثر منه طفولية وغرابة وحياداً أخلاقياً . كالزهرة براءةً وطُهراً، حتى لتحمرّ خجلاً من الغش الذي يسود حياتنا، لذلك لا عجب أن يعتبر الحلم، وهو الذي أثر في جميع الحضارات القديمة، رسالةً من الآلهة . بقي على عقلانية عصرنا أن نفسر الحلم بأنه بقايا من مخلّفات النهار، يتساقط كالفتات في عالم الشفق من موائد الواعية التي أثقلتها أوزارها . هذه الأعماق المظلمة، إنْ هي إلا كيس فارغ، ليس يحوي أكثر مما يتساقط عليه من فوق . لماذا ننسى دائماً أن لا شيء جليلاً أو جميلاً في الميدان الواسع من الثقافة الإنسانية لم ينبت من فكرة سعيدة أصلاً ؟ ماذا يحل بالبشرية لو لم يوجد شخص عنده أفكار سعيدة ؟ الأصح أن نقول أن واعيتنا هي ذلك الكيس الذي ليس فيه غير ما يتفق أن يقع عليه . إننا لا نقدر أبداً مقدار اعتمادنا على الأفكار السعيدة، إلا عندما نتأكد — ويا للأسف ! — أنها لن تأتي . وما الحلم إلا فكرة سعيدة تأتينا من عالم النفس المظلمة الموحّدة للكل . ماذا عساه أن يكون أكثر طبيعية من أن نقرع باب الأحلام ونطلب منها المعاني التي تدنينا قرباً من حقائق الوجود البشري الأساسية، بعد إذ أضعنا أنفسنا وسط جزئيات لا نهاية لها وتفصيلات منعزلة من عالم السطح .

هنا نواجه الانحياز العنيد الذي يذهب إلى أن الأحلام زبد كثير، ليست حقيقية، تكذب، مجرد تلبيات لرغبة . وما هذه الأقوال إلا تهرّب من أخذ الأحلام على مأخذ الجد، لأن هذا أمر لا يبعث على ارتياح . إن هوسنا الفكري بالواعية لهو هوس بالعزلة أيضاً على الرغم مما في هذه العزلة من

عيوب . ولهذا السبب تجد الناس يفعلون كل شيء ولا يسلّمون بأن الأحلام حقيقية وأنها تنطق بالحقيقة . ففي القديسين من رأى أحلاماً غليظة . ترى ما هو مصير قداستهم، وهي الشيء الذي يرفعهم فوق عامة الناس، لو اتضح أن شناعة أحلامهم حقيقة واقعة ؟ لكن أقذر الأحلام هي التي توثق عرى القرابة بيننا وبين سائر أبناء البشر، وتخمد نار الغطرسة التي يورثها ضمور الغرائز . وحدة النفس لن تتحطم أبداً، حتى ولو تساقط العالم كله شَذَر مَذَر . وكلما اتّسعت الشقوق وتكاثرت على السطح، قويتْ أواصر الوحدة في الأعماق .

طبعاً، كل من لم يختبر وحدة النفس بنفسه لن يقتنع بإمكان وجود فعالية نفسية مستقلة عن الواعية، وليست فعالية لا تحدث فيّ وحسب، وإنما في جميع الناس في وقت واحد . لكن عندما نقارن سيكولوجية الفن الحديث بما كشف عنه البحث السيكولوجي، وهذا مع ما أثمرت معه الميثولوجيا والفلسفة من نتائج، نجد البراهين التي لا تُدحَض على وجود عامل هذه الخافية الجامعة .

غير أن مريضنا، وقد اعتاد أن يعامل نفسه باعتبارها شيئاً تحت سيطرته، لسوف يردّ محتجاً بأنه ما لاحظ قط شيئاً موضوعياً في سياقاته النفسية، بل هي أكثر الأشياء شخصية على ما قد يتصور المرء . على هذا أردُّ قائلاً : « إذن، أنت تستطيع أن تبدد حالات القلق والأفكار المتسلطة عليك على الفور . والنوبات المزعجة لن تنتابك بعد الآن . ما عليك إلا تنطق بالكلمة السحرية » .

طبعاً، إن مريضنا، في سذاجته الحديثة، لم يستطع أن يدرك أن أحواله الباثولوجية تستحوذ عليه مثلما كانت تستحوذ على كل ساحرة أو صائد ساحرات في أظلم العصور الوسطى . المسألة لا تعدو أن تكون اختلافاً في التسميات . في تلك الأيام كانوا يتكلمون عن الشيطان، وفي يومنا هذا ندعو

المرضَ عُصاباً . لكننا نصل إلى نفس الشيء، إلى نفس الخبرة القديمة : شيء نفسـي موضـوعيـاً وغريب عنا، لا يقع تحت سيطرتنا، ويقاوم إرادتنا مقاومة عنيدة . لسنا في حال أفضل من الـ « بروكتوفنتامست » في « فاوست » الذي صاح في دهشة :

مناف للعقل ! أمازلت تنوي البقاء ؟
اختفِ حالاً، لقد انفضح أمرك !
لا يُخَوِّفُ رهطُ هذا الشيطان بالأحكام
مع كل حكمتنا، لايزال « تيغيل » مسكوناً .

لو كان باستطاعة مريضنا الخضوع إلى منطق هذه الحجة، لكسبنا الشيء الكثير . الطريق لاختبار النفس مفتوح، لكن المرء ما يلبث أن يأتي إلى انحياز آخر يسدّ عليه التقدم إلى ما وراء ما وصـل إليه . لسوف يقول : « لنسلِّم جَدَلاً أنني أختبر الآن قوة نفسية تخذل إرادتي، اختبر عاملاً نفسياً موضوعياً، إن كنت تحب أن تسميه كذلك . لكنـه يظل مع ذلك شيئاً سيكولوجياً محضاً، غامضاً، لا يعتمد عليه، وليس له أهمية في الحياة العملية » .

هذا، وإنه لأمر يبعث على الذهول مقدارُ ما يؤخذ الناس بالكلمات . يتصورون دائماً أن الاسم يفترض صحة الشيء ــ تماماً كما لو أننا نلحق أذىً شـديداً بالشيطان عندما نسميه عُصـاباً ! هذه السمة الطفولية بقية أخرى خلّفها لنا العام الأول للميلاد، عندما كانت البشرية لاتزال تعمل بكلمات السحر . لكن الذي يكمن وراء الشيطان أو العصاب لا يهتم بالاسم الذي نسميه به . طبعاً، نحن لا نعلم ما هي النفس، ونحن نتكلم عن « الخافية » لمجرد أننا لا نعرف ما هي في الحقيقة . نحن لا نعرف ما هي الخافية إلا بمقدار ما يعرف عالم الفيزياء ما هي المادة . كل ما يملك عنها ما يعدو أن يكون

نظريات وآراء تصورها طوراً على هذا النحو، وطوراً على ذاك . وتظل هذه الصورة مناسبة وقتاً ما، ثم ما يلبث أن يأتي اكتشاف جديد برأي مغاير آخر . لكن هذا ليس له تأثير على المادة . أم هل نقصت حقيقة المادة على نحو من الأنحاء .

كل ما في الأمر أننا لا نعرف ماهية هذا الشيء الغريب والباعث على القلق عندما نسميه « الخافية » أو « النفس الموضوعية » . في شيء من مظهر التبرير، عُرّفت بالغريزة الجنسية أو إرادة السيطرة . لكن هذا لا ينصف معناها الحقيقي . ما وراء هاتين الغريزتين، اللتين ليستا قطعاً بداية الوجود ونهايته، وما هما إلا تمثيل لحدود فهمنا ؟ في هذا الميدان، من حق كل تفسير أن يلعب دوره بحرية . فبوسعك مثلاً أن تعتبر الخافية مظهراً من غريزة الحياة، وتسوّي القوة، التي تخلق الحياة وتشد أزرها، بـ ÉLAN VITTAL الذي يقول به برغسون، أو حتى بالديمومة المبدعة DURÉE CRÉATRICE التي يقول هو بها أيضاً . ولعلنا نجد موازياً آخر في « إرادة » شوبنهور . أعرف أناساً يشعرون أن القوة الغريبة في نفوسهم شيء إلهي، لا شيء إلا لأنها منحتهم فهماً لما هو المقصود بالخبرة الدينية .

أسلّم بأنني أفهم تماماً خيبة أمل جمهوري عندما أشير إلى الأحلام كمصدر للمعلومات في هذه الفوضى الروحية التي يعيش فيها عالمنا الحديث .. لا شيء طبيعياً أكثر من أن تستوقفنا بادرة كهذه البادرة، البادية التناقض، البالغة السخافة . ماذا بوسع حلم أن يفعل، هذا الشيء الذاتي والتافه إلى أقصى حدود التفاهة، ماذا يستطيع أن يفعل في عالم طافح بالحقائق البالغة القوة ؟ الحقائق يجب أن نقابلها بحقائق تساويها حسّيّةً، لا بأحلام لا تفعل أكثر من أن تزعجنا عن نومنا وتعكّر مزاجنا في اليوم التالي . إنك لا تستطيع

أن تبني بيتاً، أو تدفع ضرائب، أو تكسب معارك، أو بحل أزمة عالمية، بالأحلام . لذلك أتوقع أن يطلب مريضي منّي، مثلما أتوقع من جميع الناس من ذوي الحساسية غيره، أن أقول له عما يمكن فعله في هذا الوضع الذي لا يُطاق، وبأساليب الحس السليم المناسبة . والصعوبة الوحيدة التي تعترضنا هي أننا قد سبق لنا وجرّبنا جميع الأساليب التي تبدو مناسبة، لكن بدون أن نظفر بشيء على الإطلاق، أو أنها تتكون من تخيلات رغبيّة متعذّرة التطبيق . لقد جرّبنا استعمال جميع هذه الأساليب لمعالجة الوضع القائم . مثلاً، عندما تضرب الفوضى في أعمال أحدنا، من الطبيعي أن ينظر في كيفية ترتيبها وتنظيمها وإيقافها ثانية على قدميها، فيلجأ إلى استعمال جميع العلاجات الموصوفة لكي يعود عمله صحيحاً معافى . لكن ماذا يحدث، بعد أن يكون قد جرّب جميع هذه العلاجات، لو تدهور الوضع من سيء إلى أسوأ، خلافاً لجميع التوقعات المعقولة ؟ لا بد له من أن ييأس من جميع هذه الأساليب، المفترض أنها معقولة، بأسرع ما يمكن .

إن مريضي، وربما عصرنا بكامله، هو في مثل هذا الوضع . فهو يسألني في لهفة : « ماذا أستطيع أن أفعل ؟ »، فأجيبه : « وأنا مثلك لا أعلم » . « إذن، لا شيء يمكن عمله ؟ » . لكني أجيبه أيضاً بأن البشرية وجدت نفسها في هذه المسالك العمياء مرات لا حصر لها في أثناء مجرى التطور، وما من أحد عرف ما عساه أن يفعل، لأن كل أحد كان منصرفاً إلى رسم خطط بارعة من أجل معالجة الوضع . ما من أحد كان لديه الشجاعة لأن يعترف بأنه قد سلك الطريق الغلط . ثم ما تلبث الأشياء أن تعود إلى الحركة ثانية حتى تظل نفس البشرية موجودة، وإن تكن اختلفت بعض الاختلاف عن ذي قبل .

عندما ننظر إلى التاريخ البشري، لا نرى إلا ما يحدث على السطح، وحتى

هذا يتشوه في مرآة التقليد الباهتة . لكن الذي يحدث حقيقةً يروغ من عين المؤرخ الباحثة . ذلك أن الحدث التاريخي الحقيقي مدفون في العمق، اختبره الكل، لكن لم يراقبْهُ أحد . هو أكثر الخبرات النفسية خصوصيةً وأكثرها ذاتيةً . ما الحروب والأسر المالكة والفتن الاجتماعية والفتوحات والأديان إلا أعراض سطحية من الموقف النفسي السرّي الذي يجهله حتى الفرد نفسه، ولا يرويه المؤرخ . ربما يعطينا مؤسسو الأديان أوفر المعلومات بهذا الخصوص . الأحداث الكبرى في تاريخ العالم هي، في القعر، ليست هامة إلى حد عميق . في التحليل الأخير، الشيء الجوهري هو حياة الفرد . هذا وحده يصنع التاريخ . هنا فقط أول ما تحصل التحولات العظمى . والمستقبل كله، كل تاريخ العالم، ينبع في النهاية كمجموع هائل من هذه المنابع الخبيئة في الأفراد . إننا، في أكثر حيواتنا خصوصية وذاتية، لسنا شهوداً سلبيين على عصرنا ومعذبين فيه وحسب، وإنما صانعوه أيضاً . إننا نحن الذين نصنع عصرنا .

لذلك عندما أنصح مريضي بأن يعير أحلامه انتباهاً، فإنما أريد أن أقول له : « عد إلى أكثر الأشياء ذاتيّةً من نفسك، عد إلى منبع وجودك، إلى تلك النقطة التي تصنع فيها تاريخ العالم وأنت لا تعلم . إن مشكلتك التي لا حلّ ظاهريّاً لها واضح أنها يجب أن تبقى بلا حل، وإلا أرهقت نفسك بحثاً عن الأدوية التي أنت مقتنع منذ البدء بعدم جدواها . إن أحلامك تعبير عن حياتك الداخلية، ويمكنُها أن تُظهرك على الموقف الخاطئ الذي من خلاله وطّنت نفسك في هذا المسلك الأعمى » .

الأحلام نواتج حيادية، عفوية، من نواتج النفس الباطنة، خارجة عن سيطرة الإرادة؛ طبيعية محضة؛ تُطلعنا على الحقيقة الطبيعية بلا تزويق . ولذلك هي مؤهلة، كما لم يؤهل شيء آخر، لأن تعيد لنا موقفاً يتفق مع طبيعتنا البشرية

الأساسية، عندما تضل واعيتنا بعيداً جداً عن أساساتها وتسلك في طريق مسدود .

الاهتمام بالأحلام هو طريق للتفكير في أنفسنا؛ طريق للتفكير بالذات . إنها ليست أنيّتنا الواعية تفكر في نفسها؛ بل هي تلفت انتباه الواعية إلى الواقع الموضوعي من الحلم كبلاغ أو رسالة من الروح البشري التوحيدي الباطن . الأحلام ليست تفكيراً قائماً في الأنية بل في كلية النفس أو الذات **The Self** . تذكرنا بتلك النفس الغريبة، عن الأنية، التي كانت نَفَسنا منذ البداية، الجذع الذي نبتت منه الأنيّة . لقد أضحت غريبة عنا، لأننا غرّبنا أنفسنا عنها من خلال الواعية .

لكننا حتى لو قبلنا بالطرح الذي يقول أن الأحلام ليست اختراعات اعتباطية بل نواتج طبيعية نتجت عن الفاعلية النفسية الباطنة، لسوف نظل كلما واجهنا حلماً حقيقياً نفتقر إلى الشجاعة اللازمة لكي نرى فيه رسالة ذات أهمية . لقد كان تفسير الأحلام أحد إنجازات فن السحر، ولذلك كان في جملة الفنون السوداء التي كانت تقف لها الكنيسة بالمرصاد . لكن، حتى ولو كنا، نحن أبناء القرن العشرين، أرحب عقلاً وصدراً من هذه الناحية، إلا أننا لايزال عندنا الكثير من الانحياز التاريخي المرتبط بالتحامل على فكرة تفسير الأحلام بحيث يجعلنا لا نتعامل معها باللطف الواجب لها . ولعلنا نتساءل عن وجود منهج لتفسير الأحلام يمكن الركون إليه . هل نستطيع أن نولي ثقتنا أياً من هذه المذاهب الظنيّة ؟ أسلم بأن لي نصيبي الكامل من هذه الشكوك، وإني لمقتنع بأنه لا يوجد منهج لتفسير الأحلام يركن إليه بصورة مطلقة . حتى الثقة المطلقة في تفسير الحوادث الطبيعية لا نجدها إلا في أضيق الحدود؛ أي عندما لا يأتي من التفسير أكثر مما نضع فيه . كل محاولة لتفسير الطبيعة فهي

مخاطرة . والمنهج الذي يمكننا الاعتماد عليه لا يظهر إلى حيز الوجود إلا بعد انقضاء زمن على إنجاز عمل رائد . نحن نعلم أن فرويد قد ألّف كتاباً في تفسير الأحلام، لكن تفسيره ليس إلا مثالاً على ما قلناه للتو : لا يأتي منه أكثر مما تسمح نظريته بأن تضعه في الحلم . طبعاً، إن هذه النظرية لا تُنصف حرّية حياة الحلم التي لا تُحدّ، الأمر الذي يترتب عليه اختفاء الحلم دون جلائه . أيضاً، عندما ننظر في تنوّعيّة الأحلام غير المحدودة، يغدو من الصعب علينا الاعتقاد بأن من الممكن أن يوجد أصلاً منهج أو إجراء من شأنه أن يؤدي إلى نتيجة لا تخطئ . والحق أنه لمن الأمور الحسنة ألا يوجد منهج صالح من كل وجه، لأنه بخلاف ذلك قد يكون معنى الحلم محدوداً سلفاً، ولعله عندئذ يفقد بالتحديد تلك الفضيلة التي تجعل الأحلام بالغة القيمة للأغراض الشفائية ــ أي قدرتها على تقديم وجهات نظر جديدة .

لذلك نحن نحسن صنعاً لو عاملنا كل حلم كما لو أنه موضوع نجهله كلياً . ننظر إليه من جميع جوانبه، نأخذه بيدنا، ننقله معنا إلى حيث نذهب، ندع خيالنا يدور حوله، نتكلم عنه مع غيرنا من الناس . البدائيون يقصون أحلامهم المؤثرة بعضهم على بعض في جلسة مسامرة عامة، وقد كانت هذه العادة متّبعة في العصور القديمة المتأخرة، لأن جميع الأقوام كانت تنسب للأحلام أهمية عظمى . لو عاملنا الحلم بهذه الطريقة، لأوحى لنا بكل الأفكار والتداعيات التي تُدْنينا قُرْباً من معناه . لا حاجة بنا إلى تبيان أن هذا التحقق من معنى الحلم، شأن اعتباطي كلّياً، وهنا تبدأ المخاطرة . لسوف توضع حدود ضيقة أو واسعة لمعنى الحلم على حسب خبرتنا ومزاجنا وذوقنا . بعض الناس يكتفي بالقليل، وبعضهم الآخر يرون الكثير غير كافٍ . كذلك إن معنى الحلم، أو تفسيرنا له، يتوقف إلى حد كبير على مرامي المفسّر، على ما

يتوقع أن يكون معناه أو يقتضي منه أن يفعل . لسوف يعمل المفسر، في سياق تجْليته للمعنى، عن غير إرادة منه، على هدي من افتراضات سابقة معينة، ويتوقف المعنى كثيراً على تدقيق الباحث وإخلاصه، إن كان يكسب شيئاً من تفسيره أو لعله يظل مغلولاً إلى أخطائه . فيما يتعلق بالفرضيات السابقة، لعلنا موقنون من القول أن الحلم ليس اختراعاً باطلاً من جانب العقل الواعي، بل ظاهرة طبيعية غير إرادية، حتى ولو ثبت أن الأحلام قد شوّهتْها على نحو ما صيرورتها شعورية . على كل حال، يحدث هذا التشويه في سرعة وتلقائية حتى لا نكاد ندركه . لذلك نكون في مأمن إذا ذهبنا إلى أن الأحلام تطلع من الجانب الباطن من وجودنا، وأنها ــ تبعاً لذلك ــ أعراض من هذا الوجود، الأمر الذي يتيح لنا أن نتوصل إلى استنتاجات حول طبيعة هذا الوجود . فإن كنا نريد أن نبحث في طبيعتنا، فإن الأحلام هي أنسب الوسائل لذلك .

يجب أن نمسك، ونحن في سياق التفسير، عن جميع الافتراضات المسبقة التي يقطر منها طعم الخرافة، من مثل، أولاً وقبل كل شيء، مفهوم الخصوم في الأحلام أنهم ليسوا سوى نفس الأشخاص الذين نعرفهم في اليقظة . يجب ألا ننسى أبداً أن أحدنا إنما يحلم بنفسه في المقام الأول، ويكاد أن يكون هذا باستبعاد كل شيء آخر . (كل الاستثناءات محكومة بقواعد محددة، لكنني لا أستطيع أن أخوض في هذا الموضوع هنا) .. لو اعترفنا بهذه الحقيقة، لوجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام مشكلات تبعث على الاهتمام أحياناً . أتذكر حالتين لهما دلالتهما : أحد مرضاي حلم بمتشرد سكير ملقى في خندق، والآخر بمومس سكيرة تتقلب عند بالوعة . كان الأول رجل لاهوت، والثاني سيدة بارزة في مجتمع راقٍ . كان كلاهما ضحية عنف وترويع وانتهاك، وقد رَفَضا رفضاً باتّاً أنهما قد حلما بنفسيهما . نصحتهما أن ينفقا ساعة في تفكير ذاتي،

وأن يبذلا جُهديهما وينظرا بإخلاص بم يفْضُلان كثيراً أخاهما السكّير في الخندق وأختهما السكيرة في البالوعة . إن سياق معرفة النفس الخفيّة غالباً ما يبدأ بقنبلة كهذه . الشخص « الآخر » الذي نحلم به ليس صديقنا ولا جارنا، لكنه الآخر الذي فينا، الذي نفضل أن نقول عنه : « أحمدك، يا رب، أنني لست مثل هذا العامّي والآثم » . يقيناً أن الحلم، وهو ابن الطبيعة، ليس في نيّته أن يقوّم شيئاً أخلاقياً؛ كل ما في الأمر أنه يمثل ذلك القانون الشهير الذي يفيد أن ما من شجره تستطيع أن ترق إلى السماء .

فإذا وضعنا في ذهننا، إلى جانب هذا، أن الخافية تحتوي على كل شيء تفتقر إليه الواعية، وأن الخافية ــ تبعاً لذلك ــ ذات ميل تعويضي، استطعنا عندئذ أن نستخلص نتائج هامة ــ طبعاً، شريطة ألا يأتي الحلم من مستوى نفسي بالغ العمق . فإن كان حلماً من هذا النوع، كان الأصل أن يحتوي على موضوعات ميثولوجية، وهي جملة من الأفكار أو الصور التي قد نجدها في أساطير الجماعة التي نحن منها أو في أساطير شعوب أخرى . عندئذٍ يكون للحلم معنى جماعي، تشترك فيه البشرية جمعاء .

إن هذا لا يتناقض مع ملاحظتي المتقدمة، وهي أننا دائماً نحلم بأنفسنا . كأفراد نحن لسنا وحيدين، بل مثل سائر الناس . لذلك يصلح الحلم ذو المعنى الجماعي للحالم في المكان الأول، لكنه، في الوقت نفسه، يبين أن مشكلته المؤقتة هي أيضاً مشكلة أناس آخرين . إن هذا لذو أهمية عملية عظيمة في الغالب، لوجود عدد لا يحصى من البشر منطوين على أنفسهم و منقطعين عن سائر البشرية، لوقوعهم تحت سيطرة الاعتقاد بأن ما من أحد غيرهم يشاركهم مشكلاتهم . أو هم أناس مفرطون في التواضع يشعرون بأنهم نكرات، احتفظوا بطلب الاعتراف بهم اجتماعياً على مستوى مفرط من الانحطاط . زد

على ذلك أن كل مشكلة فردية ترتبط بمشكلة العصر على نحو من الأنحاء، بحيث يتعيّن علينا أن ننظر في كل صعوبة ذاتية من منطق الوضع البشري في مجمــله . لكن هذا لا يُسمح به إلا إذا كان الحلم فعـلاً حلمـاً ميثولوجيـاً ويستخدم رموزاً ذات صفة جماعية .

مثل هذه الأحلام يدعوها البدائيون أحلاماً « كبيرة » . والبدائيون الذين راقبتهم في شرقي أفريقيا يرون من الأمور المسلّمة أن الأحلام « الكبيرة » لا يحلم بها إلا « الكبار » من مثل العرافين والسحرة وشيوخ القبيلة، إلخ .. قد يصـح هذا على المستوى البـدائي . أما عندنا فيحـلم بهذه الأحلام النـاس العاديون أيضاً، خصوصاً إذا وجدوا أنفسهم متورطين عقلياً أو روحياً في وضع صعب . المعرفة الواسعة أمر مطلوب، كالتي يجدر بصـاحب اختصاص أن يحصــلها . لكن ما من حلم يفسر بالمعرفة وحدها . زد على ذلك أن هذه المعـرفة يجب ألا تكون مادة ميتـة محفوظة عن ظهر قلب؛ يجب أن تتصف بـالحيــاة وتُصَب في خـبرة الشخص الذي يستخدمهـا . ماذا تفيد المعرفة الفلسفية في الرأس إن لم نكن فلاسفة في القلب أيضاً ؟ كل من يريد أن يفسر حلماً عليه أن يكون هو نفسه في مستوى الحلم تقريباً، لأنه لا يستطيع أن يرى في أي مكان شيئاً أكثر مما في نفسه .

لا يمكن تعلم فن تفسير الأحلام من الكتب . المناهج والقواعد غير صالحة إلا عندما نستطيع الاستغناء عنها . وإن من يستطيع أن يفعل ذلك لهو الماهر حقاً، ولا يفهم إلا امرؤ ذو فهم . ومن لا يعرف نفسه لا يمكنه أن يعرف غيره . وفي كل من « غير » لا نعرفه . يخاطبنا في الأحلام، ويبين لنا كيف تختلف رؤيته لنا عن طريقة رؤيتنا لأنفسنا . لذلك عندما نجد أنفسنا في وضع صعب ليس له حل، يستطيع أحياناً أن يوقد لنا مصباحاً يغير من موقفنا تغيراً

جذرياً ــ نفس الموقف الذي أوصلنا إلى الوضع الصعب .

وكلما توغلت في هذه المشكلات على مدى السنين، قوي انطباعي بأن تعليمنا الحديث تعليم أحاديّ إلى حدّ مروّع . لا شك أننا على حق عندما نفتح عيون شبابنا وآذانهم على العالم الوسيع، لكن من أحمق الضلالات الاعتقادُ بأن هذا يؤهلهم فعلاً لمهمة الحياة . إن ما نعلمه شبابنا لهو نوع من التدريب الذي يمكّنهم من التكيف خارجياً مع العالم ومع الواقع، لكن ما من أحد يهتم بإعطائهم فكرة عن ضرورة التكيف مع النفس، مع قوى عالمه النفسي، التي هي أقوى بكثير من جميع القوى العظمى على الأرض . صحيح أن لدينا نظاماً للتعليم، لكن بعض أصوله يرجع إلى العصور القديمة، وبعضها الآخر إلى العصور الوسطى . وهو في هذا يحتذي حذو الكنيسة المسيحية . لكننا لا يمكن أن ننكر أن المسيحية قد فقدت فعاليتها التعليمية إلى حد كبير، طوال القرنين الماضيين، وهي في هذا ليست أقل من الكنفوشيوسية في الصين والبوذية في الهند . وليس محل اللوم في هذا الجَوْر البشري، بل التغير الروحي الذي حصل تدريجياً وعلى نطاق واسع، وكان أول أعراضه **الإصلاح الديني** . لقد حطم الإصلاح الديني سلطان الكنيسة في صفتها التعليمية، ثم أخذ بعد ذلك المبدأ الاستبدادي نفسه يتقوّض وينهار . وكانت النتيجة التي لا مفر منها زيادة في أهمية الفرد، التي وجدت تعبيرها في المثل الإنسانية العليا كالرفاه الاجتماعي والديمقراطية والمساواة . لكن الاتجاه الفرْداني الحاسم في هذه التطورات الأخيرة أخذ يوازنه الاتجاه التعويضي المعاكس نحو الإنسان الجمْعي، الذي يبلغ سلطانه في الوقت ما يبلغ وزن الكتل البشرية . لذلك لا عجب أن يوجد اليوم شعور بالكارثة في الهواء كما لو أن « هَيْلاً » **avalanche** انفجر ولا شيء يستطيع إيقافه . الإنسان الجمعي يهدد الإنسان الفرد، الذي يتوقف على

شعوره بالمسؤولية كل شيء ذي قيمة في الحياة البشرية في نهاية المطاف . الكتل البشرية، بهذه الصفة، دائماً مُغْفَلة ودائماً غير مسؤولة . ما يُسَمَّوْنَ بالزعماء هم الأغراض التي لا مفرّ منها على حركة هذه الكتل . أما الزعماء الحقيقيون للبشرية فهم دائماً القادرون على التفكير الذاتي، الذين يُلقون عن كاهلهم هم على الأقل ذلك العبء الميت الذي تمثله الكتل، ويقفون واعين في معزل عن الزخم الأعمى في حركة الكتلة . لكن من يستطيع مقاومة قوة الجذب هذه التي تلتهم كل شيء، عندما يتأبط كل أحد الذي يليه، وكل أحد يجر الآخر معه ؟ لا أحد غير الذي يتجذّر ثابتاً لا في العالم الخارجي وحسب، وإنما في العالم الداخلي أيضاً .

صغير وخفي هو الطريق الذي يفضي إلى الداخل، وتعترض المدخل حواجز لا حصر لها : انحيازات، مسلّمات خاطئة، مخاوف . دائماً نرغب في الاستماع إلى خطط سياسية واقتصادية عظيمة، نفس الأشياء التي أرْستْ كل أمة في مستنقع . لذلك يبدو أمراً غريباً أن يتكلم كل أحد عن أبواب سرّية وأحلام وعالم داخلي . ما علاقة هذه المثالية التافهة بالبرامج الاقتصادية الضخمة، بما يُسمّى مشكلات الواقع ؟

إلا أنني لا أخاطب أمماً، لا أخاطب إلا قلة من الأفراد، لا تهبط عليهم القيم الثقافية كما يهبط المنّ من السماء، بل تُخلق بأيدي أفراد ــ غني عن البيان أن نقول هذا . إذا كانت الأشياء تمضي خاطئة في العالم، فهذا يعني أن شيئاً خاطئاً موجود في الفرد، شيئاً خاطئاً موجود فيّ . لذلك إن كنت ذا حس بالمسؤولية أضع نفسي في المقدمة . من أجل هذا أحتاج ــ مادامت السلطة في الخارج لم تعد تعني لي شيئاً ــ إلى معرفة الأساسات الجوّانية التي يقوم عليها وجودي، لعلّي أؤسس نفسي ثابتاً على الحقائق الأولية، حقائق النفس

البشرية .

إن تكلمت آنفاً عن الأحلام بصفة رئيسية، فلأنني رغبت في لفت الانتباه إلى واحد من أكثر المقاربات مباشرة من عالم الخبرة الداخلية . لكن هناك أشياء كثيرة إلى جانب الأحلام لا نستطيع بحثها هنا . وإذا بحثنا في المستويات العميقة من النفس، فإنما نُخرج إلى النور الكثير من الذي نستطيع أن نحلم به على السطح في معظم الأحيان . لا عجب، إذن، أن نكتشف أحياناً الفعالية الدينية في أحلامنا أيضاً، وهي أقوى جميع فعاليات الإنسان الروحية وأكثرها أصالة . وقد انحرفت هذه الفعالية في الإنسان الحديث أكثر حتى من انحراف الجنس أو التكيف الاجتماعي .. أعرف أناساً كانت المواجهة مع القوة الغريبة في داخل أنفسهم نوعاً من الخبرة الطاغية حتى لقد أسموها « الله » . و « الله »، عندما نختبره على هذا النحو، هو أيضاً « نظرية » بالمعنى الحرفي للكلمة، طريقة للنظر إلى العالم، صورة خلقها العقل البشري المحدود لكي يعبّر عن خبرة بعيدة القرار، خبرة لا توصف . الخبرة وحدها هي الشيء الحقيقي الذي لا جدال فيه؛ أما الصورة فقد يعلق بها غبار، أو قد تتحطّم فُتاتاً .

الأسماء والكلمات قشور مؤسفة، لكنها مع ذلك تدلنا على صفة ما قد اختبرناه . عندما نسمّي الشيطان عُصاباً، فهذا يعني أننا نشعر بأن هذه الخبرة الشيطانية مرض هو من خصائص هذا العصر . وعندما ندعوه جنساً أو إرادة سيطرة، فهذا يدل على أنه يزعجنا إلى درجة خطيرة تبلغ خطورة هاتين الغريزتين الأساسيتين . وعندما ندعوه إلهاً، فإنما نحاول أن نصف معناه العميق، معناه العالمي أو الكوني، لأن هذا هو ما استطعنا أن نتبيّنه في الخبرة . لو نظرنا إلى هذه التسمية الأخيرة نظرة هادئة، ووضعنا في ذهننا القاع الواسعة المجهولة، لتعيّن علينا أن نسلّم بأنها أكثر التسميات احترازاً وأكثرها تواضعاً في

نفس الوقت، لأنها لا تضع حدوداً للخبرة ولا تخنقها في صورة مفهومة . طبعاً، اللهم إلا أن يضرب أحد على وتر الفكرة الوحيدة مدّعياً أنه يعرف ما هو الله بالضبط .

مهما يكن الاسم الذي قد نضعه لهذه القاع النفسية، تظل الحقيقة القائلة بأن واعيتنا متأثرة بها إلى أعلى درجات التأثر، وكلما زاد تأثرنا بها قلّ وعينا لها . قلّما يستطيع الإنسان غير المختص أن يدرك مقدار تأثر ميوله ونفسه وقراراته بالقوى المظلمة في داخله، أو يدرك مقدار الخطر أو العَوْن الذي قد يتشكل به قدره . إن واعيتنا الدماغية هي كالممثل الذي نسي أنه إنما يمثل دوراً . لكن عليه عندما تنتهي التمثيلية أن يتذكر حقيقته الذاتية، لأنه لم يعد يستطيع أن يعيش كما عاش يوليوس قيصر أو عُطَيل، بل عليه أن يعيش نفسه كما هي فقط، نفسه التي أضحت غريبة عنه بسبب حيلة وقتية احتالت عليها واعيته . وعليه أن يعلم ثانية أنه كان مجرد شخص على المسرح يلعب قطعة لشكسبير، وأن هناك منتجاً ومخرجاً وراء الكواليس عندهما شيء هام جديد يقولانه بصدد تمثيله، كما هو الحال دائماً .

4 - حالة العلاج النفسي اليوم

في الســابق، عندما كان النـاس أقل تقدّماً في أفكارهم، كان يُنْظَرُ إلى العلاج النفسي على أنه تقانيّة يمكن أن يطبّقها عملياً كل شخص تعلّمها عن ظهر قلب . في الأبحاث والكتب الطبّية قد تصدفنا هذه الملاحظة العجيبة : « ... بالإضافة إلى ما تقدّم، قد يكون اتباع ما يلي ذا فائدة : تدليك، حمّام بارد، هواء جبلي، والعـلاج النفسـي » . لكن، من قبيل الاحتياط، لم تكن طبيعـة هذا « العـلاج النفسـي » توصف وصفـاً تفصيلياً قط . يقيناً، مادام العلاج النفسي مؤلفاً من التنويم المغناطيسي، والإيحاء والإقناع، و« إعادة تعليم الإرادة »، وهلمّ جرّاً، فإن كل شخص بوسعه أن يتعلم هذا الفن عن ظهر قلب، ويُدلي بنصيبه فيه بمناسبة وغير مناسبة . إن حرفة الطب عموماً ــ وهذا ينطبق على أطباء النفس وأطباء الأعصاب ــ معروف عنها أنها بطيئة التعلم وتحتاج إلى مدة طويلة من الحضانة . وهكذا سيطر الوهم بأن المعالجة النفسية ما هي إلا نوع من الإجراء التقـاني، وقد ظل هذا الوهم مسيطراً حتى بعد انقضاء زمن طويل على بلوغ العلاج النفسي مرتبة علم النفس، والتوقّف عن اعتبار الشفائيات مجرد تقانيّة . ولعل من إفراط التفاؤل القول أن هذا الوهم لم يعد له وجود حتى في أوساط أطباء النفس أنفسهم، أو أنه لا يتفق مع الوقائع المشاهدة . كل ما حدث هو أننا نسمع أحياناً أصواتاً تعترض على آلية العلاج النفسي وتتطلع إلى تخليصه من اعتباره مجرد إجراء تقاني « لا نفس فيه » . إن

ما تهدف إليه هذه الأصوات هو أن ترفعه إلى مستوى سيكولوجي أعلى، وجدل فلسفي يغدو نقاشاً بين نظامين من النفس، بين كائنين بشريين يتقابل كل واحد منهما مع الآخر في كلّيته .

هذه الأهداف والشكوك ما وَلَدَتْها أفكار أبدية، أو عقول أرهقتْها الفلسفة ثقلاً، بل نبعت من الانطباع العميق الذي لا يمكن إلا أن يتركه حتى في نفس المراقب البعيد ذلك الخلط الهدّام بين الأفكار السيكولوجية والشفائية . وللبرهنة على ذلك حسْبُنا إلقاء نظرة على الإسراف العماني في الأدب الذي ينطوي على موضوعات تتعلق بعلم العلاج النفسي . ليس هناك مدارس مختلفة ظلت حتى وقت قريب تتجنب كل اتصال جاد فيما بينها وحسب، وإنما هناك مجموعات ـــ « جمعيات » على هيئة نفسها ـــ حصّنت نفسها كما يحصّن المعتكف نفسه في وجه غير المؤمن، ناهيك عن المُفْردين الكثيرين، الذين لا يفخرون قليلاً بأنهم الأعضاء الوحيدون في كنيستهم، على حد عبارة كولردج الشهيرة . لا شك أن هذه الحالة علامة أكيدة على حيوية كثير من المشكلات الملحة التي مازالت بحاجة إلى حل في ميدان العلاج النفسي . لكن مما لا يبعث على الارتياح، ولا يتفق مع كرامة العلم، أن تقف الدغماطيقية العنيدة، والحساسية الشخصية، عائقاً أمام النقاش الحر الضروري جداً لنمو العلاج النفسي .

في الحقيقة، ما الذي يمكنه أن يلقي نوراً ساطعاً على كون العلاج النفسي قد يكون كل شيء إلا مجرد تقانية أكثر من كثرة التقانيات نفسها، وتعدد وجهات النظر و« السيكولوجيات » والمسلّمات الفلسفية (أو عدمها) ؟ أَلَيْس هذا المضطَرَب من المتناقضات دليلاً صارخاً على أن ما نحن مَعْنيّون به أكثر بكثير من مجرد تقانيّة ؟ التقانية يمكن تعديلها وتحسينها بجميع أنواع

الوصفات والحيل، وما من أحد إلا ويرحب بتغيير نحو الأفضل . لكن، بما أن القضية أبعد من أن تكون كذلك، نجد أعداداً كبيرة جداً من الناس يتحصّنون خلف مبادئ يغلّفونها بهالة قدس أقداس الدغماطيقا . ظاهرياً، يقومون بحراسة الحقيقة العلمية الأخيرة . لكن، هل لوحظ قط إلا في أظلم حقب التاريخ أن الحقيقة العلمية قد احتاجت إلى أن ترق إلى مرتبة الدغماطيقا ؟ تستطيع الحقيقة أن تقف على قدميها، ولا يحتاج إلى « الدغْمطة » إلا الآراء المهزوزة . التعصب أبداً شقيق الشك .

ما الدرس الذي نستطيع أن نستخلصه من هذه العلامات المميزة الجديرة بالملاحظة، وقد يفيدنا في تاريخ كل علم آخر ؟ لا شك أنها تدل على حقيقة لا تُدْحَض هي أن العلاج النفسي قد اجتاز في نموّه مرحلة التقانية ودخل في نطاق الرأي . ما أيسر الاتفاق على تقانيّة، وما أصعب الاتفاق على رأي . من هنا كانت حرارة النقاش — إذ اتفق أن حصل شيء من ذلك — أو الصمت الذي يساويه بلاغة .

ظل الناس مدة طويلة وهم يتصورون أن العلاج النفسي قابل للتطبيق « تقانياً »، كما لو كان معادلة أو منهجاً لعمل أو اختباراً لِلَوْن . يمكن الممارسَ العام أن يستعمل طائفة من التقانيات الطبية بدون أدنى تردد، بصرف النظر عن آرائه الشخصية في مرضاه، وعن نظرياته السيكولوجية أو حتى عن مسلّماته الفلسفية والدينية . أما في العلاج النفسي فلا يمكنه ذلك، لأن الطبيب ومسلّماته طرف هنا تماماً بمقدار ما هو المريض طرف كذلك . التقانيّة التي قد يستعملها ليست هامة إلى حد كبير، لأن النقطة الأساسية هنا ليست هي التقانية بل الشخص الذي يستخدمها . الغرض الذي تطبّق التقانية من أجله ليس هو نموذجاً تشريحياً ولا خُراجاً ولا مادة كيمياوية، إنما

هو كلية الأنسان الذي يعاني من العلّة . ليس غرض العلاج النفسي العُصابَ بذاته بل الإنسان الذي يعاني من العُصاب . لقد عرفنا منذ زمن بعيد، على سبيـل المثـال، أن العُصـاب القلبي لا يأتي من القلـب، على ما قد كان من الممكن للميثولوجيا القديمة أن ترى ذلك، بل من عقل المريض . ولا هو يأتي من زاوية مظلمةٍ من الخافية، كما لم يزل كثير من أطباء النفس يعتقدون؛ إنه يأتي من كلّيـة حيـاة الإنســان ومن جميع اختباراته التي تراكمت على مدى سنوات وعقود، وأخيراً ليس من مجرد حياته بما هو إنسان فرد، بل من خبرته النفسية في العائلة أو حتى في المجتمع الأوسع .

لا يواجَه الطبيب، وهو يعـالج العُصــاب، بحقل محصور من المرض، بل بشخص مريض لا ينحصر مرضه في آلية مخصوصة أو بؤرة من علّة، بل في مجمـل شخصيتـه . في هذه الحالة، لا تستطيع « التقـانية » أن تتغلب على المـرض . لأن شخصيــة المريض تقتضي من الطبيب أن يحشـد جميع موارد شخصيته لا حِيَلاً فنية .

لذلك طالبت منذ وقت مبكر جداً أن يخضع الطبيب نفســه للتحليل النفســي . وقد ثنّى فرويد على ذلك، واضـح لأنه لم يستطع أن يهرب من الاقتنـاع بأن المريض يجب أن يُواجَه بطبيب لا بتقـانيّة . ومما لا يُحمد في الطبيب كثـيراً أن يحـاول أن يكـون موضـوعيـاً وغير شخصي على قدر ما يستطيع، وأن يحجم عن التطفل على سيكولوجية المريض متخذاً لنفسه صفة المنقذ المفرط في الحماسة . فإذا أطال هذا الموقف مدة أكثر مما يلزم ربما أدى ذلك إلى نتائج لا تُحمد عُقباها . عندئذ يتبين للطبيب أنه لا يستطيع أن يتخطى حدود الطبيعـة دون أن يفـلـت من العقاب، وإلا صـار قدوة سيئة لمريضه الذي ما مرض قط من جرّاء إفراطه في الانسجام مع الطبيعة . هذا إلى

أن من أخطر الأمور الانتقاص من أهمية المرْضى لو تخيلنا أنهم جميعاً أغبى من أن يلاحظوا الحِيَل التي قد يلجأ إليها الطبيب، وتدابيره الأمنية، ولعبة الهيبة الصغيرة التي قد يلعبها . كذلك لا يمكن أن تكون نيّة الطبيب أن يشد أزر المريض ويعينه على القيام بوظائفه الطبيعية، وأن يبقيه مع ذلك أطول مدة ممكنة في الظلام عندما يصل به الأمر إلى تلك البقعة الحاسمة ــ التي لا تعني إلا الطبيب وحده ــ فيضعه في حالة الاتكال التي لا رجاء فيها أو « التحويل » . هذه الغلطة لا يرتكبها إلا طبيب أفرط في عدم تحليله نفسـه، ويهمه نفوذه الشخصي أكثر من صحة المريض .

وبما أن شخصية الطبيب وموقفه لهما أهمية عظمى في العلاج النفسي سواء أدرك ذلك أم لا ــ فإن آراءه تظهر تحت ضـوء سـاطع في تاريخ العلاج النفسي، وتكون ظاهرياً سبباً لانشقاقات لا تقبل الملاحظة . لقد بنى فرويد موقفـه في تعصب على الجنس، على الشهوة ــ بكـلمة واحدة، على « مبدأ اللذة » . كل شيء يدور حول ما إذا كان أحدنا يستطيع أن يفعل ما يريد . الكبت والتصعيد والانكفاء والنرجسية وقضاء الرغبة وما إلى ذلك ــ هذه كلها مفاهيم تتصل بالدرامة العظمى التي ينطوي عليها مبدأ اللذة . إن الأمر يبدو كما لو أن رغبة الإنسان وجشعه قد أصبحا هما المبدأ الأصلي الذي ينهض عليه علم النفس .

أدلر أيضاً نزل ميدان الشهوة البشرية الواسع فاكتشف الحاجة إلى « توكيد الذات » . هذا الاتجاه للطبيعة البشرية جعل منه أدلر أيضاً مبدأ أصلياً في علم النفس، وبنفس الأحادية المؤسفة جداً التي نجدها عند فرويد .

لا شك أن مبدأ الشهوة يستطيع أن يفسر عدداً كبيراً جداً من حالات العُصاب . وفي الحقيقة يمكننا أن نفسر نفس الحالة على مذهب فرويد وعلى

مذهب أدلر كليهما، لأن أياً من التفسيرين لا يعوزه الإقناع . والحق أن كلا التفسيرين يكمل أحدهما الآخر، وإن كلاً منهما يشكل حالة مُرْضية جداً لو أن كلاً منهما لم يدّعِ أنه صالح بإطلاق . كلاهما وجهة نظر نسبية تحثُّ على البحث والتنقيب، وبما هي كذلك لا تصلح لأن تكون مفهوماً عالمياً؛ على الأقل أن لهما علاقة بجوانب جزئية جوهرية . إن نظرية الكبت مبنية على حقائق نفسية معينة نصادفها في كل مكان، ويصح نفس الشيء على الحاجة إلى توكيد الذات أو إرادة القوة . من الواضح أن ما من أحد إلا ويحب أن يتمتع بكل ما يستطيع أن يتمتع به، وفي نفس الوقت أن يكون « على القمة » . كذلك من الواضح أنه مادام يتخذ هذا الموقف البدائي الساذج الطفولي فلن يكون في وسعه أن يتفادى العصاب كلما حاول أن يتكيف مع محيطه . هذه الحالة الأخيرة صحيحة جداً، لأنه بدونها لن يكون ثمة عُصاب، بل مجرد اعتلال أخلاقي أو حماقة بالغة .

لئن كان حدوث العُصاب مقيداً بشرطين على الأقل، يجب أن يكون كلاهما ذا أهمية إثيولوجية (سببية) . على أن من المستحيل أن يكون الموقف الطفولي وحده، من دون إرادة التكيف، هو العامل السببي . فإرادة التكيف ليس « يمكن » أن تكون عاملاً سببياً وحسب، وإنما قد كانت كذلك دائماً . لقد كان تفسير فرويد وأدلر للعُصاب من زاوية طفولية حصراً . وكل تفسير أشمل لا بد له من أن يأخذ في الحسبان إرادة التكيف أيضاً . لا حاجة دائماً لمجرّد فَرْط تكيّف . كذلك يجب ألا نفهم هذه الإمكانية الأخيرة اضطراراً على أنها مجرد كبت للطفولية أو « تشكيل بديل »، فقد نستطيع أيضاً أن نفسر الطفولية على أنها كبت لإرادة التكيف ونسميها « تشكيلاً بديلاً » . طبعاً، لا فرويد ولا أدلر يرحب بهذا القلب للعلاقة، لكنه أمر لا يمكن أن

نتجنبه منطقياً كلما أخذنا في اعتبارنا الأهمية السببية لإرادة التكيف . وهذا أمر يجب أن نفعله ــ حتى فرويد يحتاج إلى عامل يكبت ولا يلبّي الرغبات، ويبعث على القلق، إلخ . ويحتاج أدلر إلى شيء يجعل الإنسان في الأسفل . فإن لم يوجد ضدٌّ إثيولوجي (سببي) ذو قوة مساوية، كانت الشهوة الطفولية عندئذٍ غير ذات موضوع .

بعد أن عرفنا أن كل معصوب يعاني من شهوة طفولية، يظل يتعين علينا أن نتساءل كيف يحصل هذا مع إرادته للتكيف، ذلك أنه ربما يكون قد طوّر شهوة طفولية لكي تكون مجرد « تشكيل بديل » . في هذه الحالة، ربما يكون الأمر عَرَضياً Symptomatic وليس أصيلاً أبداً . ولو ذهبنا نفسره من زاوية الطفولة، لكان التفسير خارجاً عن الصدد، ولربما ارتكبنا خطأً لا يغتفر . لسوء الحظ، أن هذه الأخطاء كثيرة الوقوع جداً، لأن انتباه الطبيب يكون منصباً حصراً على السمات الطفولية أكثر مما يجب . عندئذٍ يكون المريض متهماً آلياً بالدونيّة .

غير أن الطفولية شيء غامض إلى أقصى حدود الغموض . أولاً، قد تكون أصلية أو عَرَضية؛ ثانياً، قد تكون رسوبية أو جنينية . هناك فرق كبير بين شيء بقي طفولياً وشيء هو في سياق النموّ . كلاهما قد يتخذ شكلاً طفولياً أو جنينياً، وغالباً ما يتعذر علينا أن نعرف إن كنا نتعامل مع شظيّة طفولية مستمرة بصورة تبعث على الأسف، أو مع بداية خلاّقة هامة حياتياً . أن نهزأ بهذه الإمكانيات هو أن نتصرف كالمغفل الذي لا يعرف أن المستقبل أهمّ من الماضي . لذلك قد ننصح بفحص هذه التخيلات الطفولية الطليقة التي قد تبدو لنا « انحرافات » سعياً وراء الكشف عن مضموناتها الإبداعية فلا نتعقبها رجوعاً إلى المهد، وأن نفهم العُصاب تبعاً لذلك على أنه محاولة للتكيف أكثر

من كونه تلبية غير موفقة أو مَوْروبة لرغبة .

طبعـاً، للنظريّة الطفوليـة ميزة لا تقدر بثمن، فهي ترفع الطبيب « إلى القمة »، باعتباره الممثل للتبصرة السليمة الصحيحة العليا، بينما يتمدد المريض المسكين، فاقد العون، ضحية تلبيات رغبة طفولية منحرفة غير شعورية . إن هذا أيضـاً يمنح الطبيب فرصـة لكي يعرف أفضل، ويتجنّب لقاء شخصية المريض وجهاً لوجه، وأن يختبئ وراء تقانيّة .

ليس من الصعب أن نرى مقدار ما يلقى هذا الموقف من دعم وتأييد من ميول في الواعية والخافية، ولماذا يرحب الطبيب بنظرية الطفولية منذ البداية، حتى ولو كان مستعـداً تمـامـاً، بما هو كائن بشـري، للاعتراف بشخصيـة مريضـه . فالتـأثير الواسع الذي أحدثته أفكار فرويد ليس مصدره موافقتها للوقائع الصحيحة أو المفترضة وحسب، وإنما إلى حد كبير إتاحتها فرصة سهلة تمس نقطة ضعف الفتى الآخر، وترضي غروره وترفعه إلى موقع أعلى . ألا ما أشد ما يبعث على ارتياح الطبيب عندما يستطيع أن يقول في زاوية ضيقة : « لا شيء إلا مقاومة ! »، أو عندما لا يعود بحاجة إلى حمل حجة خصمه على محمل الجد، لأنها يُسران ما تُصرف على « الرمزية » ــ بدون أن نسأله أبداً ــ وهذا يجب ملاحظته ــ إن كان هنا التفسير مقبولاً في سيكولوجيته .

ثم، هناك عدد لا يُحصى من المرْضى الذين هم في أعماق نفوسهم، مع تظـاهر شـديد بالخجـل، على استعداد أكثر من اللازم للانضمام إلى نظرية الطفولية، لأنها تمنحهم إشارة عريضة إلى كيفية صرف « الطفولية » المزعجة على اعتبارها « ما هي إلا » . وفي حالات كثيرة تتيح هذه النظرية مخرجاً كأنه مرسل من السماء من المشكلات الحادة غير السارّة في الحياة الواقعية، إذ تنقل النـاس إلى مروج الطفولة السعيدة حيث يدّعي المريض، بعد امتطـائه عربة

السببية، أنه قد اكتشف أسباب إخفاقه في الحاضر، وكيف ترجع كلها إلى خطأ أبويه وتربيتهما له.

صحيح أنه لا شيء يتعذر استعماله من أجل نزع المشروعية على الصفات الطبية. لكن علينا أن نلاحظ من أين يزحف التعسّف، وكيف يجري استغلاله. تتوقف هذه الأشياء إلى حد كبير جداً على الطبيب، الذي يجب أن يأخذ مرضاه بجدية عظيمة لكي يكتشف تعسّفاً من هذا النوع. التقانيّة لا تلاحظ شيئاً، لكن الكائن البشري يلاحظ ـــ وهو وحده يستطيع تنمية الحساسية اللازمة لتقرير ما إن كان العُصاب يجب أن يُعالج انطلاقاً من زاوية طفولية أو من زاوية إرادة التكيف.

ربما لا حاجة بي إلى القول أن التقانيّة ضرورية حتى نقطة معينة ـــ نحن جميعاً مقتنعون بذلك. لكن خلف كل منهج يقف الإنسان، وهو أهم منه بكثير لأن عليه أن يصل إلى قرارات، بصرف النظر عن تقانيته، هي على الأقل حيوية للمريض مثلما هي حيوية كل تقانية تطبق تطبيقاً حاذقاً. لذلك كان على طبيب النفس أن يمارس معرفة ذاته وينقد مسلّماته الشخصية، أدينية كانت أم فلسفية، تماماً مثلما هو التعقيم ضروري للجراح. على طبيب النفس أن يعرف « معادلته الشخصية » لكيلا يعتدي على مريضه. لهذا الغرض طوّرت سيكولوجية نقدية تتيح لطبيب النفس أن يعترف بمختلف المواقف النموذجية، رغم أن المدرسة الفرويدية تؤكد أن هذا لا علاقة له بالتحليل النفسي. من الواضح أن التحليل النفسي تقانيّة يتوارى خلفها الكائن البشري وتبقى دائماً هي نفسها كائناً من كان الذي يقوم بتطبيقها. تبعاً لذلك، لا يحتاج المحلل النفسي إلى معرفة نفسه ولا إلى نقد مسلّماته. الظاهر أن الغرض من تدرّبه على التحليل النفسي لا أن يصير كائناً بشرياً بل ممارساً حاذقاً

لتقانيّة .

لكن التحليل النفسي، حتى ولو نظرنا إليه باعتباره تقانية، لا يعني أنه يتصف بالبساطة . وفي الواقع أنه قضية معقدة جداً، وخدّاعة بطريقة شيطانية، بالمقارنة مع أكثر الإجراءات الكيمياوية إتقاناً، خاضع لما لا نهاية له من التنوع، وتكاد أن تكون نتائجه لا يمكن التنبؤ بها . كل من يجد هذا صعب التصديق، ما عليه إلا أن يقرأ بإمعان « تقانية » فرويد في تحليل الأحلام التي يجدها، مثلاً، في « حقنة إيرما » في كتابه « تفسير الأحلام » . أن ندعو مثل هذا الإجراء « تقانية » يتطلب جرعة قوية من التفاؤل . ومع ذلك يفترض أن الأحلام « طريق يؤدي رأساً إلى الخافية »، تلعب دوراً ليس غير أكيد في التحليل النفسي ! حقاً، لا بد أن يكون المرء مضروباً بالعمى إن لم يَرَ في هذا النوع من « التقانية »، أولاً وقبل كل شيء، تعبيراً عن الإنسان الذي يطبقها وعن جميع مسلّماته الشخصية .

تعيدنا هذه المفاكرات reflections إلى مشكلة موقف الطبيب والحاجة إلى نقد مسلّماته الشخصية . فالنظرة الذاتية إلى العالم يجب ألا تدخل من غير نقد إلى مفهومه للعصاب، مثلما كانت الحال مع فرويد ونظرته إلى الخافية وانحيازه المادي فيم يتعلق بالوظيفة الدينية في النفس . يجب على طبيب النفس ألا يعمل بعد الآن تحت وهم الاعتقاد بأن معالجة العصاب لا تتطلب أكثر من معرفة التقانية؛ يجب أن يتضح في ذهنه أن المعالجة السيكولوجية للمريض هي صلة ينخرط فيها الطبيب بمقدار انخراط المريض . المعالجة السيكولوجية الصحيحة لا يمكن ان تكون فردية، وهذا ما يعلل لنا القيمة النسبية للتقانية . لذلك تزداد الأهمية التي تقع على الموقف العام الذي يتخذه الطبيب الذي يجب أن تبلغ معرفته لنفسه مبلغاً لا يسمح له بأن يدمّر للمريض قيمه الخاصة التي

عهد إليه أمر العناية بها، مهما كانت هذه القيم . فلو اتفق لأدلر أن يطلب معالجة تحليلية من معلمه القديم فرويد، لكان على هذا الأخير أن يتكيف مع رؤية أدلر الخاصة للسيكولوجيا، حتى نقطة التسليم بحقها العام بالوجود؛ ذلك انه يوجد عدد لا يحصى من النـاس، سيكولوجيتهـم هي سيكولوجية الابن الذي يفتقر إلى الجاه أو النفوذ ولو كان عليّ أن أحلل فرويد لكنت ارتكبت بحقـه خطـأً لا يُقوَّم لو لم آخذ بالحسبـان التـام الأهميـة التـاريخية الحقيقية لحضانته، وأهمية المنازعات العائلية، والمرارة والفداحة التي اتسمت بها الحوادث التي كانت الباعث على نقمته في وقت مبكر، وما صاحبها من تخيلات رغْبية تعويضية لا يمكن تلبيتها لسوء الحظ، وأن أقبل بكل هذا **كحقيقة واقعة** . ولا شك أن فرويد كان خلقياً بأن يحمل قولي على محمل الخطأ لو قلت له أن نقمته ما هي إلا « عِوَضٌ » من إخفاقه في حبه لجاره، أو شيئاً من هذا القبيل . إن توكيداً من هذا النوع قد يصح في حالات أخرى، لكنه لا يصح في حالة فرويد حتى ولو نجحت في إقناعه بصواب فكرتي . ولا شك أن فرويد كان يعني ما يقول، وتبعاً لذلك يتعيّن علينا أن نعتبره نموذجاً لشخص يقول مثل هذه الأشيـاء . وعندئذٍ فقط تكون حالتـه الخاصـة مقبولة، ومعهـا جميع الأشخاص الذين تكوّنت سيكولوجيتهم على نحو مماثل . لكن، بما أننا لا نكاد نستطيع أن نذهب إلى أن أيّاً من فرويد أو أدلر هو ممثل صالح صُلُوحاً شمولياً للإنسان الأوروبي، يحق لي أن آمل بأني أنا أيضاً امتلك سيكولوجية خاصة بي، أنا ومعي جميع الذين لا يمكنهـم الانضمام إلى أوّليّـة التخيـلات الرغْبية الطفولية المنحرفة، أو إلى أوّلية الحضّ على السيطرة .

غني عن القول أن هذا يجب ألا يكون مسألة خداع ذاتي ساذج . على العكس، ليس طبيباً نفسياً من يدع الفرصة تفوته لدرس نفسه دراسة نقدية في

ضوء هذه السيكولوجيات السلبية . لقد رأى فرويد وإدلر بوضوح شديد ذلك **الظل** الذي يصاحبنا . اليهود عندهم هذه الخاصّية التي يشاركهم فيها النساء؛ بما أنهم ضعفاء فيزيائياً تعيّن عليهم أن يجعلوا هدفهم الشقوق في دروع أعدائهم، وبفضل هذه التقانيّة التي فُرضت عليهم على مدى العصور، أضحى اليهود في حماية أفضل من غيرهم الذين ظلوا أكثر تعرضاً للخطر . ثم، لأن حضارتهم أقدم من حضارتنا بأكثر من ضعفين، باتوا أكثر شعوراً منا، إلى حد كبير، بمواطن الضعف عند الإنسان، بالجانب الظلّي المعتم من الأشياء، وهذا سبب جعلهم، من هذه الناحية، أقل تعرضاً منا للإصابة بكثير . بفضل خبرتهم كثقافة قديمة أصبحوا قادرين، بينما هم عارفون تماماً بمواطن ضعفهم، على أن يقيموا مع هذه المواطن علاقات مودّة بل حتى يتسامحوا معها، على حين أننا مازلنا أصغر من أن نكوّن « أوهاماً » حول أنفسنا . زد على ذلك أن القدر قد عهد إلينا بمهمة خلق حضارة ــ وفي الحق أننا بحاجة إليها ــ ولذلك كانت « الأوهام » في هيئة مثل عليا وعقائد وخطط إلخ ، أحادية كلها، أموراً لا غنى عنها . اليهودي، من حيث هو عضو في جماعة ذات حضارة عمرها ثلاثة آلاف سنة، كالصيني المثقف، يملك رقعة من الواعية السيكولوجية أوسع مما عندنا . تبعاً لذلك، لا يُشكّل خطراً كبيرً على اليهودي عموماً أن يضع قيمة سلبية على الخافية . أما الخافية « الآريّة » فتحتوي على قوة تفجيرية وبذور مازال عليها أن تنبت في المستقبل، وهذه ربما لا يُنْقَص من قيمتها، بما هي في رومنسية حضانة، بدون أن ينجم عن ذلك خطر نفسي . الشعوب الجرمانية، وهي مازالت فتيّة، قادرة على خلق أشكال ثقافية جديدة مازالت هاجعة في خافية كل فرد ــ بذور تتفجر بالطاقة وقادرة على الامتداد الشديد . أما اليهودي، وفيه شيء من بداوة، فلم يخلق بعد شكلاً ثقافياً خاصاً

به، وبمقدار ما نستطيع أن نرى لن يفعل ذلك أبداً، مادامت جميع غرائزه ومواهبه تتطلب أمة على شيء من التحضر لكي تقوم بدور المضيف الذي يرعى نموّها .

العرق اليهودي ككل ـــ على الأقل هذه خبرتي ـــ يمتلك خافية لا يمكن مقارنتها مع الخافية « الآريّة » إلا بتحفظ . باستثناء الأفراد المبدعين، اليهودي المتوسط أشد وعياً وتمايزاً من أن يسعى وهو ممتلئ بتوترات مستقبل غير مولود . الخافية « الآريّة » تتمتع بقدرة كامنة أعلى مما تتمتع به الخافية اليهودية؛ إن هذا ميزة وعيب تتصف بهما حداثة سن لم تنفطم بعد عن البربرية . وفي رأيي أنه لمن فادح الخطأ في الطب النفسي أن تطبق المقولات اليهودية ـــ التي لا تنطبق حتى على جميع اليهود ـــ بدون تمييز على المسيحية الجرمانية والسلافية . وبسبب من هذا الخطأ كان تفسير أثمن سر لدى الشعوب الجرمانية ـــ وهو ما يتصف به عمقهم الروحي من حَدْس وقدرة على الخلق ـــ على أنه مستنقع من الطفولية المبتذلة، بينما ظلّ صوتي التحذيري عقوداً متّهماً بمعاداة الساميّة . لقد صدر هذا الاتهام عن فرويد، وهو الذي لم يفهم النفس الجرمانية بأكثر مما فهمها أتباعه من الجرمان . تُرى، هل تعلموا شيئاً من الظاهرة المروّعة التي تمثلت في النازية، التي يحدّق فيها العالم بعيون ملْؤها الدهشة ؟ أين كان التوتر والطاقة اللذان لا نظير لهما عندما كانت الاشتراكية القومية لم توجد بعد ؟ عميقاً في النفس الجرمانية، في حفرة قد تكون كل شيء إلا مزبلة من الرغبات الطفولية غير المحققة واشمئزازات عائلية لم تجد لها حلاً . إن حركة تستولي على أمة بكاملها لابد وأنْ كانت ناضجة في كل فرد أيضاً . إن هذا هو سبب قولي أن الخافية الجرمانية تحتوي على توترات وقدرات كامنة يتعيّن على السيكولوجيا الطبيـة أن تأخذها في اعتبـارها في تقويمها للخافية . يجب أن يكون شغلها

الشـاغل لا العصـاب بل الكـائن البشري ـ إن هذا لهو الامتياز العظيم للسيكولوجيا الطبية : معالجة كامل الإنسـان لا الوظيفة المنفصـلة انفصـالاً مصطنعاً . وهذا يفسر سبب توسيع نطاقها حتى تنكشف أمام الطبيب لا مجرد أخطاء باثولوجية عن نموّ نفسي مضطرب، بل قوى خلاقة لنفس تعمل من أجل المستقبل؛ لا مجرد فُتاتة كئيبة، بل الكل الحافل بالمعنى .

ليس العصاب مجرد شيء سلبي، بل شيء إيجابي أيضاً . ولعَلّه لا يتغاضى عن رؤية هذه الحقيقة إلا عقلانية فاقدة الروح، مؤيدة بنظرة مادية ضيقة . في الحقيقـة، يحتوي العصـاب على نفس المريض، وعلى جزء أسـاسي منها على الأقل . فلو استطعنا، كما يدّعي العقلاني، أن نقتلع منه العصاب مثلما نقتلع سنّاً فاسدة، لم يكسـب شيئاً بل فقد شيئاً أساسياً . أي أنه يفقد بمقدار ما يحرم المفكر من شكّه، أو بمقدار ما يحرم الأخلاقي من إغرائه، أو بمقدار ما يحرم الشجـاع من الخوف . أن تفقد العصـاب هو أن تجد نفسك بلا هدف، وعندئذٍ تفقد الحياة هدفها؛ وحياة بلا هدف لا معنى لها . إن فقد العصاب ليس شفاء، بل عمليات بتْر نظامية . ولعل المحلل النفسي يقدّم للمريض عزاءاً بارداً لو أنه أكدّ للمريض أنه لم يفقد سوى فردوسه الطفولي وأوهامه الرغبية، وأكثرها منحرف . لكنـه يكون قد أضـاع شيئاً كثيراً في الحقيقة، لأنه في العصب تختبئ نُتفـة من شخصية مازالت بعد غير نظامية، شظية ثمينة من النفس، بدونها يُقضى على الإنسان بالعزلة والمرارة وكل شيء آخر معادٍ للحياة . إن علم النفس يتصدى لعلاج العصاب ولا يرى فيه غير العناصر السلبية إنما « يشطف » المولود مع ماء الحمام لأنه يهمل المعنى الإيجابي لهذه التخيلات الخلاقة « الطفوليـة »، كما يهمل قيمتها . هكذا يبدو على الغالـب أن محاولته الرئيسية تكمن في السعي إلى تفسير كل شيء رجوعاً إلى الخلف ونزولاً إلى

الأسفل؛ وطبعاً ليس في الخلف ولا في الأسفل شيء غير جدير بكاريكاتور داعر . لكن هذا لا يدل على أن الرمز أو العَرَض الذي يُفسَّد على هذا النحو له هذا المعنى فعلاً؛ كل ما في الأمر أنه يدل على المراهقة العقلية القذرة التي يتصف بها المفسّر .

وهنا لا يسعني الإمساك عن إبداء هذه الملاحظة : كثيرا ما يحدث أن يعمد أطباء من ذوي العقول الجادة، في إغفال تام لجميع القواعد الأساسية التي يقتضيها الحذر العلمي، إلى تفسير المادة السيكولوجية في ضوء تخمينات ذاتية، لا يستطيع المرء أن يفهم منه شيئاً على الإطلاق اللهم إلا أنها جميعها محاولات لمعرفة النكتة القذرة التي يمكن بواسطتها إقامة صلة بين المادة السيكولوجية ونوع من الشذوذ الجنسي الشفهي أو الأسْتّي أو الإحليلي أو غير ذلك . لقد ضرب سُمّ التفسير « بالنزول إلى الأسفل » جذوره في العمق حتى بلغ نخاع عظام هؤلاء الناس الذين لم يعودوا يفكرون أبداً إلا في لغة الانحراف الطفولي الذي يتمثل في معصوبين معيّنين، ممن يبدون عن جميع خصائص السيكولوجيا الفرويديّة . وإنه لأمر غريب إيجابياً أن يقع الطبيب نفسه في طريقة تفكير يذمها هو في غيره محقّاً، واصفاً إياها بالطفولية، وإنها لهذا السبب تحتاج إلى الشفاء . يقيناً، إنه لأيسر بكثير أن نصنع تخمينات فوق رأس المريض من أن نرى ماذا تعنيه المادة التجريبية فعلاً . ومع ذلك، يقتضي منا أن نذهب إلى أن المريض إنما قصد المحلل لكي يتخلص من طريقته المرضية في التفكير وطريقته في النظر إلى الأشياء . ولذلك قد نستنتج ــ كما هو الحال في كل مكان من الطب الحديث ــ أن العَرَض ما هو إلا سعي الجملة المريضة إلى شفاء نفسها . لكن إذا كانت أفكار المحلل، المنطوقة أو غير المنطوقة، سلبية وذميمة بمقدار ما في أفكار المريض من سلْب ومَذَمّة، عندئذٍ يجب ألا

نستغرب أن يصبح المريض تالفاً روحياً، وأن يعوّض هذا التلف بالإفراط في الاعتماد على العقل اعتماداً لا سبيل إلى الشفاء منه .

من المؤسف أن يوجد أناس كثيرون جداً يبررون عدم ثقتنا . كثيرون منهم يتخذون مُثُلاً عليا وقيماً مزوَقة صوفاً يسدلونه على عيونهم . وغالباً ما يضطر المحلل إلى أن يصف لهم وصفة لا تبعث على سرور لكي يعيد إليهم الحقيقة عن أنفسهم . لكن ليس جميع الناس هم هكذا . على الأقل، عددهم هو عدد المرضى الذين يحتاجون إلى كل شيء إلا الارتياب في القيم والانتقاص منها . هؤلاء أناس محترمون في الأسـاس، يراعون بشرف قواعد اللعبة ولا يعهّرون المثل العليا من أجل تزيين عاهاتهم . أن تعالج مثل هؤلاء الناس على أساس دونيّة القيم والمثل العليا، وأن تنسب إليهم دوافع خفيّة، وأن يخامرك ريب في أن وراء استقامتهم الأخلاقية الطبيعية قذارات غير طبيعية، ليس بالأمر الغبيّ إلى حد الإثم وحسب، وإنما هو عمل إجرامي إيجابياً . التقانية هي دائماً آليّة لا روح فيها، وكل من يعتبر العلاج النفسي مجرد تقانية ويبجّح بأنه كذلك فإنما يخاطر، في الحدود الدنيا، بارتكاب خطأ لا يغتفر . الطبيب الوجداني يجب أن يكون قادراً على الشك في مهاراته ونظرياته جميعاً، وإلا اسْتَغْفَلَتْهُ جملة نظرياته ومنـاهجـه . ذلك أن جميع الأنظمـة والجمـل إنمـا تعني التشبث وانعدام الإنسانية . ولْنبدّد كل شك حول العُصاب بالقول أنه قد يكون كلٌّ عددٍ لا على التعيين من الأشياء إلا أن يكون « ما هو إلا » . هو كرْب الروح البشري في كل تعقيداته الواسعة ــ وقد بلغت من السعة مبلغاً تغدو معها كل نظرية عن العصاب أفضل قليلاً من رسم أوّليّ لا قيمة له، إلا أن يغدو صورة ضخمة عن النفس لا يستطيع أن يفهمها ولا مائة من طراز **فاوست** .

القاعدة الأساسية التي يتعين على طبيب النفس أن يأخذها في اعتباره هي

أن كل حالة هي حالة جديدة وفريدة . ولعل هذا أقرب ما يمكن الوصول إليه من الحقيقة . بدون ذلك، يصعب عليه التميز بين ما هو ذو قيمة وما لا قيمة له . وكما قلت، يتكون العصاب من عاملين : عناد طفولي وإرادة للتكيّف . لذلك كان على طبيب النفس أولاً أن يتلمس طريقه حتى يتبيّن له الجانب الذي يقع عليه التوكيد والتشديد، لأن الحريق يبدأ من هنا . فإن كان التوكيد يقع على إرادة التكيّف، فلا معنى أن يندد الطبيب بمحاولة التكيف وأنها تخيّل رغبيّ طفولي . المحلّل معرّض كثيراً لأن يرتكب هذا الخطأ مع مريضه، والمريض ــ من شدة الألم ــ يشعر بالارتياح لأنه بات في حمى سلطة طبية تحميه من المتطلبات المخوفة والمكروهة من شخصيته؛ أي، من متطلبات ذلك الجزء من شخصيته الذي يختبئ فيه . لكن هذه الشخصية « الأخرى » هي نفس الشيء الذي يجب ألا يغيب عن نظره أبداً، لأنه هو نقيضه الداخلي، الحافز على الصراع الذي ينبغي أن يخوضه إن كان للحياة أن تستمر . بدون هذا التضادّ الأوّلي، لا دفق للطاقة ولا حياة . حيثما بلغ الافتقار إلى التضاد، أصاب الحياة بالسكونية . لكن وراء ذلك تتدفق الحياة بصفة غير شعورية في أشكال من العصاب متجددة ومتغيرة أبداً . وليس يجنّبنا الركود والخضوع إلى التصلب والتذرّع العُصابي شيء كفهمنا للعصاب وتسليمنا بأنه أثمن ممتلكاتنا وأكثرها حقيقية . في العصاب يختبئ ألدّ أعدائنا وأخلص أصدقائنا . على أن المرء لا يسعه أن يبالغ في تقدير قيمة العصاب، اللهم إلا إذا جعل منه القدر عدواً للحياة . لكنْ هناك دائماً منشقّون، ليس عندهم ما يقولونه لنا، كما ليس عندنا ما نقوله لهم .

الرمزية العصابية باعثة على اللَّبْس، تشير رأساً إلى الأمام والخلف، إلى الأسفل والأعلى . عموماً، الحركة الأمامية هي الأهم، لأن المستقبل آتٍ،

والماضي يتقهقر إلى الخلف . والذين يُعدّون للتقهقر، هؤلاء وحدهم، يحسنون صنعاً لو ينظرون إلى الخلف . لا حاجة للمعصوب أن يشعر أنه مقهور؛ كل ما في الأمر أنه أخطأ في الحكم على خصمه الضروري، ظانّاً أنه يستطيع أن يتفلت من قبضته . والمهمة الكلّية التي نُدبت إليها شخصيّتُهُ تكمن في نفس الشيء الذي سعى إلى تجنّبه . وكل طبيب يُضلُّ مريضه عن هذا السبب فإنما يلحق به أذى عظيمً . **إذ ليس على المريض أن يتعلم كيف يتخلص من عُصابه، بل كيف يتحمله** . فمرضه ليس عبئاً مجانياً أو لا معنى له بالتالي؛ إن مرضه هو **نفسه بالذات**، هو « الآخر » الذي سعى دائماً إلى استبعاده من حياته، عن كسل أو خوف صبياني، أو لأي سبب آخر . بهذه الطريقة نجعل من « الأنيـة » EGO « مركزاً للقـلق » Seat of anxiety، كما يقول فرويد بحق، ما كان ليوجد أصلاً لولا دفاعنا عن أنفسنا من أنفسنا على هذه الدرجة العالية من العصابية . عندما نجعل من الأنية « مركز قلق »، يهرب أحدنا من نفســه ولا يقبـل بها . تلك « النفس الأخرى » المخيفة هي الهدف الرئيسي للتحـليـل النفسـي وتقانيّته الانتقاصيّة المدمّرة السـاعية أبداً إلى إنهاك العدو والقضاء عليه قضاء مبرماً ..

يجب ألا نحاول « التخلص » من العصاب، بل حَرِيّ بنا أن نتعلم ماذا يريد منا، ما غرضـه . يجب علينا أن نتعلم الشكر عليه حتى، وإلا تجاوزناه وضاعت منا فرصة الوصول إلى معرفة أنفسنا مثلما نحن في الحقيقة . لا يزول العصاب إلا عندما يزول الموقف الخاطئ الذي اتخذته الأنيّة . نحن لا نشفي العصاب، بل هو يشفينا . قد يمرض الإنسان، لكن المرض محاولة من الطبيعة لشفاء الإنسان أيضاً . من المرض نفسه قد نتعلم الشيء الكثير لكي نستعيد عافيتنا . وما قد ينبذه المعصوب جانباً على أنه لا قيمة له على الإطلاق قد

يحتوي على التبْر الحقيقي الذي ما كان لنا أن نجده في مكان آخر . وكلمة « لا شيء إلا » التي ما ينفك يرددها المحلل النفسي في كل لحظة هي تماماً ما كان يقوله تاجر يريد أن يشتري بضاعة بالثمن الأرخص . لكننا، في هذه الحالة، أمام روح الإنسان، أمله، هروبه الجريء، أجمل مغامراته .

لا، لن تنجح هذه المحاولة لتخليص الإنسان المريض من عصابه، ومع العصاب تخليصه من روحه . زد على ذلك أنها، في العمق، مهمة مستحيلة، خداع : في السياق الطويل، ما من أحد يستطيع أن يتفلت من ظله إلا إن كان يعيش في ظلمة أبدية . إن ما يراه المريض في الانفصال العصابي جزءاً غريباً لهو جزء غريب لم يعرفْهُ من شخصيته، ويسعى لكي يفرض التعريف بنفسه كما يسعى كل جزء آخر من الجسم، حتى إذا أصرّ على نكرانه أصرّ على فرض حضوره . لو أنكر أحد وجود يده اليسرى، لتورّط في شبكة من التفسيرات تقوم على مبدأ « لا شيء إلا »، تماماً كما يحدث للمعصوب، باستثناء أن المحلل يخلع عليها شرف اسم « نظرية » . القول بأن التخيلات الطفولية المنحرفة « لا شيء إلا » هو جهود المريض لكي ينكر يده اليسرى . وهذه الجهود هي بحد ذاتها انحرافه المرضي، ولا تكون باعثة على الاهتمام إلا بمقدار ما تحتوي على إشارة خفية إلى اليد اليسرى . كل شيء آخر حولها غير حقيقي لأنه لا يسعى إلا لإخفائها . طبعاً، يظن فرويد أن الشيء الذي تخفيه هو الشيء الذي تشير إليه هذه التخيلات في شيء من الصراحة، أي الجنس وكل ما يتبقّى منه . لكن هذا المريض هو بالضبط ذلك النوع الذي يضعه فرويد نصب عينيْه في كل وقت . يمتطي حصان هوايته كما يفعل محلّله، الذي ربما سلّمه فكرة مسعفة أو فكرتين ــ الرضّ الجنسي الطفولي الشهير، مثلاً، الذي نستطيع أن نقضي زمناً طويلاً في تتبّعه، لكن لا شيء إلا ليتضح لنا أننا

مازلنا جدّ بعيدين عن الحقيقة مثلما كنّا من قبل .

السبب الحقيقي للعصاب يكمن دائماً في الحاضر، لأن العصاب موجود في الحاضر . ليس أثراً من الماضي؛ يتغذّى ويتجدد خَلْفه في كل يوم . و« الشفاء » منه لا يمكن أن يتمّ إلا في هذا اليوم، لا في الماضي من أيامنا . وبما أن النزاع العصابي يجب أن يُكافَح اليوم، فإن كل رجعة إلى الماضي هي ابتعاد عن الهدف . وبما أن العصاب يحتوي على جزء من شخصية المعصوب، كان كل استطراد في ألف إمكانية وإمكانية من التخيلات القذرة والرغبات غير المقضية ليس إلا ذريعة لتجنب المسألة الجوهرية .

المسألة الجوهرية هي : ما الذي يخترق هذا الضباب من حشْو الكلام وصولاً إلى شخصية المريض الواعية، وماذا يجب أن تكون طبيعة موقفه إن كان لا بدّ له من إعادة هذه الفُتاتة المنشطرة من نفسه إلى نفسه، افتراضاً بأنها كانت دائماً جزءاً لا يتجزأ منه ؟ لكن، هل كان بوسعها أن تقلقه في مثل هذه الشدة، لو لم تكن في منزلة يده اليسرى من جسمه، في منزلة النصف الآخر من نفسه ؟ لذلك، فإن شيئاً ينتسب إليه بالمعنى العميق إنما يكمّله ويخلق فيه توازناً عضوياً، ومع ذلك لسبب ما يخاف منه، ربما لأنه يجعل الحياة معقدة، ويطرح عليه مهامّ مستحيلة نظرياً .

من الواضح أن خير طريقة للتهرب من هذه المهام الاستعاضةُ عنها بشيء يتيح لنا بحق أن ندعوه مستحيلاً ــ مثلاً، عالم القذارات الذي ينصح فرويد نفسُهُ أن نسمو به في أسرع ما يمكن . ويبدو أن فرويد أخذ هذه التخمينات العصابية على محمل الجد تماماً فوقع في نفس الفخ الذي وقع فيه المعصوب : من ناحية يفتش عن منعطف خاطئ بأي ثمن، ومن ناحية ثانية لا يستطيع أن يجد الطريق الصحيح للخروج من المتاهة . لقد كان من الواضح أنه انطلت

عليه الخدعة العصابية فاعتبرها « مذمّة ملطّفة » . لقد قلّل من قيمة العصاب ففاز بتصفيق المرضى والأطباء على السواء، الذين لا يريدون شيئاً خيراً من أن يسمعوا أن العصاب « ما هو إلا » .

غير أن نفس كلمة « من أصل نفسي » Psychhogenic تنبئنا بأن اضطرابات معينة آتية من قبل النفس . لسوء الحظ، ليست النفس هرموناً بل عالم ذو نسب تكاد أن تكون نسباً كونية . وقد تغاضت العقلانية العلمية تماماً عن هذه الحقيقة . هل فكر أطباء النفس مرّة أن لهم أسلافاً آخرين غير مَسْمِر وفاريا وليبولت وشركوت وبرنهايم وجانيه وفورل وغيرهم ؟

ظلت الروح المعتلّة الشغل الشاغل للعقل البشري طوال آلاف السنين، وربما كانت كذلك حتى قبل أن يكون جسده المعتل شغله الشاغل . فالتضرع إلى الآلهة، وأخطار الروح وخلاصها، لم تكن من مشكلات الأمس القريب . فالأديان أنظمة علاج نفسي بأصح معنى الكلمة وعلى أوسع نطاق؛ تعبر عن نظام تام من المشكلة النفسية في صور قوية؛ هي إقرار بالروح واعتراف بها، وفي نفس الوقت كشف عن طبيعتها . عن هذا الأساس العالمي لا يسع روحاً أن تنفصل؛ الواعية الفردية وحدها التي فقدت اتصالها بالكلية النفسية تبقى أسيرة الوهم بأن الروح رقعة محدودة، موضوع مناسب للتنظير العلمي إن فقدان هذا الاتصال العظيم لهو أول شرور العصاب، وهذا يفسر أسباب تضْييع المريض طريقه في أزقّة خلفية ملتوية ذات سمعة سيئة . لأن من ينكر العظيم عليه أن يلوم الحقير . في كتابه « مستقبل الوهم » كشف فرويد عن يده بدون ذكاء . لقد أراد أن يقضي نهائياً على جانب واسع من الظاهرة النفسية، وهو في محاولته هذه تابع العمل المادي الذي يظل يعمل في كل معصوب : قطع الصلة بين الناس والآلهة، الانفصال عن القواعد التي تنهض

عليها النفس التي يعرفها جميع الناس ويشعر بها جميعهم؛ ولذلك كان « نكران اليد اليسرى » للنظير الإنساني أمراً لازماً لوجوده النفسي .

لنمسك عن سؤال من لم يَعِظْ آذاناً صمّاء ! لكن هل كتب غوتيه كتبه عن « فاوست » عبثاً حقاً ؟ أليس فاوست معصوباً بحجم قبضة يدك ؟ ذلك أن الشيطان قد ثبت يقيناً أنه غير موجود . تبعاً لذلك فإن نظيره النفسي أيضاً غير موجود ــ سرّ لم يزال بدون حلّ، وُلد من إفرازات فاوست الداخلية المريبة ! هذا هو على الأقل رأي مفيستول الذي لم يكن هو نفسه فوق اللوم جنسياً بشكل تام ــ عنده ميل إلى أن يكون ثنائي الجنس، إن كان يميل إلى شيء . هذا الشيطان الذي لا وجود له، وفقاً لـ « مستقبل وهم »، مازال هو الموضوع العلمي للتحليل النفسي، الذي يشغل نفسه جذلانَ بطرائق تفكيره التي لا وجود لها . قد يكون قَدَرُ فاوست في السماء وعلى الأرض « متروكاً للشعراء »، لكن في هذه الأثناء تنقلب الآراء المقلوب بعضها فوق بعض عن الروح البشري إلى نظرية في المرض النفسي .

العلاج النفسي اليوم، على ما يبدو لي، مازال أمامه شيء كثير لكيلا يتعلمه ويتعلمه من جديد إن كان له أن ينصف موضوعه قليلاً، وأعني به ملء مدى النفس البشرية . لكن عليه أولاً أن يُمسك عن التفكير عصابياً ويرى السياقات النفسية في منظورها الصحيح . إن الذي يقف في حاجة إلى مراجعة جذرية ليس مفهومنا كله عن العصاب وحسب، وإنما أيضاً أفكارنا عن الوظائف النفسية، كوظيفة الأحلام مثلاً . فقد ارتُكبت أخطاء فادحة هنا، عندما نُظر إلى وظيفة الأحلام، وهي وظيفة طبيعية تماماً، من نفس الزاوية التي ينظر بها إلى مرض . عندئذٍ يصبح جلياً أن العلاج النفسي قد وقع تقريباً في نفس الخطأ الذي وقعت فيه مدرسة الطب القديمة عندما هاجمت الحمّى

اعتقاداً منها بأنها هي كانت الأداة الضارّة .

وإنه لمن قدر العلاج النفسي وسوء حظّه أن تكون نشأته في عصر التنوير حين جعل الارتياب الذاتي من القيم الثقافية القديمة أمراً غير ممكن البلوغ، ومن علم النفس علماً لا وجود له خارج النطاق الذي يتعدّى كثيراً مستوى هربارت وكونديباك ــ اللذين لم يفهم أيّ منهما التعقيدات والمُرْبِكات التي يُواجَه بها فجأة الطبيب الساذج الذي لم يعدّ نفسه الإعداد اللازم . بهذا الخصوص، يجب أن نكون شاكرين لفرويد، لأنه ــ على الأقل ــ خلق حسّاً معيّناً بالاتجاه في هذا العماء، ومنح الطبيب شجاعة كافية لكي يأْخذ حالة الهستيريا أخذاً جاداً، كافتراض علمي . النقد بعد الحدث سهل جداً، لكن رغم ذلك لا معنى لأن ينام كامل الأطباء على أمجاد فرويد . فما زال هناك الكثير لكي نتعلمه عن علم النفس، وحاجتنا الخاصة اليوم أن نتحرر من الأفكار المهترئة التي ضيّقت نظرتنا إلى علم النفس ككل إلى درجة خطيرة .

5 – مشكلة الحب في أوساط الطلبة *

أؤكد لكـم أنني أتصـدى، وأنا غير متحمس، لمهمـة افتتـاح مناقشتكم لمشكلة الحب بين أوساط الطلبة بقراءة بيان عام حول هذا الموضوع . وهذه المناقشة غير اعتيادية، وتكشف عن مصاعب جمّة إذا كان لنا أن نأخذها بروح جادة وحس بالمسؤولية مناسب .

الحب دائماً مشكلة، مهما كان عمر المحب، في الطفولة، حب الولد لأبويه مشكـلة، ومشكلة الرجل العجوز تكمن فيما صَنَع بحبه . والحب قوة القدر الذي تمتد قدرته من السماء إلى الجحيم . أظن أننا ينبغي أن نفهم الحب على هذا النحو إن كنا نريد أن نفي المشكلات التي ينطوي عليها شيئاً من حقها . فهي مشكلات واسعة النطاق، بالغة التعقيد، غير محصورة في منطقة معيّنة، بل تشمل كل جانب من الحياة البشرية . فقد يكون الحب مشكلة أخلاقية أو اجتماعية، نفسية أو فلسفية، جمالية أو دينية، طبية أو قانونية، أو قد يكون مشكلة فيزيولوجية، هذا إذا أردنا الاقتصار على تعداد بضعة جوانب من هذه الظاهرة ذات الجونب الكثيرة . غير أن هذه المساحة الواسعة التي يحتلها الحب في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية ما هو إلا صعوبة صغيرة بالقياس إلى كوْن

---

* محاضرة ألقيت على طلبة جامعة زوريخ، ربما في كانون الأول (ديسمبر) من عام 1922 .

الحب مشكلة فردية بالغة الشدة أيضاً . وهذا يعني أن كل معيار عام، أو كل قاعدة عامة، يفقد صـلاحيتـه أو صـلاحيتها، بنفس الطريقة التي تأبى فيها المعتقدات الدينية الانحناء أمام قاعدة تقليدية، من حيث أن هذه المعتقدات خبرة فردية في جوهرها، على الرغم من أنها تُقنّن دائماً مع مجرى التاريخ بوصفها قيمة اجتماعية .

إن كلمة « الحب »، بحد ذاتها، عقبة في طريق بحثنا . ما هو بالفعل الذي يُسَـمَّ « حباً » ؟ ابتداء من أعلى سرّ في الديانة المسيحية، نواجِه في المراحل التالية إله المحبة عند أوريغن، وإله العقل المحب عند إسبينوزا، وحب أفلاطون لفكرة، و « غوتسمينة » عند المستطيقيين (الصوفيين) . وتُدخلنا كلمات غوتيه في نطاق الحب البشري :

لا فلْتنمِ الغرائز الوحشية الآن
وكل العنفَ الذي تصنع؛
وعندما يضطرب الحب البشري في العمق
يضطرب حبّ الله أيضاً .

هنا نجد حب الإنسـان لجاره بالمعنى المسيحي، مثلما نجد الرحمة بالمعنى البوذي، وحب البشرية كما يعبر عنه بالمعنى الاجتماعي . يلي ذلك حب المرء لوطنه، وحبه للمؤسسات المثالية كالكنيسة . ثم يأتي حب الوالدين، وفوق كل شيء حب الأم، ثم حب الأولاد . وعندما نأتي إلى الحب الزوجي، نخرج من دائرة الحب الروحي وندخل في دائرة متوسطة بين الروح والغريزة . هنا يضرم اللهبُ الطـاهرُ المنبعثُ من « إيروس » النـارَ في الجنس، فتختلط الأشكال المثالية من الحب ـــ حب الأبوين، حب الوطن، حب الجار، إلخ . ـــ بشهوة التسلّط الشخصية والرغبة في التملك والتحكم . وهذا لا يعني أن كل اتصال

للحب بالغريزة يحط من قيمته . على العكس، إن جمال الحب وحقيقته وقوته تصبح أقرب إلى الكمال كلما استطاع أن يمتص الغريزة في داخل نفسه . فقط عندما تسيطر الغريزة يصعد الحيوان إلى السطح . قد يكون الحب الزوجي من النوع الذي تكلم عنه غوتيه في نهاية فاوست :

الروح بالجاذبية يجذب
مادة عنصرية،
يطرّق أصفاداً لا يستطيع كسرها إنسان
ولا تحطيمها ملاك .
طبيعتان مزدوجتان تنموان مفردة
من الداخل متحدة،
بالحب الأزلي وحده
يمكن أن تنقسم .

لكن ليس من الضروري أن يكون الحب الزوجي في مثل هذا الحب . فقد يذكرّنا بكلمات نيتشيه : « حيوانان وقع بعضهما فوق بعض » . وحب العاشق مختلف أيضاً . فقد يتغير شكل هذا الحب بقوة القدر أو بطبيعته المأساوية الخاصة، لأن الأصل أن تسوده الغريزة بوهجها القاتم أو نيرانها الخافقة .

حتى هذا لم يوصلنا إلى حدود الحب . بـ « الحب » نعني أيضاً الفعل الجنسي على جميع المستويات، من الحب المؤيد رسمياً والمساكنة الزوجية إلى الحاجة الفيزيولوجية التي تسوق الرجل إلى البغايا ومجرد التجارة التي يتاجرن بها أو يجبرن على المتاجرة بها .

كذلك نتكلم عن « حب الصبيان »، ونعني بذلك المثلية الجنسية التي

فقدت سحرها منذ الأزمنة الكلاسيكية كمؤسسة اجتماعية وتثقيفية، وهي الآن تحتال على عيش بائس مذعور باعتبارها انحرافاً وجريمة يعاقب عليها القانون، على الأقل كلما تعلق الأمر بالرجال . أما المثلية الأنثوية فيبدو أنها تعني في البلاد الأنكلوسكسونية شيئاً أكثر من الغنائية « السافوية »، لأنها تقوم على نحو ما بعمل تحريضيّ على تنظيم النساء اجتماعياً وسياسياً، تماماً مثلما كانت المثلية الذكرية عاملاً هاماً في نشوء « المدنية » (Polis) الإغريقية .

ثم لايزال علينا أن نمطّ في كلمة الحب حتى تشمل جميع الانحرافات الجنسية . فهناك الحب الرَّهَقيّ *، وحب الذات الذي يتبدّى في العادة السرية ويُعرف باسم النرجسية . ويندرج في كلمة « حب » أيضاً كل نوع من الشذوذ الجنسي المَرَضيّ، كما يندرج فيها كل نوع من الجشع الذي طالما حطّ من قدر الإنسان إلى مستوى البهيمة أو الآلهة الجامدة .

هكذا نجد أنفسنا في الموقع الصعب الذي تفرضه بداية البحث في موضوع أو مفهومٍ حدودُهُ أقلُّ الحدود ظهوراً ومداهُ يكاد أن يكون بلا حدود . بودّي لو نقتصر البحث في مفهوم الحبّ، على الأقل من أجل أغراض المناقشة الراهنة، على مشكلة إئتلاف الطلبة مع الجنس . لكن هذا بالذات غير ممكن، لأن جميع معاني كلمة « حب » التي قد أتيت على ذكرها تدخل فعلاً في مشكلة الحب التي يعاني منها الطلبة .

غير أننا نستطيع أن نبحث في الطريقة التي يسلك بها الشخص المتوسط الذي ندعوه شخصاً سويّاً تحت الشروط التي وصفتها . بصرف النظر عن أن الإنسان « السويّ » غير موجود، نجد مشابهات كافية حتى فيما بين الأفراد

---

* incest الزنا بمن لا يجوز الزواج بهم أو بهن ــ المترجم .

الذين يتألفون من أشد النماذج ثباتاً تجيز لنا بحث مشكلة « متوسطة » . مثلما هو الحال دائماً، يتوقف الحل العملي للمشكلة على عاملين : احتياجات الفرد وقدراته، والشروط البيئوية المحيطة .

يتعيّن على المحاضر أن يقدم عرضاً عاماً عن المسألة التي يتناولها بالبحث . طبعاً، إن هذا غير ممكن إلا إذا قدّمْتُ، وأنا الطبيب، كشفاً موضوعياً بالأشياء كما هي، وامتنعتُ عن ذلك الكلام القديم الذي يقحم الأخلاق في الموضوع ويحجبه عنا بقناع هو مزيج من الخجل والنفاق . فضلاً عن أنني أنا لست هنا لكي أعلمكم ما يجب فعله . هذا يجب أن يُترك للذين يعرفون دائماً ما هو الأفضل لغيرهم من الناس .

إن موضوعنا هو « مشكلة الحب في أوساط الطلبة »، وافترض أن « مشكلة الحب » تعني العلاقة بين الجنسين، ويجب ألا تفسر بأنها « مشكلة جنسية » في أوساط الطلبة . إن هذا يزودنا بتحديد مفيد لموضوعنا، ذلك أن مسألة الجنس لا تحتاج إلى الدرس إلا بمقدار ما هي مشكلة حب أو مشكلة علاقة . لذلك يمكننا استبعاد جميع الظاهرات الجنسية التي تعوزها العلاقة، كالانحرافات الجنسية (باستثناء المثْلية الجنسية)، وممارسة العادة السرية، وغشْيان البغايا . لا يمكننا استبعاد المثْلية الجنسية، لأنها في الأغلب مشكلة علاقة، بينما نستطيع استبعاد ممارسة البغاء لأنها لا تنطوي في العادة على علاقة، على الرغم من وجود استثناءات تثبت القاعدة .

الحل المتوسط لمشكلة الحب هو، كما تعلمون، الزواج . لكن الخبرة تُظهرنا على أن هذه الحقيقة الإحصائية لا تنطبق على الطلبة . السبب المباشر لذلك هو أن الطالب عموماً ليس في وضع يسمح له بـ « فتح بيت » . سبب آخر هو حداثة سن أكثر الطلاب التي لا تسمح لهم بعدُ بالاستقرار الاجتماعي

الذي يترتب على الزواج، إمّا لأن دراستهم لم تنْتهِ بعد، وإما لأنهم يحتاجون إلى التنقل من مكان إلى آخر . وهناك عوامل أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار منها قلة النضج السيكولوجي، والتعلق الطفولي بالبيت والعائلة، والقدرة غير النامية نسبياً على الحب وتحمل المسؤولية، ونقص الخبرة في الحياة والعالم، والأوهام النموذجية عند اليافعين، وهلمّ جراً . وهناك سبب آخر يجب ألا نقلّل من أهميته وهو التحفظ الحكيم عند الطالبات . فهؤلاء هدفهن تكملة دراستهن واستلام عمل . لذلك يمسكن عن الزواج، وخصوصاً عن الزواج بطالب، لأن هذا ما دام بعدُ طالباً فليس هو بالشريك الزوجي المرغوب فيه، للأسباب التي ذكرتها توّاً . وهناك أيضاً سبب آخر، وهو سبب مهم جداً لعدم تواتر الزيجات بين الطلبة، هو مسألة الأولاد . الأصل أن الفتاة عندما تتزوج تريد ولداً، بينما يستطيع الرجل أن يصبر مدة طويلة من دون ولد . والزواج من دون أولاد ليس له جاذبية خاصة عند المرأة؛ لذلك تفضل أن تنتظر .

صحيح أن الزواج بين الطلبة أصبح أكثر طُروءاً في السنوات الأخيرة، إلا أن هذ يرجع جزئياً إلى التغييرات السيكولوجية في نظرتنا الحديثة إلى العالم، وجزئياً إلى انتشار تدابير منع الحمل . التغييرات السيكولوجية التي أنتجت، في جملة أشياء أخرى، ظاهرة الزواج بين الطلاب، ربما كانت نتيجة للهزات الروحية التي حصلت في العقود القليلة الأخيرة، والتي مازلنا غير قادرين على استيعاب مغزاها الكلّي . كل ما نستطيع قوله أن قد حصل تغيير في صميم مفهوم مشكلة الحب نتيجة لانتشار المعرفة العلمية ولاتباع طريقة تفكير أكثر علمية . فقد أحدثت الموضوعية العلمية تقارباً بين الفكرة المقدسة عن الإنسان بما هو كائن عُلْويّ والإنسان بما هو كائن طبيعي، وجعلت من

الممكن أن يأخذ الإنسان العاقل مكانه باعتباره جزءاً من نظام الطبيعة . وقد كان لهذا التغيير مظهر عاطفي مثلما كان له مظهر عقلي . ولا شك أن هذه النظرة تؤثر في مشاعر الإنسان تأثيراً مباشراً، إذ يشعر أنه قد انطلق من حدود النظام الميتافيزيقي ومن المقولات الأخلاقية التي تَسِمُ نظرة القرون الوسطى إلى العالم . فالمحرمات التي أقيمت من أجل عزل الإنسان عن الطبيعة لم تعد سائدة، والأحكام الأخلاقية التي هي في التحليل الأخير ذات جذور في الميتافيزيقا الدينية للعصر قد فقدت سلطانها . في نطاق النظام الأخلاقي، كل أحد يعرف تماماً لماذا كان الزواج « صحيحً »، ولماذا كان كل شكل آخر من الحب ممقوتاً . لكن خارج النظام، في ملعب الطبيعة وميدانها، حيث يشعر الإنسان أنه أعظم أفراد الأسرة الحيوانية الكبرى موهبةً، يجب عليه أن ينحو منحىً جديداً . في بادئ الأمر، بلغ فقدان المقاييس والقيم القديمة مبلغ الفوضى الأخلاقية . أصبحت جميع الصيغ التي كانت مقبولة حتى يومئذٍ مشكوكاً فيها، وبدأ الناس يناقشون أشياء ظلّت مدة طويلة مختبئة خلف انحياز أخلاقي . صاروا يبحثون بجرأة في الوقائع الفعلية ويشعرون بحاجة لا تُقاوم إلى اختزان الخبرة وإلى المعرفة والفهم . إن عيون العلم عيون لا تخاف وترى بجلاء؛ لا تُحجم عن التحديق في الظلمات الأخلاقية والزوايا القذرة . لم يعد بوسع إنسان اليوم الاكتفاء بحكم تقليدي؛ يجب عليه أيضاً أن يعرف لماذا . لقد قاده هذا البحث إلى خلق معايير جديدة للقيم .

من هذه المعايير تقويم الحب على أساس الصحة . على أثر مناقشة للجنس صريحة وموضوعية انتشرت معرفة واسعة بأخطار الأمرض التناسلية انتشاراً واسع النطاق، فحلّ التزام المرء بالمحافظة على صحته محل المخاوف الإثمية في معايير الأخلاقيات القديمة . لكن هذا السياق من أخلاقيات الصحة لم يتقدم

إلى النقطة التي يسمح فيها الضمير العام باتخاذ نفس التدابير المدنية لمعالجة الأمراض التناسلية التي تتخذ عادةً في مكافحة الأمراض الوبائية . إذ مازالت الأمراض التناسلية تُعتبر أمراضاً « غير لائقة »، خلافاً للجُدْري والكوليرا التي تعتبر أمراضاً مقبولة أخلاقياً في عيادة الطبيب . لا شك أن هذه الفروقات الطفيفة خليقة بأن تبعث على ابتسام في عصر أكثر تنوّراً من عصرنا .

إن بحث المسألة الجنسية على نطاق واسع قد دفع بالأهمية الخارقة للعادة التي يتصف بها الجنس في جميع تفريعاته النفسية إلى مكان الصدارة من واعيتنا الاجتماعيــة . وقد قـامت حركة التحـليـل النفسـي التي لقيت من الشجب والاستنكار ما لقيت، بمساهمة كبيرة في غضون ربع القرن الأخير . ولم يعد اليوم من الممكن التغاضي عن الأهمية السيكولوجية الهائلة التي يتمتع بها الجنس بمجرد نكتة رديئة أو بإبداء استنكار أخلاقي . فقد أخذ الناس يرون مسألة الجنس في سياق المشكلات الإنسانية العظمى وبحثها بالرصانة التي تستحقها، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن أصبح اليوم عرضةً للشك الكثيرُ مما كان غير قابل للجدل من قبل . فهناك مثلاً الشك فيما إذا كان الشكل المؤيد رسمياً من الجنس هو الشكل الوحيد الممكن أخلاقياً، وفيما إذا كانت الأشكال الأخرى جميعها يجب الحكم عليها بالبطلان . وقد أخذت الحجج المناصرة والمخاصمة تفقد حدّتها الأخلاقية تدريجياً، بعد أن فرضت الاعتبارات العملية نفسها على البحث، ثم بدأنا نتبيّن أن الجنس المشروع ليس بالضرورة هو المعادل للتفوق الأخلاقي .

بالإضافة إلى هذا، أصبحت مشكلة الزواج بقاعها القاتمة عادةً موضوعاً للأدب الرومنطيقي . بينما كانت الرواية من الأسلوب القديم تختم بخطبة سعيدة أو زواج، تبدأ الرواية الحديثة غالباً بعد الزواج . وفي هذه الروايات، وهي اليوم

في متناول كل شخص، أصبحت تعالج المشاكل الصميمية جداً بدون أدنى تحفظ، الأمر الذي يورث الأذى إيجابياً . لا حاجة بنا إلى الكلام عن ذلك الفيْض الهائل من الأدب المكشوف (بورنوغرفيا) . وقد لقي كتاب علمي كُتب لعامة القراء من مثل كتاب فوريل، « المسألة الجنسية » من الرواج أوسعه؛ ليس هذا وحسب، وإنما وجد عدداً كبيراً من المقلدين . وفي الأدب العالمي، صَدَرتْ أكْوام هائلة من حيث الكم، ومن حيث الطبيعة المرية التي اتصفت بها محتوياتها، إذ تجاوزت كل شيء نجده في مؤلف كرافت إيبنغ الموسوم بعنوان Psychopathia sexualis بطريقة لم يكن من الممكن فهمها قبل ثلاثين أو أربعين عاماً .

هذه الظاهرات الواسعة الانتشار، المعروفة على نطاق واسع، هي علامة الأزمنة . تتيح لشباب اليوم أن يدركوا ما لمشكلة الجنس من الأهمية التامة في وقت أكبر بكثير مما كانوا يستطيعون إدراكه في أي وقت من العقدين الماضيين . هناك من يذهب إلى أن هذا الاهتمام المبكر بالجنس أمر غير صحّي، علامة على انحطاط مدنيّة . أذكر أنني قرأت مقالاً لخمس عشرة سنة خلت في « حوليات الفلسفة الطبيعية » مقالاً لأوستفالد، يقول بالحرف الواحد : « البدائيون من مثل الإسكيمو والسويسريين، إلخ ؛ ليس عندهم مشكلة جنسية » . لا يحتاج الإنسان إلى كثير من التفكير لكي يعرف لماذا ليس عند البدائيين مشكلة جنسية؛ فيما وراء هموم المعدة ليس عندهم مشكلات أخرى تبعث على القلق . المشكلات هي امتياز الإنسان المتحضّر . هنا في سويسرا ليس عندنا مدن كبرى، ومع ذلك لدينا مثل هذه المشكلات . لا أظن أن بحث المسألة الجنسية أمر غير صحّي أو علامة على انحطاط؛ على العكس، إني أرى المسألة عَرَضاً على ثورة سيكولوجية عظيمة،

هي ثورة هذا الزمان، وعلامة على التغييرات التي احدثتها . يبدو لي أننا كلما بحثنا في هذه المسألة بجدّية وشمولية أكبر، وهي مسألة ذات أهمية حيوية بهذا الحجم لصحة الإنسان وسعادته، كان ذلك خيراً لنا جميعاً .

لا شك أن الاهتمام الجاد الذي ظهر في هذه المسألة هو الذي أدّى إلى الظاهرة التي كانت غير معروفة حتى الآن، أعني ظاهرة الزواج فيما بين الطلبة . من الصعب الحكم على هذه الظاهرة الحديثة جداً لعدم توفر المعلومات الكافية . في أزمنة ماضية وُجدت زيجات مبكرة كثيرة جداً، كذلك وُجدت زيجات كانت قلقة جداً اجتماعياً . لذلك كان الزواج الطلابي، في حد ذاته، أمراً مسموحاً به . غير أن مشكلة الأولاد قضية أخرى . فإذا كان الشريكان كلاهما يتابع تحصيله، تعيّن عليه صرف النظر عن موضوع الأولاد . لكن الزواج الذي يظل بدون إنجاب بصورة مصطنعة هو زواج إشكالي دائماً . فالأولاد هم الإسمنت الذي يشد الأواصر بين الشريكين أكثر من أي شيء آخر . وقد كان انصباب اهتمام الأبوين، في عدد لا حصر له من المناسبات، هو الذي حافظ على حيوية شعور الصحبة الأساسي جداً من أجل استقرار الحياة الزوجية . لكن إذا لم يكن أولاد، يتجه اهتمام كل زوج نحو الآخر، وهو اهتمام قد يكون شيئاً حسناً بحد ذاته، إلا أنه ليس من النوع الودّي دائماً، لسوء الحظ؛ إذ غالباً ما يعمد كلاهما إلى إلقاء اللوم على صاحبه على عدم الرضا الذي يشعر به . في مثل هذه الظروف، لعله خير للزوجة أن تواصل دراستها، وإلا ظلّت بدون موضوع يشغلها؛ ذلك أن هناك نساء كثيرات لا يستطعن تحمّل الزواج بدون أولاد، ويصبحن غير محمولات هن أنفسهن . أما إذا كانت تتابع تحصيلها فيكون عندها على الأقل حياة أخرى خارج زوجها تُرضيها تماماً . أما المرأة التي استحكمت فيها فكرة إنجاب الولد، وكان الأولاد عندها

أهم من الزوج بكثير، فعليها أن تفكر مرتين قبل أن يصح عزمها على زيجة طالبية . عليها أن تدرك أن غريزة الأمومة غالباً مالا تظهر في هيئة مُلحّة إلا في وقت لاحق، أي بعد الزواج .

أما مسألة كون الزيجات الطالبية سابقة لأوانها، فيجب أن نأخذ علماً بحقيقة تنطبق على جميع الزيجات المبكرة، وهي أن فتاة في العشرين هي أكبر عادة من رجل في الخامسة والعشرين، من حيث نضج الحاكمة . لأن الكثيرين ممن هم في الخامسة والعشرين يظلّون بدون أن يتجاوزوا فترة المراهقة السيكولوجية . في المراهقة تطغى على الفتى الأوهام ولا يشعر بالمسؤولية إلا جزئياً . والفرق السيكولوجي يرجع إلى أن الأصل أن يكون الصبي، حتى وقت النضج الجنسي، صبيانياً تماماً، على حين تنمّي الفتاة قبل الفتى بكثير مهارات تمشي جنباً إلى جنب مع المراهقة . في قلب هذه الصبيانية غالباً ما يتفجر الجنس قوياً شرساً، بينما يظل هاجعاً في الفتاة، على الرغم من بداية المراهقة، إلى أن توقظه عاطفة حب . هناك عدد كبير جداً من النساء ظل الجانب الجنسي من حياتهن بكراً على مدى سنوات حتى بعد الزواج؛ لا يشعرن بالجنس إلا بعد أن يقعن في حب شخص آخر . ذلكم هو السبب الذي يفسر لنا لماذا كان عدد كبير جداً من النساء لا يفهمن الجانب المذكر من الجنس ــ لا يعين الجانب الجنسي من حياتهن وعياً تاماً . عند الرجال، القضية مختلفة . يهبّ عليهم الجنس كالعاصفة، بملؤهم شهواتٍ وحاجات شرسة، وقلما من نجا منهم من المشكلة المؤلمة، العادة السرية . لكن الفتاة قد تظل سنوات تمارس هذه العادة بدون أن تعرف ماذا تفعل .

إن تفجّر الجنس في الفتى يحدث في سيكولوجيته تغيراً شديداً . لقد صار عنده الآن جانب جنسي في حياته يسوّيه بالرجال، لكن نفسه ما برحت

تُسوى بنفوس الأطفال . غالباً ما يتدفق طوفان من التخيلات القذرة والكلام البذيء يتبادله مع زملائه من الطلبة كما يتدفق سيل من المياه القذرة تغمر جميع مشاعره الرقيقة والطفولية، وقد تخنقها أحياناً إلى الأبد . تنشب فيه منازعات أخلاقيـة مفاجئة، وتتربص به إغراءات من كل وصف تتناسج في تخيلاته . ويسبب له التمثّل النفسي للعقدة الجنسية أعظم الصعوبات وإن كان لا يعلم بوجودها . كذلك إن هجمة المراهقة تحدث تغييرات في استقلابه، كما يمكننا أن نشاهد ذلك في البثور وحب الشباب الذي كثيراً ما يصيب المراهقين . وعلى نحو مماثل تضطرب النفس ويختل ميزانها . في هذه السن يمتلئ الشاب بالأوهام، وهي دائماً علامة على اختلال التوازن . إذ تجعل من الاستقرار ونضج الحكـم أمرين مستحيلين . ويتبدّل تبعاً لذلك ذوقه وخططه واهتماماته . قد يقلبه حب مفاجئ لفتاة رأساً على عقب، ولا يستطيع بعد أسبوعين أن يتصور كيف حدث له شيء من هذا القبيـل . لقد حيّرته الأوهام حتى لقد بات بحاجة إلى هذه الأخطاء لكي تجعله عارفاً بذوقه وطريقته الخاصة في الحكم على الأشياء . لايزال يُجري تجاربه مع الحياة، بل يجب عليه أن يجري تجاربه معها لكي يتعلم كيف يحكم على الأشياء حكماً صحيحاً . من هنا ليس إلا قلة قليلة من الناس من لم يقدم على خبرة جنسية من نوع ما قبل الزواج، في أثناء المراهقة تكون الخبرة الجنسية مثليّة في الأعم والأغلب، وهي أكثر وأعم مما يسلّم به الناس عموماً . أما الخبرة مع الجنس الآخر فتأتي في وقت لاحق، وهي ليست دائمـاً من النـوع الجميـل جداً . ذلك أنه كلمـا كانت العقدة الجنسية أقل تمثّلاً في مجمل الشخصية، كانت أكثر استقلالية وغريزية . عندئذٍ يكون الجنس حيوانيـاً صرْفاً ولا يعـترف بفوارق سيكولوجيـة . أحقر امرأة « يمشي حالها »؛ حَسْبُها أن تمتلك الخصائص الجنسية الثانوية النموذجية . غير

أنّ خطوة خاطئة من هذا القبيل لا تعطينا الحق في استخلاص نتائج عن شخصية مثل هذا الإنسان لأن الفعل يُسْرانَ ما يحدث في وقت تكون فيه العقدة الجنسية مازالت منشطرة عن النفس وبالتالي بعيدة عن تأثيرها . ومع ذلك فإن خبرات كثيرة جداً من هذا النوع خليقة بأن تنعكس تأثيراً سيئاً على تكوين الشخصية، لأنها تثبت الجنس، بحكم قوة العادة، على مستوى بالغ الانحطاط، وتجعله غير مقبول أخلاقياً . والنتيجة هي أن هذا الإنسان، وإن كان مواطناً محترماً في الخارج، إلا أنه في الداخل فريسة تخيلات جنسية من أحط نوع، أو أنه يقوم بكبْتها، فما تلبث في مناسبة بهيجة أن تقفز إلى السطح في هيئتها البدائية، الأمر الذي يعقل بالدهشة البالغة لسان زوجته التي لم تكن ترتاب فيه، افتراضاً بأنها تلاحظ ما يجري بطبيعة الحال . من الآثار المصاحبة التي كثيراً ما تحدث من جراء ذلك برود جنسي سابق لأوانه تجاه الزوجة . النساء في الغالب يكنَّ باردات منذ يوم الزواج الأول، لأن وظيفتهنّ الحسّية لا تستجيب لهذا النوع من الجنس في أزواجهن . إن ضعف محاكمة الرجل في زمن المراهقة السيكولوجية يجب أن يحفزه على التفكير بعمق في الاختيار الناضج لزوجته .

نأتي الآن إلى أشكال أخرى من العلاقة فيما بين الجنسين تعتبر من الأشياء العادية في مرحلة التحصيل العلمي . هناك كما تعلمون، صلات مميزة فيما بين الطلبة، وهذه تحدث في كبريات جامعات البلدان الأخرى بصفة رئيسية . وقد تكون هذه الصلات قريبة من الاستقرار، وقد يكون لها قيمة سيكولوجية أيضاً، من حيث أنها لا تتكون من الجنس كلياً، بل أيضاً من الحب جزئياً . وقد تستمر هذه الصلة حتى إلى ما بعد الزواج . لذلك تقف هذه العلاقة فوق مرتبة أعلى بكثير من التزاني . لكن الأصل أن تقتصر هذه العلاقة على الطلبة

الذين لا يخالفون اختيارات آبائهم . إنها، في العادة، مسـألة مالية؛ ذلك أن معظم الفتيات يتّكلن على محبّيهن من أجل العون المالي، على الرغم من عدم إمكانية القول أنهنّ يبعن حبّهن في مقابل المال . في الأعم الأغلب، تكون العلاقة فترة جميلة في حياة الفتاة، لولاها لكانت فقيرة وفارغة عاطفياً . بينما قد تكون في حياة الرجل أُول تعرّف صميمي له على المرأة، وذكرى ينظر إليها من الخلف نظرة عاطفية في حقبة تالية من حياته . لكن غالباً أيضاً، لا يكون في هذه القضايا شيء ذو قيمة، إما لأن الرجل يتمتع بحواس شرسة، فاقد الفكر والشعور، وإما لأن الفتاة عابثة متقلبة .

فوق جميع هذه الصلات يتدلّى سيف دمقليس، سيف اللحظة العابرة، الذي يمنع من تشكيل قيم حقيقية . قصص عابرة، لا تدوم إلا قليلاً . لكنها ذات أثر ضار بالشخصية الذي يرجع إلى أن الرجل يحصل على الفتاة بطريقة مسرفة في السهولة حتى لتُمتهن قيمة الشخص المحبوب . ولعله يرى أن هذه الطريقة البسيطة وغير المسؤولة ملائمة له للتخلص من مشكلته الجنسية . لقد أصبح امرءاً « مفْسوداً »* . أكثر من هذا، إنه إذ يقضي حاجته الجنسية فإن الفعل الجنسي يسلبه قوة دافعة لا يسع شاباً الاستغناء عنها . يصبح مفعولاً (= غير مشحوذ) ويستطيع الانتظار . في غضون ذلك، يستطيع في هدوء استعراض مواكب الأنوثة تمرّ من أمامه حتى يعثر على الشريك الصحيح . عنـدئذٍ يـأتي الزواج ويُرمى بآخر ورقة من الروزنامة . لكن هذا الاجراء لا يضيف إلا قليلاً من المزايا على شخصيته . فالمستوى المنخفض من العلاقة

---

* رغم أن هذه الصيغة غير صحيحة إلا أنها أفضل كلمة تعبر عن معنى **spoilt** الواردة في المتن ــ المترجم .

يميل إلى الإبقاء على الجنس في مستوى من النموّ يناسبه انخفاضاً، وهذا قد يؤدي في يسر إلى مصاعب في الزواج . ولو كَبَتَ تخيلاته الجنسية، لكان من المحتمل جداً أن يصاب بالعصاب أو، ما هو أسوأ، بالتزمت الأخلاقي .

وبالمناسبة، العلاقات المثليّة الجنس بين الطلبة من كلا الجنسين ليست غير شائعة . في حدود ما أستطيع الحكم على هذه الظاهرة، أقول أن هذه العلاقات هي أقل شيوعاً عندنا، وفي أوروبا عموماً، مما هي في بلدان طلابها وطالباتها في الجامعات يعيشون في حالة انفصال تام . أنا لا أتكلم هنا عن المثليّين المرضى غير القادرين على عقد صداقة حقيقية، ولا يلقون غير القليل من العطف وسط الأسوياء، بل عن الفتيان الأسوياء نوعاً ما الذين ينعمون بصداقة جَذْلى يعبرون خلالها عنْ مشاعرهم في هيئة جنسية . المسألة عندهم ليست مسألة ممارسة العادة السرية بالتبادل، وهي في الحياة المدرسية والجامعة بمثابة البرنامج اليومي فيما بين الأحداث، بل مسألة شكل أعلى وأكثر روحية يستحق اسم « الصداقة » بالمعنى الكلاسيكي للكلمة . عندما توجد مثل هذه الصداقة بين اثنين أحدهما أكبر، والثاني أصغر، سناً، لا يمكن نكران أهميتها التثقيفية . فمعلّم مثلّي الجنس قليلاً غالباً مما يكون مديناً بألمعيّته التعليمية إلى استعداده المثلّي . العلاقة المثليّة بين اثنين أحدهما أكبر والثاني أصغر قد تكون ذات نفع لكلا الطرفين وذات قيمة تدوم طويلاً . والشرط الذي لا غنى عنه لكي تكون هذه العلاقة ذات قيمة هو ثبات الصداقة والولاء لها . لكن هذا الشرط غالباً ما يكون غير متوفر . فكلما كان الرجل مثلّي الجنس، ازداد ميلاً إلى قلة الولاء وإلى إغواء الصبيان . حتى حين يسود الولاء والصداقة الحقيقية فقد تكون غير مرغوب فيها من أجل نموّ الشخصية . طبعاً، إن صداقة من هذا النوع تنطوي على عبادة شعورية خاصة، عبادة العنصر المؤنث في

الرجل . يصبح رجلاً متفيّضـاً (بعبارات المحبة والعاطفة)، عاطفياً، مفرط الحسـاسيـة، إلخ ..، بكـلمـة واحدة، رجلاً مخنّثاً . وهذا المسـلك ضـار بشخصيته .

يمكننا أن نتبين في الصداقات التي تعقد بين النساء مزايا وعيوباً مماثلة، لكن الفرق هنا أن السنّ والعامل التثقيفي ليس لهما تلك الأهمية . والقيمة الرئيسية تكمن في تبـادل المشـاعر الرقيقـة من جهـة والأفكار الصميمية من جهة أخرى . تكـون النسـوة المثـليّـات عموماً ذوات معنويات عاليـة، مفكّرات، مسـترجلات، يسعين إلى الاحتفاظ بتفوّقهن والدفاع عن أنفسهن في وجه الرجال . لذلك كان موقفهن من الرجال يتصف بتوكيد الذات غير المتناسق، مشـوبـاً بـالتحـدّي . أما تأثير المثـليـة على شخصيّتهن فهو تقوية ملامحهن الذكورية والقضـاء على سحرهن الأنثوي . في الأعم الأغلب لا يكتشف الرجل مثـليّتهن الجنسية إلا عندما يلاحظ أن هؤلاء النسوة قد تركنه بارداً كالحجر .

في الحالة السـوية، ممارسـة المثـليّـة الجنسيـة لا تضرّ بالضّـدية الجنسيـة اللاحقة . وفي الحقيقة، قد توجد الاثنتان جنباً إلى جنب . أعرف امرأة ذكية جداً قضت كل حياتها مثليّة الجنس، ولما بلغت الخمسين دخلت في علاقة سوية مع رجل .

من العلاقات الجنسية في مرحلة التحصيل يجب أن نذكر علاقة أخرى طبيعية جداً، حتى وإن كانت على شيء من شذوذ؛ أعني بها تعلق الشـاب بامرأة متقدمة العمر، هد تكون متزوجة أو أرملة . لا بد أنكم ستذكرون جان جاك روسو وعلاقته بمدام ديفاران؛ هذا هو نوع العلاقة الذي في ذهني . في الرجل عادةً شـيء من خجل، وقلة ثقة بنفسـه، وخوف، وطفولية أحياناً .

طبعاً، هو ينشد أمّاً، ربما لأنه كان عنده من الحب ما يزيد عن حاجته، أو ينقص عن حاجته، في عائلته . كثير من النساء لا يُحبِبْنَ مِنَ الرجال إلا مَنْ ليس له معين، خصوصاً إذا كنّ أكبر منه سنّاً؛ لا يُحببْن في الرجل قوّته، فضائله أو مؤهلاته، بل ضعفه . يجذْن في طفوليّته باعثاً على افتتان . فإذا تلعثم قليلاً، خَلَب ألبابَهنّ . ولقد يكون به عَرَج، وعندئذٍ يستثير فيهنّ عاطفة الأمومة . الأصل أن تغوي المرأة فتاها، وأن يستسلم هو، طائعاً، مختاراً لرعايتها الأمومية .

غير أن الشاب المتهيّب لا يبقى دائماً نصف ولد . فقد يكون هذا القلق الأمومي هو ما قد كان بحاجة إليه لكي يطلع بذكوريته غير النامية إلى السطح . بهذه الطريقة تثقف المرأة مشاعره وترق به إلى الوعي التام . يتعلم أن يفهم امرأة اختبرت الحياة والعالم، امرأة واثقة من نفسها، وبذلك تتاح له فرصة نادرة لكي يلمح شيئاً وراء المشاهد . لكنه لا يستطيع أن يستفيد منها إلا إذا نما عن هذه العلاقة سريعاً، لأنه إن التصق بأموميتها دمّرتْهُ . لأن حنان الأم هو أشد السموم فتكاً بكل ما يتعيّن عليه أن يعدّ نفسه لخوض معركة الحياة القاسية التي لا رحمة فيها . فإن لم يستطع انتزاع نفسه من خيطان مئزرها غدا طفيليّة عديمة الفقرات ــ ذلك أن معظم هؤلاء النسوة يملكن مالاً ــ وانحط إلى مستوى كلب الحِجْر أو القط المدلل .

نأتي الآن إلى أشكال من العلاقة لا يشوبها جنس لأنها غير جنسية أصلاً، وهي « أفلاطونيّة » . لو كان لدينا إحصائيات يركن إليها حول هذا الموضوع، لكانت خليقة بأن تظهر أن معظم الطلبة في سويسرا يفضلون العلاقة الأفلاطونية . طبعاً، إن هذا يثير مسألة العفة الجنسية . كثيراً ما نسمع أن الامتناع عن المضاجعة الجنسية ضار بالصحة . إن هذا غير صحيح، على

الأقل بالنسبة لمن هم في سن الطلب . العفّة غير ضارّة بالصحة إلا بعد أن يبلغ الرجل سنّاً يستطيع فيها الفوز بامرأة، ويفعل ذلك تبعاً لميوله الفرديّة وللتكثيف الخارق للعادة للحاجة الجنسية التي غالباً ما يشعر بها الرجل في هذا الوقت هدف بيولوجي هو تجنيب الإنسان اضطراراً وساوسه وشكوكه وتردّده . إن هذا ضروري جداً، ذلك أن نفس فكرة الزواج، بكل ما فيها من إمكانيات مريبة، غالباً ما تُلقي الذعر في نفسه . لذلك ليس له أن يتوقع من الطبيعة إلا أن تحرّضه على اجتياز العقبة . قد يكون للامتناع عن ممارسة الجنس آثار ضارّة في مثل هذه الأحوال، لكنه غير ضارّ إذا لم تكن هناك حاجة فيزيائية أو سيكولوجية ملحّة إليها .

إن هذا يصل بنا أيضاً إلى مسألة مماثلة جداً تتعلق بالآثار الضارة التي تنجم عن العادة السرية . عندما تتعذر ممارسة الجنس الطبيعي لأسباب فيزيائية أو سيكولوجية، تكون ممارسة العادة السرية بمثابة صمام أمان، وتبعاً لذلك لا يكون لها آثار ضارة . الشباب الذين يزورون الطبيب يشكون من الآثار الضارة الناجمة عن ممارسة العادة السرية ليسوا أبداً من المفرطين في ممارستها ــ هؤلاء في العادة ليسوا بحاجة إلى طبيب لأنهم ليسوا مرْضى بأي معنى ــ بل إن ممارستهم للعادة السرية كان لها نتائج ضارة لأنها تبدي عن مضاعفات نفسية وتصاحبها وخزات ضمير أو حشد من التخيلات الجنسية . الأخيرة شائعة خصوصاً في أوساط النساء . ممارسة العادة السرية التي تصاحبها مضاعفات نفسية ضارّة، أما الممارسة العادية غير المعقدة فليس لها أثر ضارّ . غير أن المرء إذا ظل يمارسها حتى بعد أن يبلغ سناً تصبح فيها المضاجعة الطبيعية ممكنة فيزيائياً وسيكولوجياً واجتماعياً، وكان الانغماس فيها لمجرد تجنب مهام الحياة الضرورية، عندئذٍ تكون ضارّة .

العلاقات الأفلاطونية بالغة الأهمية في مرحلة التحصيل . وأكثر ما تتخذه من شكل هو المغازلة . وهي تعبير عن موقف تجريبي مناسب كل المناسبة في هذه السنّ . وفعل إرادة لا يُلزم أيّاً من الطرفين، بموجب اتفاق ضمنيّ، بأي نوع من أنواع الالتزام . إن هذا ميزة وعيب في نفس الوقت . فمن ناحية، يتيح الموقف التجريبي لكلا الطرفين أن يعرف بعضهما بعضاً بدون نتائج مباشرة غير مرغوبة . يمارس كلاهما محاكمته ومهارته في التعبير عن نفسه والتكيف والدفاع . ولقد نكسب من المغازلة تشكيلة ضخمة من الخبرات ذات القيمة الفريدة للحياة التي تلي هذه المرحلة . ومن ناحية ثانية، قد يفضي غياب الالتزام إلى أن يستمرئ الإنسان الغزل ويعتاده، فيُمسي ضحلاً تافهاً متحجر القلب، بطل صالونات ومحطّم قلوب محترفاً؛ لا يحلم أبداً بأي نوع من الشخص الذي هو صائر إليه . وإن كانت فتاة كانت لعوباً، لا يشعر الرجل الرصين أنها خليقة بأن يأخذها المرء على محمل الجد .

وهناك ظاهرة نادرة، على العكس من شيوع ظاهرة المغازلة؛ أعني بها تربية واعية لحبّ جاد . على أننا قد نسمي هذا بمثل أعلى ليس إلا من دون أن نواحده بالرومنطيقية التقليدية . لا شك في أن التنبّه في أوانه والتربية الواعية للمشاعر المسؤولة والجادة تربية عميقة لذو أهمية بالغة من أجل نمو الشخصية . إن علاقة من هذا النوع قد تكون درعاً تقي الشاب من الإغراءات التي تقلقه، كما قد تكون حافزاً قوياً على العمل الشاق والولاء والموثوقية . غير أن كل قيمة عظيمة لا بد وأن يكون لها جانبها غير الملائم . والعلاقة التي نبالغ في مثاليّتها يُسْرانَ ما تصبح علاقة حصريّة لا تتعدّى طَرَفَيْها . تبعاً لذلك يبالغ الشاب في انقطاعه عن النساء الأخريات، ولا تتعلم الفتاة فن الغزو الغرامي لأنها قد امتلكت رجلها؛ غريزة الامتلاك عند المرأة

شيء خطر . أما الرجل فيُسرانَ ما يحدث أن يندم على جميع الخبرات التي فاتَهُ أن يختبرها مع النساء قبل الزواج، وأن يعتزم القيام بها بعد الزواج .

من هنا يجب ألا نستنتج من ذلك أن كل علاقة من هذا النوع هي علاقة مثالية اضطرارأ . هناك حالات يصح فيها العكس تماماً ـــ مثلاً، عندما يتمشّى رجل أو فتاة مع حبيبه المدرسي بدون سبب معقول سوى قوة العادة . وسواء أكان ذلك عن قوة العطالة أم عن نقص روحي، فإنهما لا يستطيعان التخلص أحدهما من الآخر . ربما يجد أبَوا كلا طرفي العلاقة هذه المباراة ملائمة، والقضية التي بدأت في لحظة من انعدام التفكير، ودامت بحكم العادة، مقبولة سلبياً بأمر واقع . هنا تتراكم العيوب ولا تبدو حتى ميزة واحدة . ذلك أن الإذعان والسلبية ضارّان بنموّ الشخصية؛ فهما عقبتان في طريق خبرة ذات قيمة، وفي طريق ممارسة المرء مواهبه وفضائله الخاصة . لا يمكن الفوز بالصفات الأخلاقية إلا في الحرية، ولا تبرهن هذه الصفات على قيمتها إلا في أوضاع خطرة على الأخلاق . فاللص الذي يمتنع عن السرقة، لا شيء إلا لأنه في السجن، هو شخص غير أخلاقي . على الرغم من أن الأبوين قد يشملان هذا الزواج المؤثر بعين اللطف، ويضيفان احتراميّة الأولاد إلى مجموع فضائلهما الخاصة، إلا أن الأمر ليس إلا كذباً ووهماً؛ يفتقر إلى قوة حقيقية، وتَسْتَنْزِفُهُ العطالة الأخلاقية .

بعد هذا العرض الموجز للمشكلات التي تصادفنا في الحياة الفعلية، أعود في الختام إلى بلاء شهوة القلب والإمكانيات اليوتوبية .

في هذه الأيام قلما نبحث في مشكلة الحب بدون أن نتكلم عن يوتوبيا الحب الحر، بما في ذلك الزواج التجريبي . اعتبر هذه الفكرة تخيلاً رغْبيّاً، ومحاولة لإنارة مشكلة هي في الحياة الفعلية صعبة جداً بصورة لا استثناء فيها .

أن نجعل من الحياة أمراً سهلاً لم يعد أمراً ممكناً أكثر من زرع نبْتة الخُلْد . لا يمكن التغلب على قوة الجذب إلا بتسخير ما يلزم من الطاقة . كذلك حل مشكلة الحب يتحدّى جميع الموارد . وكل شيء آخر ترقيع لا فائدة منه . الحب الحر لا يُفهم إلا إذا كان كل أحد قادراً على أعلى تحقيق أخلاقي . إن فكرة الحب الحر ليست اختراعاً جديداً، وهذا الهدف مازال نصب أعيننا، لكننا نخادع أنفسنا عندما نريد أن نجعل من شيء صعب شيئاً هيّناً . الحب يتطلب عمق الشعور وولاءه؛ بدونهما لا يكون الحب حباً بل مجرد نزوة . الحب الصحيح يلتزم ويرتبط بروابط دائمة؛ لا يحتاج إلى الحرية إلا لكي يُعمل اختياره، لا لكي يُعمل إنجازه . كل حب صحيح وعميق هو تضحية . المحب يضحّي بجميع الإمكانيات الأخرى، أو، بالأحرى، بالوهم الذي يجعله يعتقد بوجود مثل هذه الإمكانيات . فإذا لم يؤدِّ هذه التضحية، حالت أوهامُهُ دون نموّ أي شعور عميق ومسؤول، وفاتتْهُ إمكانية اختيار حب حقيقي .

يشترك الحب مع الإيمان الديني في أكثر من شيء واحد . يتطلب ثقة غير مشروطة ويتوقع استسلاماً مطلقاً . فكما أنه ما من أحد غيرُ مؤمنٍ مستسلم كلياً لله يستطيع أن ينال حظه من اللطف الإلهي **divine grace** (أو النعمة)، كذلك لا يسفر الحب عن أرفع أسراره وأعاجيبه إلا للقادرين على العطاء غير المقيد والإخلاص الذي لا يوصف . ولأن هذا أمر بالغ الصعوبة، كان الذين يستطيعون أن يفخروا بمثل هذا الإنجاز أقلَّ من القليل . لكن كما أن أصدقَ الحب وأمحضَهُ هو أيضاً أجملُهُ، كذلك يجب أن يتوقف كل إنسان عن السعي لكي يجعل منه شيئاً هيّناً . إنه لفارس بائس ذلك الذي يُحجم عن صعوبة حب سيّدته . الحب كالله : لا يَهَبُ نفسَهُ إلا لأشجع الفرسان .

6 - المرأة في أوربا

أتزعم أنك حر ؟ بودّي لو أسمع فكرتك السائدة، لا أنك أفلتّ من نير . هل أنت ممن كان لهم الحق بالإفلات من نير ؟ هناك بعض ممن نبذوا آخر قيمة عندهم عندما نبذوا عبوديتهم .

ـــ هكذا تكلم زرادشت ـــ

الكتابة عن المرأة في أوروبا اليوم مهمة محفوفة بالأخطار حتى أنني لم أقدم على هذه المغامرة إلا بعد إلحاح شديد . هل عندنا شيء ذو أهمية أساسية نقوله عن أوروبا ؟ هل فينا أحد منعزل تماماً ؟ ألسْنا جميعاً مندرجين في برنامج أو تجربة، أو مأسورين في نطاق نظرة خلفية تلبّد أحكامنا ؟ وفيما يتعلق بالمرأة، ألا يمكننا أن نسأل نفس الأسئلة ؟ زيادة على ذلك، ماذا بوسع رجل أن يقوله عن المرأة، وهي نظيرُهُ.؟ أعني، بالطبع، شيئاً معقولاً، أي خارج البرنامج الجنسي، محرّراً من الموجدة والوهم والنظرية . أين هذا الرجل القادر على مثل هذا التفوق ؟ تقف المرأة دائماً في حيث يقع ظل الرجل بالضبط، وبذلك يكون أكثر عرضة لأن يخلط بين الاثنين : ظل الرجل والمرأة . وعندما يحاول أن يصحح هذا الخطأ، يفرط في تقويمها ويذهب إلى القول بأنها أشهى شيء في العالم . ولذلك أبدأ بمعالجة هذا الموضوع حاملاً معي أعظم الرِّيَب .

غير أن شيئاً واحداً لا يرقى إليه شك هو ان المرأة تجتاز اليوم مرحلة انتقالية

---

* أول ما نشر هذا البحث في عام 1927 في إحدى المجلات التي تصدر باللغة الألمانية .

هي نفس المرحلة التي يجتازها الرجل . ويبقى للمستقبل أن يبت فيم إذا كان هذا الانتقال يشكل منعطفاً تاريخياً أم لا . أحياناً، عندما ننظر خلفنا إلى أحداث التاريخ، نشعر كما لو أن للزمن الحاضر أشباهاً من حقب معينة من الزمن الماضي، عندما تجاوزت امبراطوريات وحضارات عظمى عصرها الذهبي، ثم راحت تنحدر متسارعة بدون عائق نحو الانحطاط والانحلال . لكن هذه المقارنات باعثة على الخداع، لأن هناك نهضات دائماً . إن ما يتحرك في المقدمة بوضوح موقع أوروبا الذي يتوسط بين الشرق الآسيوي والغرب الأنكلوسكسوني ـ أو هل يجب أن نقول : الاميركي ؟ تقف أوروبا اليوم بين جبارين، كلاهما فظّ في هيئته، لكنّ كلاً منهما مضادّ للآخر في طبيعته . كلاهما يختلف اختلافاً عميقاً عن الآخر لا من حيث العرْق وحسب، وإنما في مُثله العليا أيضاً . في الغرب نجد أعلى حرية سياسية مع أدنى حرية شخصية؛ بينما في الشرق نجد العكس تماماً . في الغرب نموّ هائل للاتجاهات العلمية والتقانيّة الأوروبية، وفي الشرق الأقصى يقظة لجميع القوى الروحية التي هدّتْها في أوروبا تلك الاتجاهات . قوة الغرب مادية، بينما قوة الشرق مثالية . الصراع بين هذه الأضداد، الذي يجري في عالم الرجل الأوروبي في نطاق الفكر المطبّق علمياً، ويجد تعبيره في ساحة القتال وفي وضعيّة رصيده المصرفي، هذا الصراع هو، في عالم المرأة، صراع نفسي .

إن ما يجعل بحث مشكلة المرأة الأوروبية الحديثة أمراً في غاية الصعوبة أننا نكتب عن أقلية بالضرورة . لا وجود لـ « امرأة أوروبية حديثة » بالمعنى المخصوص للكلمة . هل تختلف حياة فلاحة اليوم عن جدتها قبل مائة عام ؟ والحق أنه يوجد عدد كبير من الناس لا يعيشون في الحاضر ولا يشاركون في المشكلات الراهنة إلا إلى حد محدود جداً . نتكلم عن « مشكلة المرأة »، لكن

كم من النساء مَن عندهن مشكلات . من مجموع النساء الأوروبيات لا يعيش في أوروبا اليوم إلا أقلية ضئيلة . وهذه الأقلية تسكن المدن وتنتمي ــ نقول هذا في حذر ــ إلى النوع الأكثر تعقيداً . في القرنين الرابع والخامس للميلاد لم يكن يوجد من المسيحيين الذين فهموا روح المسيحية على أي نحو من الأنحاء إلا قلة قليلة جداً؛ وأما البقية الباقية من سواد الناس فقد ظلوا وثنيين من الناحية العملية . السياق الثقافي الذي يَسِمُ عصراً بِسِمَتِهِ يعمل في المدن على أكثف ما يكون، لأنه يحتاج إلى عدد كبير من الناس لكي يجعل الحضارة ممكنة، ومن هذا العدد الكبير تنتشر الثقافة تدريجياً إلى المجموعات الصغيرة المتخلفة . وعلى هذا فإن الحاضر لا وجود له إلا في المراكز الكبيرة؛ وفي هذه المراكز وحدها نلاقي « المرأة الأوروبية » التي تعبر عن الجانب الاجتماعي والروحي لأوروبا المعاصرة . كلما بتعدنا عن تأثير المراكز الكبرى، ألفيْنا أنفسنا ننكفئُ إلى أعماق التاريخ . في أودية الألب البعيدة، قد نجد أناساً ما شاهدوا قطّ سكة حديد . وفي اسبانيا، وهي جزء من أوروبا، نغوص في عصر وسيط مظلم يفتقر حتى إلى « الألفباء » . إن أناس تلك الأقاليم، أو أناس الطبقات الاجتماعية التي تناسبها، لا يعيشون في أوروبا التي تعيش فيها في الوقت الحاضر، بل في أوروبا القرن الرابع عشر، وإن مشكلاتهم هي مشكلات العصر الماضي الذي فيه يعيشون . لقد حلّلت مثل هؤلاء الناس، فوجدتُني محمولاً إلى الوراء إلى حيث المحيط محيطٌ لم تكن تُعوْزه الرومنطيقية التاريخية .

« الحاضر » طبقة سطحية رقيقة قائمة في كبرى مراكز الحضارة . فإن كانت رقيقة جداً، مثلما كانت الحال في روسيا القيصرية، لم يكن له معنى كما أثبتت ذلك الأحداث . لكنه بعد أن يبلغ قوة معينة، يصبح بإمكاننا أن نتكلم عن الحضارة والتقدم، وعندئذٍ تنهض مشكلات هي من خصائص

العصر . بهذا المعنى إن لأوروبا حاضراً، وفيها نسوة يعشن في الحاضر ويعانين مشكلاته . والذين لم يقضوا وَطَرَهُم من حياة العصور الوسطى لا حاجة لهم إلى الحاضر وتجاربه ومشكلاته . لكن إنسان الحاضر لا يستطيع ـــ مهما كان السبب ـــ أن يعود إلى الماضي بدون أن يتعرّض إلى خسارة فادحة . وغالباً ما تكون هذه العودة مستحيلة استحالة كلّيّة، حتى ولو كان مستعداً للتضحية . يجب على إنســـان الحاضر أن يعمـل من أجل المستقبـل ويترك لغـيره أمر الاحتفاظ بالماضي . بذلك لا يكون بنّاءً وحسب، وإنما هدّاماً أيضـاً . لقد أصبح هو وعالمه كلاهما موضعاً لتساؤل ومبعثاً على التباس . فالطرق التي بناها له الماضي، والأجوبة التي يعطيها على أسئلة، غير كافية لسدّ احتياجات الحاضر وتلبيـة متطـلباته . أما وأن جميع الطرق القديمة المريحة قد سُدّتْ، وأن طرقاً جديدة قد شُقّت، فقد نشـأت مخاطر جديدة لم يكن الماضي ليعرف عنها شيئاً . من الأقوال المأثورة أن المرء لا يتعلم من التاريخ شيئاً . والماضي لا يعلمنا شيئاً فيما يتعلق بالمشكلات الراهنة . يجب أن يُشَقَّ الطريق الجديد في أقاليم غير مَوْطوءة، بدون ســابق فرضيـات، وغالبـاً بدون تقوى لسوء الحظ . الشيء الوحيد الذي لا يمكن إدخال تحسين عليه هو الأخلاق؛ ذلك أن كل تغيير في الأخلاق التقليدية هو تحديداً منافاة للأخلاق .

جميع مشكلات الحاضر تشكل عقدة « مُشَرْبكة »، ولا نكاد نستطيع أن نستفرد مشكلة خاصة ونعاملها في معزل عن المشكلات الأخرى . وهكذا لا توجد مشـكـلة لـ « المرأة في أوربا » بدون رجل وبدون عالم الرجل . فإن تزوجت، كان عليها أن تعتمد على زوجها اقتصـادياً؛ وإن لم تتزوج، وكان عليها أن تعمل لكسب العيش، عملت في حرفة وضع تصميمها رجل . ثم أنها مضطرة لأن تقيم معه علاقة أساسية ـــ اللهم إلا إن كانت على استعداد لأن

تضحّي بحياتها الغريزية كلها . بطرائق عديدة ترتبط المرأة ارتباطاً لا فكاك له بعالم الرجل، ولذلك هي معرّضة مثله تماماً لجميع الصدمات والهزّات التي ينتجها عالمه . فالحرب مثلاً قد أثّرت في المرأة بنفس العمق الذي أثّرت في الرجل، وكان عليها أن تتكيف مع نتائجها مثلما كان عليه . الذي تَعْنيه للرجل الفتنُ التي قامت في عشرين السنة الماضية أو الثلاثين، واضح لكل شخص؛ نستطيع أن نقرأ عنه كل يوم في الصحف . لكن الذي تعْنيه هذه الأحداث للمرأة ليس في مثل هذا الوضوح . فهي ليست عاملاً هاماً في السياسة ولا في الاقتصاد ولا في الروح . فلو كانت بخلاف ذلك، إذن لظهرت في مجال رؤية الرجل وكانت منافسة له . أحياناً يقوم بهذا الدور، لكنْ الرجل فقط، مَنْ يتّفق له أن يكون امرأة ــ إن صح هذا التعبير . لكن بما أن الأصل أن يكون مكانها إلى جانب حميم من الرجل، جانب شعوري فقط، ليس له عينان ولا يريد أن يرى، تظهر المرأة قناعاً لا يُخْترَق، خلفه شيء ممكن وغير ممكن تخمينُهُ ــ ويُرى فعلاً ــ بدون أن يدنو الرجل قرباً من الهدف . الحقيقة الابتدائية، التي مفادها أن الشخص يظن دائماً أن سيكولوجية غيره مماثلة لسيكولوجيته، تحول دون فهم سيكولوجية الأنثى فهماً صحيحاً . ومما يزيد الطين بلّة قلّة وعي المرأة وسلبيّتها، وإن كانت هاتان الصفتان مفيدتين من وجهة نظر بيولوجية : تسمح لنفسها بالاقتناع بمشاعر الرجل المُسْقَطَة . طبعاً، إن هذا ميزة عامة في الرجل، لكنها في المرأة تلْتوي التواءاً خطراً، لأنها ليست ساذجة من هذه الناحية، وفي أغلب الأحيان تكون نيّتها أن تترك نفسها تقتنع بها . إن ما يناسب طبيعة المرأة أن تدعها أنيّتها وإرادتها في المؤخرة، لكيلا تكون عائقاً في طريق الرجل أمام تحقيق مقاصده منها . إن هذا نموذج من الجنس، لكن له تفريعات بعيدة المدى في النفس المؤنثة . فالمرأة إذ تحتفظ

بموقف سلبي ذي غرض خفيّ، فإنما تعين الرجل على تحقيق أهدافه، وبهذه الطريقة تستولي عليه . لكنها في نفس الوقت تقع في أشْراكها، لأن من يحفر حفرة لأخيه يقع فيها .

أسلّم بأن هذا وصف يعوزه شيء من اللباقة، وقد كان من الممكن أن نعطيه ألحاناً أَحْفَلَ بالغنائية . لكن جميع الأشياء الطبيعية لها جانبان، وعندما يتعين على شيء أن يصير واعياً يتعيّن علينا أيضاً أن نرى جانبه الظلّي المعتم كما يتعين علينا أن نرى جانبه المضيء المشرق .

عندما نلاحظ الطريقة التي ابتدأت فيها النساء، منذ منتصف القرن التاسع عشر، احتراف حرف رجالية والنزول إلى ميدان السياسة والدخول في عضوية لجان إلخ ، نستطيع أن نرى المرأة وهي في سياق الانفصال عن نموذجها الجنسي المؤنث صِرْفاً، والمكوّن من قلّة الوعي والسلبية؛ تقدم تنازلاً لسيكولوجية المذكر حين تجعل من نفسها عضواً مرئياً في المجتمع . لم تعد تختبئ خلف قناع السيدة فلانة، مع القصد الملزم بأن يلبي الرجل جميع رغباتها أو أن يدفع الثمن إذا لم تجر الأشياء على ما ترغب .

كانت هذه الخطوة التي خطتْها المرأة في طريق الاستقلال الاجتماعي استجابة ضرورية لعوامل اقتصادية وغيرها، لكنها عَرَض **symptom** بحد ذاتها، وليست هي الشيء الذي نقلق عليه أشد القلق . صحيح أن الشجاعة والقدرة على التضحية اللتين تتمتع بهما هؤلاء النسوة مدعاة إلى الاعجاب، وليس غير الأعمى من لا يستطيع أن يرى ما أثمرت عنه هذه الجهود من خير . لكن ما من أحد يمكنه التغاضي عن أن المرأة إنما تفعل شيئاً لا يتفق تماماً مع طبيعتها الأنثوية، إن لم يكن ضاراً بها ضرراً مباشراً حين احترفت ودرست وعملت كما يحترف ويدرس ويعمل الرجل . تستطيع المرأة أن تفعل شيئاً

يستحيل على الرجل فعله، اللهم إلا أن يكون رجلاً صينياً . هل باستطاعة رجل، مثلاً، أن يقوم بعمل مربية، أو يدير روضة أطفال ؟ عندما أتكلم عن الضرر، لا أعني مجرد الضرر الفيزيولوجي، بل الضرر النفسي فوق كل شيء . من صفات المرأة البارزة أنها تستطيع أن تفعل كل شيء في سبيل حب رجل . لكن النساء اللائي يستطعن أن يفعلن شيئاً هاماً في سبيل حب « شيء » هن استثناءات، لأن هذا لا يتفق فعلاً مع طبيعتهن . حب الشيء امتياز رجولي . لكن بما أن العناصر المذكرة والمؤنثة متحدة في طبيعتنا البشرية، يستطيع الرجل أن يعيش في الجزء المؤنث من نفسه، والمرأة في الجزء المذكر من نفسها . ومع ذلك فالعنصر المؤنث في الرجل هو في المؤخرة، كما أن العنصر المذكر في المرأة هو أيضاً في المؤخرة . فإذا عاش امرؤ في الجنس المضاد من نفسه فإنما يعيش في مؤخرة نفسه، وتعاني فرديّتهُ من الآلام . على الرجل أن يعيش رجلاً، وعلى المرأة أن تعيش امرأةً . والجنس المضاد في كلا الجنسين دائماً قريب من الخافية إلى درجة خطرة . فمثلاً، الروح (الأنيمة، النفس) لها صفة مؤنثة تعوض الواعية المذكرة . (التعليم المستطيقي وسط البدائيين هو همٌّ مذكر حصراً، يناسب وظيفة الكاهن الكاثوليكي) .

الحضور المباشر للخافية يُحدث تأثيراً مغناطيسياً في سياقات الواعية . ولعل هذا يفسر الخوف، أو حتى الرعب، الذي نُحسُّهُ من الخافية . هو رجْعٌ دفاعي مقصود من جانب العقل الواعي . للعنصر الجنسي المضاد سحر خفيّ تغطّيه مَسْحةٌ من خوف، وربما من نفور حتّى . لهذا السبب يتمتع بالجاذبية والفتنة، حتى حين لا يأتينا مباشرة من الخارج، في هيئة امرأة، بل من الداخل كتأثير نفسي ــ مثلاً في هيئة إغراء بأن نُسلم أنفسنا إلى طوْر غريب أو انفعال . هذا المثال ليس سمة من سمات النساء، لأن أطوار المرأة وعواطفها لا

تأتي إليها من الخافية مباشرة، بل هي خاصة بطبيعتها المؤنثة . لذلك فإن طبيعتها ليست ساذجة أبداً، بل تمتزج بقصد غير معترف به . إن ما يأتي المرأة من قبل الخافية لهو نوع من « رأي » لا يفسد لها مزاجاً إلا بصفة ثانوية . هذه « الآراء » أحياناً ضبابيّة، وغالباً غير واعية بصفة كليّة، وقلما يمكن التعرف على المقصود منها وهي، في الحقيقة، تتصف بالجماعية ولها صفة الجنس المضاد، كما لو أن رجلاً — الأب، مثلاً — قد فكر فيها .

هكذا قد يحدث — والحق أن هذا ليكاد أن يكون القعدة — أن يتأثر عقل امرأة تتولى القيام بعمل رجل بذكوريتها الخفية بطريقة لا تلاحظها على نفسها، لكن هذا التأثير يكون واضحاً لكل شخص في محيطها . تُطوّر نوعاً من العقلانية الصلبة المبنيّة على ما يُسمّى بالمبادئ، وتؤيدها بحشد من الحجج التي لا تصيب الهدف أبداً — تفعل ذلك بطرائق مثيرة للغيظ الشديد، وهي لا ترفد إلا بالقليل المشكلة التي لا وجود لها في الحقيقة . المسلمات أو الآراء غير الشعورية هي ألدّ أعداء المرأة؛ فقد تغدو هوىً شيطانياً يغيظ الرجال ويثير فيهم الاشمئزاز، وتلحق أكبر الأذى بالمرأة نفسها عن طريق خنق السحر والمعنى في أنوثتها تدريجياً وتسوقها إلى المؤخرة . من الطبيعي أن ينتهي مثل هذا التطور إلى انفصال سيكولوجي عميق — باختصار، إلى عصاب .

طبعاً لا حاجة للأشياء أن تذهب إلى هذه المسافة، لكن قبل زمن طويل من الوصول إلى هذه النقطة يُثمر سياقُ تذكير المرأة العقلي عن نتائج غير مرغوب فيها . قد تكون رفيقاً صالحاً للرجل، لكنها لا تبلغ مشاعره . والسبب هو « أنيمها » (أي عقلانيتها المذكرة التي من المؤكد أنها ليست معقولة !) قد حال دون وصول المقاربات إلى شعورها . قد تصبح باردة جنسياً، كدفاع في وجه النموذج الجنسي المذكر الذي يتطابق مع نموذجها العقلي المذكر . وإذا

لم يكن الرجع الدفاعي ناجحاً، فقد تطوّر شكلاً عدوانياً من الجنس هو من أخص خصائص الرجل، بدلاً من الجنس المنفعل الذي تتصف به المرأة . هذا الرجْع هو أيضاً ظاهرة هادفة، يُراد منها مدّ جسر إلى الرجل الذي يتلاشى بطيئاً بواسطة القوة الرئيسية . وهناك إمكانية ثالثة، ويفضلها الأنكلوسكسون على وجه الخصوص، هي المثليّة الجنسية الاختيارية في دور الذكر .

لذلك يمكن القول أن الأنيم كلما أصبح بادي الجاذبية، نشأت الحاجة لدى المرأة لكي تقيم علاقة حميمة مع الجنس الآخر . كثير من النساء اللائي يجدن أنفسهن في هذا الوضع يكنّ على علم تام بهذه الضرورة ويمضين ــ لعدم توفر الأفضل ــ في إثارة مشكلة أخرى من مشكلات اليوم لا تقل عنها إيلاماً ــ أي مشكلة الزواج .

تقليدياً، النظرة إلى الرجل هي أنه محطّم الحياة الزوجية . هذه الأسطورة آتية من أزمنة موغلة في القدم، عندما كان الرجال لم يزل عندهم من الفراغ ما يكفي للركض وراء جميع أنواع اللهو والتسليات . لكن الحياة اليوم تُلقي على عاتق الرجل كثيراً من المتطلبات حتى لقد بات النبيل دون جوان لا يُرى إلا فوق خشبة المسرح . لقد أضحى الرجل في هذا العصر، أكثر من أي عصر مضى، يحب الراحة والرفاهية، لأن عصرنا هو عصر الإرهاق العصبي Neurasthenia والعجز والكراسي الهيّنة . لم تعد له قدرة على تسلق النوافذ وخوض المبارزات . وإذا كان لشيء أن يقف في طريق الزنا فيجب ألا يكون بالغ الصعوبة . يجب ألا يكون باهظ الكلفة في أي ناحية من النواحي، من هنا لا يمكن أن تكون المغامرة إلا من النوع العابر . رجل اليوم يخاف خوفاً شديداً من مخاطرة الزواج بما هو مؤسسة . فهو ذو إيمان راسخ بإتيان الأشياء « على الهادئ »، ولذلك هو يميــل إلى الدعارة . بودّي أن أؤكد أن الزنا كان في

القرون الوسطى أكثر نسبياً مما هو عليه اليوم . من هذه الناحية، يجب أن يكون الزواج أسلم الآن منه في أي وقت مضى . لكن هذا بدأ أن يكون موضع بحث في الواقع . وإنها لدلالة سيئة أن يعمد الأطباء إلى تأليف كتب ينصحون فيها القراء باتّباع أفضل السبل من أجل تحقيق « زواج كامل » . والأصحّاء لا يحتاجون إلى أطباء . لقد أصبح الزواج اليوم مؤسسة متقلقلة نوعاً ما . في أميركا، ربع الزيجات تقريباً تنتهي بالطلاق . والشيء الرائع أن كبش الفداء هذه المرة ليس الرجل بل المرأة . هي الطرف الذي يرتاب ويشعر بعدم اليقين . ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن الحرب قد أورثت أوروبا فائضاً هائلاً من النساء العزْباوات، ولقد يكون أمراً غير مفهوم لو لم يأتِ رجْعٌ من ذلك الربع . مثل هذا التراكم للبؤس تترتب عليه نتائج لا مناص منها . فالمسألة لم تعد مسألة بضع عشرات من عجائز العوانس، المريدات وغير المريدات، موجودات هنا وهناك، بل أصبحت مشكلة ملايين . إن تشريعاتنا وأخلاقياتنا الاجتماعية لا تسعفنا بحل لهذه المشكلة . هل بوسع الكنيسة أن تمدّنا بجواب كافٍ ؟ أم هل يجب علينا أن نشيّد أديرة تُؤوي فيها جميع هؤلاء النسوة ؟ أم نتسامح تجاه تفشّي البغاء ؟ من الواضح أن الحل الأول مستحيل، مادمنا لا نتعامل مع قدّيسات ولا مع خاطئات بل مع نساء عاديات، لا يستطعن تسجيل متطلباتهن الروحية لدى الشرطة؛ مع نساء محترمات يردن الزواج . وإذا كان هذا غير ممكن، حسن .. أفضل شيء يليه . عندما نأتي إلى مسألة الحب، فالقانون والمؤسسات والمثل العليا تعني للمرأة أقل مما كانت تعنيه في أي وقت مضى . فإذا لم تستطع الأشياء أن تمشي على خط مستقيم، اتّخذت لها طرقاً ملتوية .

في بداية العصر المسيحي، كان ثلاثة أخماس سكان إيطاليا من العبيد ـــ

أموال منقولة بشرية بدون حقوق . كان كل روماني محاطاً بأرقّاء . لقد أغرق الرقيق وسيكولوجية الرقيق إيطاليا القديمة، حتى لقد أصبح كل روماني رقيقاً من الداخل . ولما كان يعيش بصفة دائمة في جوّ من الأرقّاء، كان لا بد أن يلحقه وباء سيكولوجيتهم . لا أحد يستطيع تحصين نفسه من هذا التأثير غير الشعوري* . حتى اليوم لا يستطيع الأوروبي، العالي التطور، أن يعيش في مأمن من هذا التأثير بين ظهراني زنوج أفريقيا؛ تتسلل إليه سيكولوجيتهم بدون أن تكون ملحوظة، ويصبح زنجياً من حيث لا يشعر . في أفريقيا تعبير شهير حول هذا إذ يقولون : « أَخَذ يسْوَدُّ » going black . ليس الأمر مجرد استعلاء أو تكبر أن يعتبر الإنكليز كلٌّ من يولد في المستعمرات من نوع « أدنى قليلاً »، حتى ولو كان يجري في عروقه خيرُ الدّماء** . هناك وقائع تدعم هذه النظرية .

من النتائج المباشرة التي أحدثها الاسترقاق تلك الماليخوليا الغريبة وذلك التطلع إلى الخلاص الذي ساد روما الإمبريالية، ووجد تعبيره الصارخ في الـ « أكلوغ » الرابع الذي كتبه فيرجيل . ولقد كان الانتشار الانفجاري للمسيحية، وهي ديانة يمكن القول عنها أنها نشأت في مجارير روما ــ نيتشيه سمّاها « انبعاثاً رقيقياً في الأخلاق » ــ كان هذا الانتشار رجْعاً فورياً وضع روح الأرقاء على قدم المساواة مع قيصر الإلهي . حصلت في تاريخ العالم مراراً

---

* يتضمن هذا الكلام دعوة غير مباشرة إلى امتناع الإنسان عن استرقاق أخيه الإنسان، حتى ولو اتخذ هذا الاسترقاق شكلاً غير رسمي وغير معترف به قانوناً، كأن يضطهد الرئيس مرؤوسيه مثلاً . ــ المترجم

** يتضمن هذا الكلام أيضاً دعوة غير مباشرة إلى الامتناع عن الاستيلاء على أراضي الغير . ــ المترجم .

وتكراراً سياقات تعويض سيكولوجي، إلا أنها كانت أقل خطراً . كلما حصل شيء من التشوّه الاجتماعي أو السيكولوجي، يأتي التعويض متحدّياً لكل تشريع وكل توقّع .

شيء مماثل يحدث للنساء في أوروبا اليوم . شيء كثير بل أكثر من اللازم، مما هو غير مقبول، مما هو غير مُعاش، يتراكم في الخافية، قمين بأن يكون له تأثير . سكرتيرات، ضاربات، بائعات ــ كلهن وسائط يسري فيهن هذا السياق، ومن خلال مليون قناة جوفيّة يزحف ذلك التأثير الذي ينسف الزواج . ذلك أن جميع هؤلاء النسوة لا يتشهّين خوض مغامرات جنسية ــ لا يعتقد ذلك إلا غبي ــ بل أن يتزوجن . المالكات لهذا النعيم يجب أن يُطْرِدْن، لا بالقوة المجردة على حسب الأصل، بل بتلك الشهوة العنيدة الصامتة التي لها آثار سحرية كالتحديق الثابت الذي تحدّقه الأفعى . لقد كان هذا أسلوب النساء دائماً .

ما موقف المرأة المتزوجة من كل هذا . تتمسك بالفكرة القديمة القائلة بأن الرجل هو كبش الفداء، وأنه يتنقل من علاقة غرامية إلى أخرى كما يحلو له، وهلمّ جراً . واستناداً إلى هذه المفاهيم المهترئة مازال في وسعها أن تغلّف نفسها على نحو أشد عمقاً بمنازع غَيْرتها . لكن هذا كله على السطح فقط . فلا تكبّر النبيل الروماني، ولا سماكة أسوار القصر الإمبراطوري، نفع في الوقاية من الإصابة بوباء الرقيق . كذلك لن تستطيع امرأة أن تتفادى الجو الضاغط الخفي الذي ربما غلّفتْها به أختُها، ذلك الجو الخانق الذي أشاعتْهُ حياة لم يقدّر لها أن تُعاش قط . الحياة غير المُعاشة قوة تخريبية تعمل بطريقة ناعمة لكن عنيدة . ونتيجتها أن تبدأ المرأة المتزوجة تشك في الزواج . بينما غير المتزوجات يؤمنّ به لأنّهن بحاجة إليه . كذلك يؤمن الرجل بالزواج لأنه يحب

الراحة ويؤمن إيماناً عاطفياً بالمؤسسات، التي تميل دائماً إلى أن تصبح، في نظره، موضوعات يحيطها بمشاعره .

بما أن على المرأة أن تنزل إلى الأرض في مسألة العواطف، هناك حقيقة معينة يجب ألا تغيب عن بالنا . تلك هي تدابير منع الحمل . الأولاد هم أحد الأسباب لالتزام موقف مسؤول تجاه الزواج . فلو انعدم هذا السبب، إذن لحدثت بكل سهولة ويُسر الأشياء التي « لا تحدث » . إن هذا يصح في الدرجة الأولى على النساء غير المتزوجات، اللواتي لديهن فرصة للتعاقد على زواج « تقريبي » . لكن هذا يصدق أيضاً على جميع النساء المتزوجات اللواتي لا يلبّي لهن أزواجهن طلباتهن . ثم إن منع الحمل حقيقة ذات أهمية ضخمة للنساء عموماً، لأنه يبدد الخوف المستمر من الحبل والحذر من التزايد المطّرد في عدد الأولاد . هذا التخلص من العبودية للطبيعة يحدث تحريراً لطاقات نفسية لا بد وأن تبحث عن منفذ لها . عندما لا يجد قدر من الطاقة هدفاً من جنسه يسبب خللاً في التوازن النفسي . وحين يفتقر إلى هدف واعٍ، يشد من عزيمة الخافية ويكون باعثاً على نشأة القلق والشك .

وهناك عامل آخر ذو أهمية عظمى هو تناول المشكلة الجنسية في شيء من الصراحة . كان هذا الإقليم يغمره الظلام في وقت ما، أما الآن فقد أصبح بؤرة اهتمام من العلم وغيره . فقد صار ممكناً أن نسمع ونقول في المجتمع أشياء كان الخوض فيها في الماضي ضرْباً من المستحيل . لقد تعلم أعداد كبيرة من الناس أن يفكروا بحرية أكبر وإخلاص أعمق، فتوصلوا إلى إدراك أهمية هذه المسائل . غير أن بحث المسألة الجنسية ما هو إلا فاتحة خشنة نوعاً ما إلى مسألة أبعد عمقاً منها، هي العلاقة السيكولوجية بين الجنسين . بالمقارنة مع هذه المشكلة، تصبح المشكلة الأخرى باهتة وعديمة الأهمية، وبها ندخل ميدان

المرأة الحقيقي .

سيكولوجيا المرأة مؤسسة على مبدأ « الإيروس » (= العشق)، الآسر والمحرر العظيم، بينما المبدأ السائد الذي ينسب إلى الرجل منذ القدم هو « اللوغوس » (= الكلمة، العقل) . في المصطلح الحديث، يمكننا القول أن الإيروس هو نَسَبٌ نفسي Psychic relatedness، واللوغوس اهتمام موضوعي Objective interest . في نظر الرجل العادي، الحب بمعناه الحقيقي يتفق مع مؤسسة الزواج، وليس خارج الزواج إلا زنا أو صداقة « أفلاطونية » . أما المرأة فالزواج في نظرها ليس مؤسسة أبداً بل علاقة حب إنسانية ـــ على الأقل هذا ما تريد أن تؤمن به . (لأن أيروسها ليس ساذجاً (= ساده) بل تختلط فيه دوافع أخرى لا تجهر بها ـــ الزواج سلّم إلى مركز اجتماعي، إلخ . ـــ المبدأ لا يمكن أخذه على إطلاقه) . الزواج يعني لها علاقة حصرية . فهي تستطيع أن تتحمل حصريّته في يسر كبير، بدون أن يصيبها مَلَل كلما كان لها أولاد أو أقرباء قريبون، علاقتها معهم لا تقل حميميّة عن علاقتها مع زوجها . ولا يعني لها شيئاً ألا تكون لها علاقة جنسية مع هؤلاء الآخرين، لأن هذه العلاقة في نظرها هي أقل أهمية بكثير من العلاقة النفسية . حسبها أنها وزوجها كليهما يؤمنان بأن علاقتهما فريدة وحصرية . فإذا اتّفق أن كان الزوج هو « الحاوية » The container، شعر بأنه مختنق بهذه الحصريّة، خصوصاً إذا لم يستطع أن يتبيّن أن حصريّة زوجته ما هي إلا تقوى خادعة . في الحقيقة، تكون موزّعة بين الأولاد وبين أكبر عدد ممكن من أفراد العائلة؛ بذلك تحافظ على عدد من العلاقات الحميمة . فإذا اتّفق أن كان لزوجها شيء من مثل عدد علاقاتها مع أناس آخرين، جُنّ جنون غيرتها . معظم الرجال عميان إيروتيكياً ـــ يرتكبون الخطأ الذي لا يغتفر حين يخلطون الإيروس بالجنس . يظن الرجل أنه امتلك

المرأة إذا امتلكها جنسياً . إن هذا لهو الامتلاك الأقل، ذلك أن العلاقة الإيروسية بالنسبة للمرأة هي العلاقة الحقيقية والحاسمة . بالنسبة إليها، الزواج علاقة والجنس فيها نتيجة مصاحبة . وبما أن الجنس شيء هائل بسبب نتائجه، كان من المفيد تعاطيه في مكان آمن .. لكنه عندما يكون أقل خطراً يصبح أيضاً أقل مناسبة، وعندئذٍ تحتل مسألة العلاقة مكان الصدارة .

عند هذه النقطة تنخرط المرأة في مصاعب شديدة مع زوجها، لأن مسألة العلاقة تتاخم إقليماً مظلماً وأليماً من وجهة نظره . لا يستطيع أن يواجه هذه المسألة إلا عندما تحمل المرأة عبء الألم، أي عندما يكون هو « المحتوى » contained ـــ بعبارة أخرى، عندما تستطيع المرأة أن تتصور أن لها علاقة مع رجل آخر، وتعاني من انفصال في داخلها تبعاً لذلك . عندئذٍ تكون هي صاحبة المشكلة الأليمة، ويكون هو غير مجبر على رؤية مشكلته، وهي في نظره فَرَجٌ عظيم . في هذا الوضع يكون أشبه بلصّ يجد نفسه، بدون أن يكون مستحقاً لذلك، في وضع لا يُحسدُ عليه عندما يُحبط مسعاه لص آخر ألقى البوليس القبض عليه . فجأة يغدو رجلاً شريفاً،متفرجاً حيادياً . في كل وضع آخر يجد الرجل دائماً أن البحث في العلاقات الشخصية أمر مؤلم وباعث على الملل، تماماً مثلما تجد زوجته أن الأمر يبعث على الملل لو راح يفحصها على طريقة « نقد العقل المحض » . بالنسبة إليه، الإيروس أرض ظلّية « تُشَرْبِكُهُ » في خافيته المؤنثة، في شيء « نفسي »، بينما يُشكل اللوغوس من وجهة نظر المرأة نوعاً من الحذلقة الباعثة على الملل المميت، هذا إذا لم يكن باعثاً على نفورها وخوفها .

كما أن المرأة بدأت، منذ حوالى نهاية القرن التاسع عشر، تقدم تنازلات للذكورة باتخاذه محل عامل مستقل في العالم الاجتماعي، كذلك قدم الرجل،

في شيء من التردد، تنازلاً للأنوثة بخلقه سيكولوجية جديدة تتمثل في ظاهرات العقدة التي ابتدأها فرويد بالسيكولوجية الجنسية . إن ما تدين به هذه السيكولوجيا للتأثير المباشر الذي أحدثته النساء ــ تكتظّ عيادات أطباء النفس بالنساء ــ لهو موضوع يملأ مجلداً ضخماً . أنا لا أتكلم هنا عن علم النفس التحليلي وحسب، وإنما عن بدايات علم الأمراض النفسية أيضاً . لقد كان أكبر عدد من الحالات « الكلاسيكية » إلى حد بعيد، وذلك منذ « عرّافات بريفورست »، من النساء اللائي كلّفنَ أنفسهن، ربما عن غير شعور منهنّ، عناء وضع سيكولوجيتهن تحت النظر بأكثر الأساليب دراميّة، وبذلك أظهرن للعالم مسألة العلاقة النفسية كلها . لقد ضمنت نساء مثل فراو هاوفي وهيلين سميث ومس بوشامب لأنفسهن نوعاً من الخلود أشبه بالذي ضمنته تلك الجماعة الفاضلة التي أورثت أدويتُها الخارقةُ الشهرةَ والرفاهيةَ إلى البقعة التي تصنع الأعاجيب .

تأتي من النساء نسبة عالية جداً من هذه المادة . إن هذا لا يلفت النظر، كما قد يبدو، لأن النساء أكثر « سيكولوجية » من الرجال . الرجل، في العادة، يكتفي بـ « المنطق » وحده . كل شيء « نفسي »، « غير شعوري » إلخ .، يثير فيه النفور؛ يعتبره فضفاضاً، تعوزه الدقة والتحديد، سديمّياً مرعباً . الرجل يهتم بالأشياء والوقائع، لا بالمشاعر والتخيلات الطليقة التي تتجمع حولها أو التي لا علاقة لها بها أما المرأة عموماً فالمهم عندها كيف يشعر الرجل تجاه الشيء أكثر من معرفة الشيء نفسه . وجميع الأشياء التي تشكل عقبة كأداء للرجل ذات أهمية عندها . ولذلك كان من الطبيعي أن تكون المرأة هي الممثل الأكبر مباشرة لعلم النفس الذي تعطيه محتواه الأغنى . أشياء كثيرة جداً يمكننا أن ندركها بأقصى ما يمكن من التميز، أشياء هي في الرجل مجرد سياقات ظلّية

تقبع في القاع الخلفية، أشياء لا يريد أن يعترف حتى بمجرد وجودها . لكن العلاقة البشرية، خلافاً للبحث الموضوعي والتثبت من الوقائع، تؤدّي إلى عالم النفس، إلى ذلك المجال المتوسط بين الحس والروح، الذي يحتوي على شيء منهما جميعاً، ومع ذلك لا يصادر شيئاً من خاصّيته الفريدة المميزة له .

في هذه البلاد يتعين على الرجل أن يُقْدِم على مغامرة إذا أراد أن يلقى المرأة في منتصف الطريق . فقد أجبرتْها الظروف على اكتساب عدد من القسمات المذكرة، حتى لا تبقى أسيرة في أنوثة غريزية، قديمة، ضائعة، وحدها في عالم الرجل . وبذلك يضطر الرجل أيضاً إلى تنمية جانبه الأنثوي، لكي يفتح عينيْه على النفس والإيروس . وهذه مهمة لا يستطيع الاتهرب منها، إلا إذا فضّل أن يقتفي أثر المرأة بطريقة صبيانية يائسة، يعبدها من بعيد لكن دائماً في خطر أن يوضع في جيبها .

للذين يحبّون الذكورة و الأنوثة لذاتها، الزواج الوسيطي التقليدي كافٍ، وهو مؤسسة حقيقة بكل ثناء، مجرّبة ومفيدة جداً . لكن رجل اليوم يجد من أصعب الصعب العودة إلى هذا النوع من الزواج، والكثيرون يرون أن مجرد العودة إلى الوراء أمر مستحيل، لأن هذا النوع من الزواج لا يمكن أن يوجد إلا بإغلاق جميع المشكلات المعاصرة . لاشك أنه كان هناك كثير من الرومان الذين استطاعوا أن يغلقوا عيونهم عن مشكلة الرقّ وعن المسيحية، وأن ينفقوا أيامهم في غيبوبة عن الشعور كانت باعثة لهم على شيء من المتعة . لقد استطاعوا أن يفعلوا ذلك لأنهم لم تكن لهم علاقة بالحاضر، بل كانت علاقتهم بالماضي فقط . الذين لا يرون في الزواج مشكلة أناس لا يعيشون في الحاضر؛ من قال أنهم غير سعيدين ؟! الإنسان الحديث لا يجد في الزواج غير إشكالية كبرى . سمعت مؤخراً عالماً ألمانياً عبّر عن دهشته أمام جمهور من المستمعين

مؤلف من عدة مئــات بــالقول : « زيجاتنـا زيجات زائفـة ! » لقد أعجبتني شجـاعته كما أعجبني إخلاصـه، لأننا في العادة نعبر عن أنفسنا بطريقة أقل مباشرة؛ نقدّم حذرين نصيحة طيبة حول ما يمكن فعله ـــ لكيلا نلطّخ مُثُلنا العاليا . لكن المرأة الحديثة ـــ ألا فليأخذ الرجل علماً بذلك ـــ الزواج الوسيط في نظرها لم يعد مثلاً أعلى . صحيح أنها تحتفظ بشكوكها لنفسها، وتخفي تمرّدها . هنـاك امرأة، لأنها متزوجة وتجد من غير المـلائم إذا لم يغـلق باب الصندوق الحديدي بإحكام . وهناك امرأة أخرى، لأنها غير متزوجة وأطهر من أن تنظر إلى ميولها الخاصة وجهً لوجه تماماً . ومع ذلك، فإن ذكورتهما مكتسبة حديثاً تجعل من المستحيل على أيٍّ منهما أن تؤمن بالزواج في صيغته التقــليدية (« وهو يســود عليك ») . الذكورة تعني أن يعرف المرء مايريد ويفعـل ما هو ضروري لتحقيقـه . حين تتعلّم المرأة هذا الدرس يكون من الواضح جداً أنها لا تستطيع أبداً أن تنساه ثانية بدون خسارة نفسية فادحة . الاستقلال والحُكْمَ الدقيقَ اللذين تكتسبهما بهذه المعرفة هما قيمتان إيجابيتان وتشعر بهما المرأة أنهما كذلك . لا تستطيع التخلي عنهما بعد ذلك . نفس الشيء يصح على الرجل الذي اكتسب؛ بمجهودات كبيرة، تلك النظرة الثاقبة الأنثوية التي يحتاج إليها، النظرة في نفسه هو، التي غالباً ما يكون اكتسابه لها بعد كثير من المعاناة . لذلك لن يدعها تذهب ثانية، لأنه بات يعرف تماماً أهمية ما اكتسب .

قد نظن للوهلة الأولى أن مثل هذا الرجل وهذه المرأة خليقان بأن يحقّقا « الزواج الكامل » . في الوقع ليس الأمر هكذا؛ على العكس، سرعان ما يبدأ النزاع بينهما . إن ما تريد أن تفعله المرأة، بعد أن اكتشفت الثقة بنفسها، ليس بالأمر الذي يبعث على سرور الرجل، بينما لا ترتاح المرأة إلى المشـاعر التي

اكتشفها الرجل في نفسه . إن ما اكتشفه كليهما في نفسه ليس فضيلة أو شيئاً ذا قيمة جوهرية، بل هو عيب بالمقارنة، وقد نشجبه لو كان ثمرة لاختيار أو مزاج شخصي . دكورة المرأة وأنوثة الرجل عيبان فيهما؛ ومن المؤسف أن تُلوِّث قيمة شخصيتهما بشيء قليل القيمة . من ناحية ثانية، ينتسب الظل إلى كليّة الشخصية : الرجل القوي يجب أن يكون ضعيفاً في مكان ما؛ أحياناً يجب أن يكون الرجل الذكي غبيّاً، وإلا كان أصلح من أن يكون إنساناً حقيقياً وأجدر بأن يقع ضحية الغرور والخداع . أليس من الحقائق القديمة أن تحب المرأة الضعف في الرجل القوي أكثر من حبّها لقوّته، والغباء في الرجل الذكي أكثر من حبها لذكائه ؟ إن حبها يريد الرجل في كليّته ــ لا مجرد ذكورته وحدها بل نفْيها أيضاً . حب المرأة ليس عاطفة، كما هو عند الرجل، بل إرادة قد تتجرد أحياناً من العاطفة إلى درجة مرعبة، وقد يحملها أحياناً حتى على التضحية بنفسها . والرجل الذي تحبه المرأة على هذا النحو لا يستطيع أن يتجنب هذا الجانب الناقص من سيكولوجيته، لأنه لا يستطيع أن يستجيب إلى حقيقة حبها إلا بحقيقته هو . وهذه الحقيقة ليست هي المظهر الصريح، بل هي انعكاس صادق للطبيعة البشرية الأزلية التي تعقد الرابطة بين جميع أبناء النوع البشري، انعكاس للأعالي والأسافل في الحياة البشرية التي نشترك فيها جميعاً . في هذه الحقيقة لا نعود متمايزين في شخوصنا بل واعين على روابطنا الإنسانية المشتركة . هنا أتجرّد من تميّز شخصيتي، الاجتماعية أو غيرها، وأغوص بحثاً عن مشكلات اليوم الحاضر، وهي مشكلات لم تطلع من نفسي ــ أو هكذا أريد أن أتصور على الأقل . هنا لا يعود بوسعي إنكارها؛ أشعر وأعرف نفسي أني واحد من كثيرين، وأن ما يحرك الكثيرين يحركني . في قوتنا، نحن مستقلون ومعزولون وأسياد قدرنا . في ضعفنا، نحن قاصرون ومقيدون،

ونصبح أدوات للقدر لا إرادة لها، لأنه هنا ليست الإرادة الفردية هي صاحبة الاعتبار بل إرادة النوع .

إن ما اكتسبه الجنسان عن طريق التمثل المتبادل عيب إن نظرنا إليه من عالم المظاهر الشخصية الثنائية البعد، ودعوى منافية للأخلاق إن نظرنا إليه كادّعاء شخصي . لكنه في معناه الحقيقي للحياة والمجتمع قهر للانعزال الشخصي والاحتياط الأناني من أجل المساهمة في حل مشكلات الحاضر . ولذلك، عندما تعمد المرأة اليوم، عن وعي أو غير وعي، إلى تفكيك روابط الزوجية المتماسكة باستقلالها الروحي و الاقتصادي، فليس هذا تعبيراً عن إرادتها الفردية، بل عن إرادة النوع التي تجعلها، وهي المرأة الفرد، أداتها .

إن مؤسسة الزواج شيء بالغ القيمة، اجتماعياً وأخلاقياً ـ المتديّنون يعتبرونها سراً من الأسرار المقدسة، حتى ليغدو أمراً مفهوماً أن يشعروا إزاء أي درجة من الضعف يصيبها بأنه أمر غير مرغوب فيه، بل باعث على الخزي . إن نقص الإنسان دائماً هو في ذلك الانقطاع الذي يصيب مُثُلَهُ العليا . لسوء الحظ، لا أحد يعيش في العالم كما نشتهيه، بل في عالم الواقع حيث يتصادم الخير والشر ويحطم إحداهما الآخر، حيث لا يمكن الإتيان بخلق أو تعمير بدون أن يلوّث المرء يديه . عندما تسوء الأشياء فعلاً، نجد أن هناك دائماً من يؤكد لنا وسط التصفيق الحاد أن ما من شيء قد حدث، وأن كل شيء على مايُرام . أُعيد، أن كل من يعيش ويفكر على هذا النحو لا يعيش في الحاضر . فلو درسنا كل زواج بعين فاحصة، لوجدنا أعراضاً تدل على وهنه وعلى انفصال سرّي، أعراضاً على « مشكلات زوجية » تتراوح بين نوبات انفعالية لا تطاق وبين العصاب والزنا . لسوء الحظ، الذين مازال بوسعهم أن يظلوا غير واعين لا يمكن محاكاتهم؛ فمثالهم لم يبلغ داؤه من العَدْوى مبلغاً يحمل مَنْ هم

أكثر وعيا على النزول ثانية إلى مستوى مجرد الغياب عن الشعور .

أما جميع الذين هم غير مجبرين على العيش في الحاضر، وهم كثيرون، فمن المهم إلى أبعد حدود الأهمية أن يؤمنوا بالمثل الأعلى للزواج وأن يتمسكون به تمسكاً شديداً . إننا لا نكسب شيئاً إذا نحن حطمّنا مثلاً أعلى ولم نستبدل به شيئاً خيراً منه . لذلك يتردد حتى النساء، أن كن متزوجات أو عازبات، في الانضمام علناً إلى الجانب المتمرد . لكنهن، على الأقل، لا يقتفين أثر تلك المؤلفة الشهيرة التي انتهت إلى شاطئ الأمومة الأمين، الذي رسا عليه الزواجُ كأفضل الحلول، وذلك بعد أن خاضت جميع ضروب التجارب، وجميع اللائي لم يبلغن إلى هذا الحل بوسعهن أن يعكفن متفكّرات على أخطائهن وينهين أيامهن في الزهد والتقوى . بالنسبة للمرأة الحديثة ليس الزواج في مثل هذه السهولة . إن لزوجها ما يقوله في هذا الشأن .

ما دامت هناك فقرات قانونية تحدد بالضبط ما هو الزنا، فلسوف تظل النساء مقيمات على شكوكهن . لكن هل يعرّف المشرّعون ما هو الزنا فعلاً ؟ وهل تعريفهم له هو التجسيد النهائي للحقيقة ؟ من منطلق سيكولوجي، وهو المنطلق الوحيد الذي يهم المرأة، جاء تعريف الزنا « لَهْوَجَةً » مثل كل شيء آخر اخترعه الرجال بغية تقنين الحب . بالنسبة للمرأة، الحب لا علاقة له بـ « سوء السلوك الزوجي » أو « المضاجعة خارج الزواج » أو « خداع الزوج »، أو أي صيغة أخرى من الصيغ القليلة النكهة التي اخترعها عقل مذكر أعماه الهوى، وردّد صداها شيطان معتدّ برأيه كامن في المرأة . ما من أحد غير مؤمن إيماناً مطلقاً بحرمة الزواج التقليدي يمكنه أن يرتكب مثل هذه التعدّيات على الذوق السليم، تماماً كما أنه ما من أحد غير مؤمن بالله يمكنه أن يجدّف على الله . ومن يشك في الزواج في المكان الأول لا يستطيع أن ينتهك

له حرمة؛ التعريف القانوني لا يسري عليه، لأنه يشعر، كالقديس بولس، أنه فوق القانون، على صعيد أرفع من الحب . لكن بما أن المؤمنين بالقانون كثيراً ما يخالفون قوانينهم، سواء عن غباء أو إغراء أو عن مجرد نزوع إلى الإثم، بدأت المرأة الحديثة تتساءل إن كانت هي أيضاً ليست من هذه الفئة . إنها تدرك هذا، من المنطلق التقليدي، بل عليها أن تدركه لكي تحطّم صنم اعتباريّتها الخاصة بها . أن تكون « معتبراً » أو محترماً، معناه ــ كما تعلمنا الكلمة * ــ أن تسمح لنفسك أن تكون مرْئياً، والشخص المعتبر أو المحترم هو الشخص الذي يرتفع إلى مستوى توقعات العامة، الذي يرتدي قناعاًمثالياً ــ باختصار، هو شخص زائف . « الشكل الحسن » ليس خداعاً ولا غشاً، لكن عندما تقع النفس (سايكي) تحت وطأة الكبْت يأتيها من قبل الاعتبارية *، فإن جوهر الإنسان الذي هو هبة من الله يصبح عندئذٍ « قبراً مكلّساً » كما سماه المسيح .

أصبحت المرأة الحديثة تعي حقيقة لا تنكر وهي أنها لا تستطيع بلوغ أعلى ما في وسعها وتحقيق خير ما فيها إلا بالحب، وهذا الوعي يسوقها إلى إدراك حقيقة أخرى وهي أن الحب فوق القانون . لكن اعتباريّتها تتمرد على هذه الحقيقة، وأننا لنميل إلى مواحدة هذا التمرد مع الرأي العام . وأن ما من شأن هذا أن يكون أهون شراً، لكن الأدهى أن الرأي يجري في دمها؛ يأتي إليها كصوت آتٍ من داخلها، كنوع من الضمير؛ وهذا هو القوة التي تمنعُها وتقيدها . إنها لا تدري أن الحب، وهو أكثر الأشياء شخصية عندها وأثمن شيء تمتلكه، قد يورطها في نزاع مع التاريخ . قد يبدو لها مثل هذا الشيء أمراً غير متوقع بالمرّة،

• الكلمة هي : Respectability ــ المترجم .

بل وسخيفاً . ثم، حين تصل المسألة إلى هذا الحدّ، من ذا الذي يدرك تماماً « أن التاريخ ليس في الكتب السميكة بل يعيش في دمائنا نفسها » ؟

ما دامت المرأة تعيش حياة الماضي، لا يمكنها أن تنخرط في صراع مع التاريخ . لكنها لا تكاد تبدأ تحيد، ولو قيد أنملة، عن الاتجاه الثقافي الذي كان سائداً في الماضي حتى تواجه ثقل العطالة التاريخية كلها، وقد تؤذيها هذه الصدمة غير المتوقعة إيذاءاً كبيراً قد يصل إلى حدٍّ مميت . إن ترددها وشكلها مفهومان تماماً، ذلك أنها إذا خضعت إلى قانون الحب وجدت نفسها في وضع ليس غير مقبول ومريب جداً وحسب، حيث يكثر كل نوع من الدعارة والفساد، وإنما أسيرة بين قوّتيْن عالميتيْن ــ العطالة التاريخية والحضّ الإلهي على الخلق .

وعندئذٍ، من يلومها على ترددها ؟ أليس يفضل معظم الرجال أن يستريحوا إلى أكاليل الغار تكلل رؤوسهم على خوض غمار صراع ميؤوس منه إن كان عليهم أن يصنعوا التاريخ أو لا يصنعوه ؟ في النهاية تُلخص القضية على النحو التالي : هل نحن مستعدون لخرق حرمة التقليد، وأن نكون « غير تاريخيين » لكي نصنع التاريخ، أم أننا غير مستعدين لذلك ؟ ما من أحد يستطيع أن يصنع التاريخ إن كان لا يريد أن يخاطر بكل شيء من أجله، والذهاب بتجربته الحياتية حتى النهاية المفجعة، والإعلان أن حياته ليست استمراراً للماضي، بل بداية جديدة . إن مجرد الاستمرارية هو من سمات الحيوان، لكن الابتداء هو امتياز الإنسان، الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يفخر به إذ يرفعه فوق مستوى السائمة .

لا شك أن امرأة اليوم معنيّة بهذه المشكلة؛ تعبّر عن أحد الاتجاهات الثقافية في عصرنا : الحضّ على حياة أتمّ، وتوق إلى المعنى والإتمام، ونفور شديد

من الأحاديّة التي لا معنى لها، مع غريزة غير شعورية والممكن الأعمى . إن نفس الأوروبي الحديث لم تنس درس الحرب الأخيرة، على الرغم من استبعاده الشديد لها من واعيته . صارت النسوة يزداد وعيهن أن الحب وحده هو الذي يمكنه أن يعطيهن كامل قوامهن، تماماً مثلما بدأ الرجال يتنبؤون بأن الروح وحده يمكنه أن يمنح الحياة أسمى معنى لها كلاهما يبحث عن علاقة نفسية، لأن الحب يحتاج إلى الروح، وحب الروح، من أجل تمامه .

تشعر المرأة في هذه الأيام ألا وجود لأمن حقيقي في الزواج . إذ ما معنى إخلاص زوجها عندما تعلم أن مشاعره وأفكاره تجري خلف نساء أخريات وأنه أجبن من أن يركض وراءهن . ثم ما معنى إخلاصها هي عندما تعلم أنها لا تلتزمه إلا لاستغلال حقها الشرعي في التملك، وتضليل روحها ؟ إن لديها إلماعات ذات مطابقة عالية للروح، ولحب يتجاوز الضعف والنقص البشريين . وربما كان عليها أن تكتشف أن ما يبدو ضعفاً ونقصاً، اضطراباً أليماً أو انحرافاً مرعباً، يجب أن يترجم وفقاً لطبيعته المزدوجة . إن هذه خطوات تفضي إلى أحطّ المستويات البشرية وتنتهي أخيراً إلى مستنقع الخافية لو تركها المرء تذهب من تميّزه الشخصي . لكنه إذا استطاع الاحتفاظ بها، يكون قد اختبر لأول مرة معنى النفسية Selfhood، شريطة أن يستطيع في نفس الوقت النزول إلى ما دون مستوى نفسه إلى حيث الكتلة غير المتمايزة التي تتألف منها البشرية . أي شيء آخر يستطيع أن يحرره من العزلة الداخلية الناشئة عن تمايزه الشخصي ؟ وأنّى لشيء آخر أن يشيد له جسراً يوصله بسائر بني البشر ؟ الإنسان الذي يقف فوق مرتفع ويوزع خيراته على الفقراء هو منفصل عن البشرية بسبب علوّ فضيلته الخاصة، وكلما نسي نفسه وضحّى بنفسه من أجل الآخرين ازداد اغتراباً عنهم .

كلمة « إنسـاني » تقرع في الأذن معنى جميلاً . لكن إذا فهمناها فهماً صحيحاً، لم تَعْنِ لنا شيئاً جميلاً أو فاضلاً أو ذكياً على وجه مخصوص، بل تعني متوسطاً منخفضاً . هذه هي الخطوة التي لم يستطع زرادشت اتخاذها، الخطوة المُفْضية إلى « أقبح إنسان »، الذي هو إنسان حقيقي . إن مقاومتنا لاتخاذ هذه الخطوة، وخوفنا منها، تبيّن عِظَم الجاذبية والقوة المغْرية الكامنة في أعماقنا . أن ينفصل المرء عن هذه الجاذبية ليس بالحل، بل زيف وسوء فهم جوهري لمعناها وقيمتها . لأنه أين يوجد مرتفع بلا منخفض، وكيف يوجد نور لا يُلقي ظلاً ؟ لا وجود لخير لا يضادّه شر . « ما من إنسان يمكن فداؤه من إثم لم يرتكبْـه »، هكذا يقول كاربوقراط . وهو قول عميق لمن يريد أن يفهم، وفرصة ذهبية لكل من يريد أن يستخلص نتائج خاطئة . ما هو تحت في الأسفل ليس مجرد عذر للمزيد من الملذّات، لكنه شيء تخافه لأنه يطالب أن يلعب دوره في حياة الإنسان الأكثر وعياً والأكثر تماماً .

ما أقوله هنا غير موجّه للشباب ـــ إنه بالضبط ما يجب ألا يعرفوه ـــ بل للرجل الناضج الذي اتّسعت واعيته بفضل اختباره للحياة . ما من إنسان يستطيع أن يبدأ بالحاضر؛ لا بد من أن ينمو فيه في بطء؛ ذلك لأنه لا وجود لحاضر بلا ماض . أما الشاب فلم يكتسب بعد ماضياً، لذلك لا حاضر له أيضاً . لم يخلق ثقافة، بل هو مجرد موجود . امتياز الناس الناضجين الذين اجتازوا ظهيرة الحياة، والمهمة الملقاة على عاتقهم، أن يخلقو الثقافة .

النفس الأوروبية مزّقتْها بربرية الحرب الجهنمية إرْباً . في الوقت الذي يمدّ الرجل يده إلى إصلاح الضرر الخارجي، تسرع المرأة ـــ بصورة غير شعورية كدأبها دائماً ـــ في لأم الجروح الداخلية، لذلك هي تحتاج إلى علاقة نفسية، باعتبـارها أهم أداة لها . لكن لا شيء يعوق ذلك أكثر من الأقتصار على

الزواج الوسيطي (= زواج القرون الوسطى)، لأنه يجعل هذه العلاقة أمراً لا لزوم له بالمرة . لكن هذه العلاقة غير ممكنة إلا إذا كان هناك مسافة نفسية بين الناس، بنفس الطريقة التي تقضي الأخلاق بافتراض سبق وجود الحرية . لهذا السبب كان ميل النساء غير الشعوري يتّجه نحو تراخي البنية الزوجية، لكن لا إلى تحطيم الزواج والأسرة . ليس من شأن هذا أن يكون منافياً للأخلاق وحسب، وإنما إساءة استعمال تامة لقواها الخاصة .

قد يتطلب الأمر مجلدات لوصف الطرائق التي يتحقق بها هذا الهدف . وإنها لطريقة المرأة، بالطبيعة، أن تعمل بصورة غير مباشرة، من غير أن تسمي هدفها . تردّ على كل شيء لا يرضيها برجْعٍ ردّاً مقصوداً، بانفعالات وانفجارات عاطفية وآراء وأفعال لها جميعاً نفس الغاية . وكل ما يبدو عليها من لغو وخبث وقسوة ذات دم بارد ـــ كل ذلك باعث على الأسى الشديد في الرجل الذي عَمِيَ عن الإيروس .

أسلوب المرأة غير المباشر أسلوب محفوف بالخطر، لأنه يستطيع المساومة على هدفها بطريقة تبعث على اليأس . إن هذا يفسر لنا لماذا تتطلع المرأة إلى واعية أكبر تتيح لها أن تعيّن هدفها وتمنحه معنى، وبذلك تُفلت من دينامية الطبيعة العمياء . في عصر غير هذا العصر كان خليقاً بأن تكون الديانة السائدة هي الديانة التي تطلعها على مكمن هدفها النهائي . لكن ديانة اليوم ترجعنا إلى العصور الوسطى، إلى انفصام العلاقات المدمّر للروح الذي جاء منه جميع بربريات الحرب الرهيبة . الكثير من الروح لله، والقليل منه للإنسان . لكن الله نفسه لا يزدهر إن كانت روح الإنسان جائعة . ونفس الأنثى تتجاوب مع هذا الجوع، لأن وظيفة الأيروس توحيد ما فرّقته اللوغوس . امرأة اليوم تواجه مهمة ثقافية هائلة، ربما كانت فجراً لعهد جديد .

فهرست

1992 / 9 / 437

هذا الكتاب

تقـرع كلمة « الخـافية » أو « الـلاشعور » Unconscious في أذن الإنسان العادي غير المختص نغمة تـدل على شيء ميتـافيزيقي ، أو على شيء يكتنفه الغموض وتحيط به السرّيـة . وترجـع هذه الصفـة العـالقـة بمفهـوم الخـافيـة ، في الـدرجـة الأولى ، الى دلالـة هــذا الاصـطلاح على كينـونة ميتـافيزيقيـة عندمـا وجد طـريقـه الى لغـة التخاطب العادية . فقد كان إدوارد فون هارتمان ، يدعو الخـافية بـ « الأرض العـالمية » Universalground . ثم جـاءت « الخفـائيـة » Occultism فـأدرجت الكلمة في جملة مصـطلحاتهـا ، من حيث أن الـذين يميلون الى الأمور الغيبيـة مولعـون باستخـدام المصطلحـات العلميـة لكي يلبسوا أفكـارهم قناعـاً « علمياً » . أمـا علماء النفس التجريبيّون ، الذين ظلوا مدة طويلة يعتبرون أنفسهم ـ وهم ليسـوا على غير حق في هذا ـ الممثلين الحقيقيين للسيكولوجيا العلمية ، فقد اتخذوا موقفاً سلبياً من مفهوم الخافية أو اللاشعور ، على أسـاس أن كـل شيء نفسي عندهم فهـو شأن من شؤون الـواعية أو الشعـور ، وأن الـواعيـة وحـدهـا هي الجـديـرة بـاسم « النفس » (سـايكي Psyche) . كانوا يسلّمون بأن المحتويات النفسية الواعية تُبدي عن درجات متفاوتة من الوضـوح ، بعضها « أسـطع » أو « أظلم » من بعض ؛ لكنهم لم يقرّوا بوجـود محتويـات غير شعـورية أو بـاطنة من حيث أن اصطلاح « اللاشعور » ينطوي على تناقض .

من المقدمة

المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع